الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع)

وليد الأبواء وشهيد بغداد

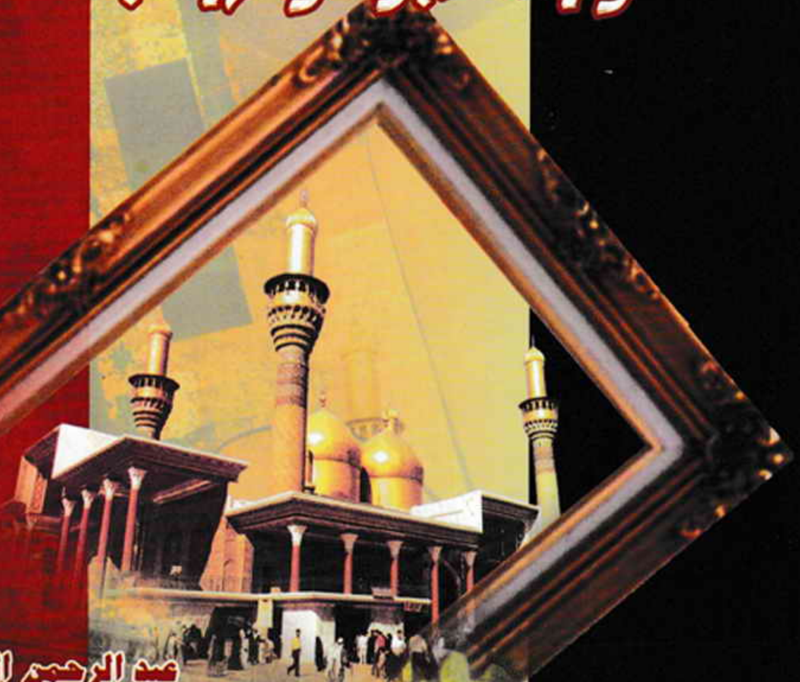

عبد الرحمن العلوي

دار الهادي

شبكة الفكر
alfeker.net

هدية مؤسسة
الإرشاد والتوجيه الديني
النجف الأشرف

الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع)

وليد الأبواء وشهيد بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع)
وليد الأبواء وشهيد بغداد

بقلم
عبد الرحمن العلوي

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

الاهداء

إليك وأنت تقتفي خط آبائك في حمل لواء الإسلام ومشعل العلم والمعرفة..

إليك وانت تعلّم المسلمين الاخلاق والتقوى والورع..

إليك وانت تتفقد اوضاع المسلمين وتقضي حوائجهم، وتعفو عن مسيئهم..

إليك وأنت توجّه المسيرة، وترعى الانطلاقة، وتسدد الحركة الاسلامية الواعية..

إليك وأنت تصرّ على الإسلام كمبدأ وسلوك ونظام، وتتصدى لكافة ألوان الانحراف التي كانت تحاول ان تظهر في مظهر اسلامي..

إليك وانت تتحدىٰ الطواغيت، وتطلق كلمة الحق، وترعب افئدة الفراعنة..

إليك وأنت تحيل السجون الى محاريب ومساجد ومراكز ثورة..

إليك وأنت تزداد انشداداً الى الله، وتمسكاً بحبله، واصراراً على

المقاومة، كلما ضيّقوا عليك السجون، واثقلوا القيود..

إليك وانت تحلق على اجنحة الشهادة الى الجنة شوقاً الى لقـاء الله، ورغبة في جواره..

إليك وأنت لازلت الشمس التي تنير طـريق الجـهاد، والوقـود الذي يؤجج ثورة المظلومين على الظالمين..

إليك يا مولاي يا موسى بن جعفر

اهدي هذه الأوراق التي حاولت من خلالها ان اتحدث عنك.. ارجو قبولها، لانها تحمل الولاء وان كانت كلماتها لكناء.

المقدمة

الامام موسى بن جعفر عليه السلام هو احدى حلقات سلسلة الأئمة المعصومين عليهم السلام الذين خلفوا رسول الله صلى الله عليه وآله في امّته ودين ربّه، كي يقودوا الأمة خير قيادة ويسيروا بها أفضل مسار وينطلقوا بها اروع انطلاقة باتجاه تحقيق الأهداف القرآنية والطموحات النبوية، على اعتبارهم الخط المكمل لخط الرسالة، والامتداد الطبيعي للنبوة، والصفوة التي اختارها الله تعالى كي تكون حجة على العباد، وزعامة للبلاد، وحصناً للدين، وأماناً للامة، وصوتاً للعدل، وصرخة للحق تدوي في الآفاق فترعب قلوب الطغاة وتدخل الطمأنينة الى قلوب المظلومين والمضطهدين طوال التاريخ، لا تخاف في الله سلّة سيف ولا تكشيرة ظالم ولا خفقة اجنحة الموت. فالموت في سبيل الله عندهم احلى امنية تدغدغ قلوبهم التي ملأها حب الله، وهي طريقهم للقرب منه والنظر بوجوه نضرة اليه.

ولم يكن الامام موسى الكاظم عليه السلام ليختلف عن الأئمة الذين سبقوه

في اداء الرسالة الالهية وممارسة الدور الرباني الذي لابدّ لكل إمام من القيام به. فقد انصب دوره كآبائه عليهم السلام في الحفاظ على الإسلام كمبدأ وعقيدة ونظام حياتي من التحريف والتشويه الذي سعت الانظمة السياسية الحاكمة آنذاك لايجاده بما يصبّ في صالحها ويحقق اهدافها، بعدما وجدت في الإسلام الأصيل خطراً بالغاً يتهدد وجودها وكيانها القائم على الاغتصاب.

فبعد اغتصاب الخلافة الاسلامية من قبل الامويين والعباسيين وازاحة اصحابها الحقيقيين الممثلين بأهل بيت النبوة عليهم السلام عن دكّة الخلافة، اخذت الاخطار تحيق بالمبادئ الاسلامية الاصيلة التي لم تتأصل بعد في نفوس الناس ولم تتجذر في عقولهم وقلوبهم، سيما وأنّ هذه القيادات المنحرفة كانت تتظاهر بالإسلام وتحاول الحفاظ على الظواهر الاسلامية، مما يعني تفويت الفرصة على الأمة للتمييز بين المبادئ الاصيلة والمبادئ المنحرفة، وبين المفاهيم القرآنية والمفاهيم المختلقة، وبين الافكار التي تقود الانسان نحو الله وبين الافكار التي تفرض على المسلم الخنوع للحاكم وولي الامر وإن كان ظالماً أو فاسقاً.

اضف الى ذلك كله أنّ الاجواء الارهابية السائدة آنذاك والمحاربة العنيفة للخط الرسالي المتمثل بأهل البيت عليهم السلام والصفوة القليلة الموالية لهم والسائرة على نهجهم، وتشجيع كافة الاتجاهات والتيارات الاخرى، وفسح المجال لكافة المذاهب الاخرى على حساب مذهب أهل البيت، ادت في نهاية المطاف الى بلورة الحالة اللا إسلامية ـ وانْ اكتسبت ظاهراً اسلامياً ـ بما ينبثق عن هذه الحالة من افكار، ورؤى، وممارسات،

وفتاوى، وأحكام منحرفة بعيدة كل البعد عن روح الإسلام وينبوعه العذب الفرات.

وانطلاقاً من ذلك سعى أئمة أهل البيت ـ بصفتهم حملة الرسالة وائمة الأمة الحقيقيين ـ الى صيانة اصالة الرسالة الاسلامية وتعميقها في نفوس الصفوة الموالية للخط الاسلامي الشرعي كمرحلة اولى، وفي نفوس الأمة في المرحلة الثانية.

ولا شك انّ الائمة الاثني عشر عليهم السلام قد اضطلعوا بهذا الدور المشترك، ولم يكن لديهم ادنى اختلاف في ممارسة هذا الدور وأداء المسؤولية الالهية المتمثلة في الحفاظ على نصاعة الرسالة الاسلامية، وتربية النخبة الرسالية الواعية القادرة على إحداث التغيير في المجتمع الاسلامي، تمهيداً لايصال الأمة الى المستوى الذي تكون فيه قادرة على إحداث التغيير السياسي وازاحة الحاكم المنحرف وتسليم قيادة الأمة للسلطة الشرعية النقية كي تحكّم الإسلام في حياتها على كافة الاصعدة وفي جميع المجالات، وهو الهدف النهائي الذي كان يسعى اليه أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ولم تكن السلطات الجائرة الحاملة للقب الخلافة غافلة عن هذا المعنى، ولهذا كانت تواجه أئمة أهل البيت عليهم السلام والعلويين والموالين لهم على أشد ما تكون المواجهة، وتنتقم منهم بأقسى ما يكون الانتقام، وترتكب بحقهم من المجازر الدموية مما لم يرتكبه عدو مع عدو. فقد كانت تدرك أنها لو فسحت المجال لأهل البيت عليهم السلام للعمل الرسالي

ـ وانْ اتخذ طابعاً فكرياً وعقائدياً ـ وسمحت للامة بالالتفاف حولهم، لأقبل الناس عليهم وانضموا الى صفوفهم وانضووا تحت الويتهم، ولن تقوم للسلطة حينئذ قائمة.

الامام الكاظم عليه السلام كان فرعاً طاهراً من تلك الشجرة الطيبة وثمرة مباركة من ثمراتها المقدسة، وكان شمساً من شموس السماء المحمدية، وكوكباً من الكواكب العلوية التي اضاءت الارض بنور التوحيد، وغمرت القلوب بحب الله، وفجّرت في العقول ينابيع الفكر الالهي النقي، وفي النفوس الثورة على القيم الزائفة، والافكار المنحرفة، والمبادئ الهدامة، والمفاهيم المضللة. فقد علّم الامام الأمة كيف تحافظ على دينها ورسالتها، وكيف تصرّ على نهجها ومبدئها، وكيف تعتز بذلك الدين وتلك الرسالة رغم انوف الطغاة، لأنّ الايمان الواعي والمبدئية الصادقة، والاصرار المبدئي عوامل تحلّق بالمؤمن الرسالي في أجواء العزّة، وعندئذ سيكون أعزّ من الجبل، ولن تنال منه معاول الظالمين والطغاة مهما كانت حادة وقاسية ولئيمة.

وادركت السلطة الجائرة ماذا يعني وجود الامام الكاظم عليه السلام وماذا يعني تواجده حراً بين شيعته ومؤيديه، وماذا تعني الرسالة التي يبلّغها لهم كل يوم.. فهي رسالة الشموخ والمبدئية والرفض.. رفض الطغاة مهما تلبّسوا بلباس الدين. ولم تطق تلك السلطة ذلك الصوت الداعي الى الله، فانه صوت يقضّ عليها مضاجعها، ويسلب منها الشعور بالراحة، ويملأ قلوبها فزعاً وذعراً، لهذا لم تجد بداً من زجّه في اقبية السجون لكي تفصله عن القاعدة الجماهيرية الملتفة حوله، ولكي تمهّد الطريق للقضاء

على تلك القاعدة الرسالية والتي تشكل هي الاخرى خطراً عليها.

ولم تحتمل السلطة وجود الإمام الكاظم حتى بين جدران زنزاناتها الرهيبة، فهي لازالت تخشى منه ما دام هناك قلب ينبض في صدره العامر بالايمان وروح تسري في جسمه الغارق في عبادة الله.. لانها تعلم انّ قلوب شيعته تنبض بنبضات قلبه وأرواحهم تتسامى بسمو روحه.. لهذا قررت ان تغتال ذلك القلب وتنتزع تلك الروح عن ذلك الجسم، كي تميت قلوب شيعته وتحبس أرواحهم في قماقم اليأس والخيبة، ناسية أنّ الامام عليه السلام لا يموت في ضمير الأمة وفكرها وأهدافها، وانّه سيظل يوجهها ويرشدها على الطريق الرسالي القويم، وينفخ فيها روح الصمود والمقاومة ومقارعة الطغاة، حتى اعلاء كلمة الله وقبر كلمة الشيطان الى الأبد، وحتى يرث المستضعفون الارض فيصبحوا حينئذ أئمة ووارثين بشهادة القرآن الكريم.

الفصل الأول

قيام الدولة العباسية

من هم العباسيون

ظهرت الدولة العباسية الى الوجود في ١٣٢هـ/ ٧٥٠م على انقاض الدولة الاموية في الشام التي أسسها معاوية بن ابي سفيان عام ٤١هـ/ ٦٦١م، وكان آخر ملوكها مروان بن محمد المعروف بالحمار الذي هزمه العباسيون في الزاب وقُتل بالقرب من بوصير بمصر(١).

والعباسيون ينتسبون الى العباس بن عبد المطلب عم الرسول الاكرام محمد ﷺ، وقد ولد بمكة قبل الهجرة النبوية بحوالي ٥٠ عاماً وترعرع فيها، واصبح من وجوه قريش ورجالها. وتولى في الزمن الجاهلي منصب سقاية حجاج بيت الله الحرام. وكان أول من تولى السقاية قصي بن كلاب ثم جعلها لابنه عبد مناف ولم تزل في ولده حتى ورثها العباس بن عبد المطلب(٢).

وقيل انّ العباس بن عبد المطلب وشيبة بن عثمان وعلي بن ابي طالب عليه السلام تفاخروا يوماً، فذكر العباس سقاية الحاجّ، وشيبة عمارة المسجد الحرام، وعلي الايمان والجهاد في سبيل الله، فنزلت الآية الكريمة في ذلك: ﴿أجعلتُم سقايةَ الحاجِّ وعِمارةَ المسجدِ الحرامِ كَمن آمنَ

بالله واليومِ الآخرِ وجاهدَ في سبيلِ اللهِ﴾[٣].

وكانت المناصب في قبيلة قريش ١٥ منصباً تولى كل بطن قرشي منصباً منها. وفي مقدمة تلك المناصب: السدانة والسقاية والرفادة والعمارة[٤].

وخرج العباس بن عبد المطلب مع المشركين لقتال المسلمين في غزوة بدر الكبرى، فوقع اسيراً في تلك الحرب، فعفا عنه الرسول ﷺ واطلق سراحه، فعاد الى مكة وهو على شركه. وقد أعلن اسلامه قبيل فتح مكة حينما خرج الى المدينة للقاء الرسول ﷺ.

ولم ينضم العباس بن عبد المطلب الى اجتماع السقيفة الذي عُقد مباشرة بعد وفاة رسول الله ﷺ، بل انضم الى الامام علي عليه السلام وبعض الصحابة الذين كانوا منهمكين في تجهيز الرسول ﷺ ودفنه.

وكان العباس ـ شأنه شأن باقي بني هاشم ـ يعتقد ان الامام علي عليه السلام احقّ صحابة رسول الله ﷺ بخلافته وتولي أمر المسلمين سيما وانّ المسلمين لازال صوت رسول الله ﷺ يلعلع فيهم حينما أوصى في حجة الوداع عند غدير خم لعلي بالخلافة وزعامة المسلمين من بعده.

عاش العباس ما يقرب من ٩٠ عاماً، وتوفي بالمدينة مخلّفاً تسعة أولاد في مقدمتهم الصحابي المعروف عبد الله بن عباس الذي اشتهر بـ «حبر الأُمة». وحينما تولى علي بن ابي طالب عليه السلام خلافة رسول الله وإمامة المسلمين بعد مقتل عثمان بن عفان، عهد الى عبد الله بن عباس ولاية البصرة، في حين ولّى اخوته عبيد الله ومعبداً وقثماً على اليمن

ومكة والبحرين(٥).

ووقف عبد الله بن عباس الى جانب الامام علي عليه السلام في موقعتي الجمل وصفين، كما انّ الامام اختاره حكماً وممثلاً عنه بعد انتهاء واقعة صفين الى التحكيم بحيلة جيش الشام وانخداع جيش العراق رغم تحذير الامام لهم منها. ورفض الكثير من جنده عبد الله بن عباس واصرّوا على ان يكون ابو موسى الاشعري حكماً لهم، غير انّ الامام حذّرهم من ابي موسى وذكّرهم بعصيانه وخذلانه له، وامتدح لهم عبد الله بن عباس، الّا انهم رفضوا الانصياع لنصائح الامام(٦).

وآثر عبد الله بن عباس اعتزال الحياة السياسية في العهد الاموي فانصرف بالمدينة الى رواية الحديث وتفسير القرآن. وكان عبد الله بن عباس ممن اشار على الامام الحسين بن علي عليه السلام بعدم الخروج الى الكوفة والبقاء في الحجاز، الّا انّ الامام عليه السلام كان قد صمم على الثورة ومجابهة الفرعونية الاموية، وعقد العزم على ارواء دوحة الدين الاسلامي الحنيف بدمه الطاهر ودماء أهل بيته وأنصاره.

واستمر عبد الله بن عباس في انتهاج خط الاعتزال السياسي والركون الى الهدوء بعد استشهاد الحسين عليه السلام، لاسيما وانّ استشهاده قد بعث في نفوس البعض اليأس وجرّأ السلطة الاموية لممارسة المزيد من الانتهاكات للدين وتوجيه الكثير من الضغوط للبيت العلوي.

وحينما ثار عبد الله بن الزبير على الحكم الاموي ونشر دعوته في الكثير من الاقطار الاسلامية، وقف عبد الله بن عباس موقفاً سلبياً من

تلك الدعوة، وحاول ابن الزبير جاهداً استمالته اليه والفوز بتأييده، الّا انه لم يفلح في محاولاته.

ولم يكن موقف ابن عباس هذا ولاء منه للامويين، بل لأنه آثر الاستمرار في الاعتزال السياسي وعدم التدخل في مثل تلك الحركات التي لا تُعرف عواقب امورها، فضلاً عن انه كان في قرارة نفسه لا يقتنع بغير أحقية بني هاشم بالخلافة.

وسُرّ يزيد بن معاوية بموقف عبد الله بن عباس من حركة ابن الزبير فبعث اليه كتاباً يمتدح فيه موقفه ويمنّيه بالأماني والوعود. فردّ عليه ابن عباس قائلاً انه غني عن مثل هذا الحمد وذلك الثناء، وانّ ما يمنّيه به من اموال وصلات انما هو حق لهم، وهو قليل من كثير يستحقونه، كما ذكّره بقتله للحسين عليه السلام ابن بنت النبي وسيد شباب أهل الجنة[٧].

وحينما تعززت اركان دولة عبد الله بن الزبير في الحجاز بعد وفاة يزيد اعلن نفسه خليفة على المسلمين، وبايعه كثير من الناس، إلّا انّ عبد الله بن عباس رفض مبايعته متذرعاً انّ الأمور لم تستقر بعد وأنه سيبايع عندما تجتمع البلاد له[٨]. غير ان ابن الزبير لم يقتنع بتلك الذريعة فنفاه الى الطائف، فتوفي بها سنة ٦٨ هـ.

وأنجب عبد الله بن عباس ستة أبناء كان أشهرهم علي بن عبد الله الذي سلك سلوك ابيه في الابتعاد عن الاجواء السياسية وعدم التدخل في الاضطرابات التي شهدتها البلاد الاسلامية في عهد يزيد بن معاوية وامتدت الى أيام مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان.

وواجه عبد الملك بن مروان ظروفاً سياسية صعبة للغاية واضطرابات قائمة على قدم وساق كثورات التوّابين في العراق ثأراً لدماء الحسين بن علي عليه السلام وثورة المختار بن ابي عبيدة الثقفي التي تصبّ في نفس الاتجاه أيضاً، وحركة عبد الله بن الزبير الذي اعلن نفسه خليفة على الحجاز وبعض البلاد الاسلامية، وثورات العلويين الناقمين على السلطة الاموية. وفي ظل تلك الاوضاع المعقّدة حاول عبد الملك بن مروان كسب ود البيت العباسي المسالم واستمالته اليه للانفراد بالفرع الهاشمي الآخر ـ أي الفرع العلوي ـ وتسهيل عملية التصدي له من جهة، وللتقوي بهم في مجابهته للاضطرابات الاخرى على اعتبار ما لهم من رصيد اجتماعي كبير من جهة اخرى.

وانطلاقاً من ذلك بعث الى علي بن عبد الله وقرّبه منه وأغدق عليه الأموال والهدايا، ثم اقطعه قرية تدعى «الحميمة» شرقي الاردن، فأنشأ له قصراً فخماً فيها، وانتقل العباسيون الآخرون الى هذه القرية مهاجرين من الطائف، فبنوا بيوتهم حول قصر زعيمهم علي بن عبد الله بن عباس، فتحولت الحميمة الى مركز عباسي، ونواة للتحرك العباسي ضد الامويين(٩) فيما بعد.

الّا ان حالة التفاهم بين البيتين الاموي والعباسي لم تستمر طويلاً سيما وأنّ العباسيين كانوا يشعرون انهم أحقّ بالخلافة من الامويين لقربهم من النبي صلى الله عليه وآله، وللشعور بالقوة الذي اخذ يتنامى لديهم بعد تجمعهم في مكان واحد وارتفاع الضغوط التي كانوا يواجهونها في الحجاز. اضف الى ذلك انّ الامويين انفسهم لم يكونوا قد استمالوا البيت

العباسي عن رغبة صادقة، وانما كانت المصلحة السياسية هي التي أملت عليهم اتخاذ مثل هذه الخطوة التي لابد وأن تكون مؤقتة، لهذا كانوا ينظرون الى العباسيين دائماً بعين الريبة ويراقبون تحركاتهم عن كثب.

غير انّ السبب المباشر الذي ادى الى توتر العلاقات بين الجانبين هو ما ذكره ابن خلكان[١٠] والذي جاء فيه انّ علي بن عبد الله قد تزوج احدى أرامل عبد الملك بن مروان وهي لبابة بنت عبد الله بن جعفر، مما اثار غضب ابنه الوليد بن عبد الملك، فاستدعى علي بن عبد الله الى دمشق وأمر بضربه سبعين سوطاً.

فكانت هذه الحادثة بمثابة تأجيج لكل العداء الكامن في قلوب العباسيين والامويين معاً، ودفعت بعلي بن عبد الله الى النيل من الخليفة الاموي والمطالبة علناً بالخلافة للعباسيين وغضب الوليد بن عبد الملك لما سمعه، فأمر بالقاء القبض عليه وجَلْده ثانية والطواف به على ظهر جمل في الطرقات تشهيراً به.

وكان لعلي بن عبد الله الكثير من الاولاد الذكور اشهرهم محمد بن علي الذي انجب عدة اولاد ومنهم: ابراهيم بن محمد وامه جارية بربرية تدعى سلمى، وموسى بن محمد من هذه الجارية أيضاً، وعبد الله بن محمد وامه جارية بربرية اخرى تدعى سلامة وقد عُرف عبد الله هذا فيما بعد بأبي جعفر المنصور، وعبد الله بن محمد المعروف بأبي عبد الله السفاح[١١] الذي كان اول خليفة عباسي، وامه عربية من بني الحارث.

البحث عن الشرعية

أن العباسيين كانوا على علم أنّ دعوة الناس اليهم بدلاً من الامويين سوف لن تنال ذلك الاستقبال المنشود لا لأنّ الامويين أحق بالملك منهم ولا لأنّ الناس راضون عن الامويين، بل لأنّ الأمة تدرك انه اذا كان هناك من يستحق إمامة المسلمين فليس سوى آل بيت علي بن أبي طالب عليهم السلام الذين يمثلون الامتداد الطبيعي للرسول محمد صلى الله عليه وآله ويجسّدون الشرعية بأسمى صورها. ولهذا كان العباسيون بحاجة الى مبررات شرعية يستطيعون بها تحكيم مواضعهم في الأمة واستقطاب الرأي العام اليهم. وهم لن يجدوا تلك المبررات الشرعية سوى في التأكيد على الانتماء الى البيت الهاشمي ورفع راية الدعوة الى آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله.

كان العباسيون إذن بحاجة الى غطاء شرعي لبدء الدعوة والانطلاق بها من خلال كسب الناس الى جانبهم لاسيما وقد كان سائداً آنذاك رأيان بين المسلمين لتفسير شرعية الحكم: الرأي الأول يقول بمبدأ الشورى، والرأي الثاني يقول بمبدأ النصّ الذي يعتقد به الهاشميون. وانطلاقاً من ذلك فقد راحوا يبحثون عن مسوّغات تسمح لهم بتبني أحد هذين الرأيين وانتزاع الشرعية المتوخاة منه.

ووجدوا انّ الفرصة قد حانت حينما توفي ابو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية في دارهم بالحميمة، بعدما دس له الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك السمّ. فأخذ العباسيون يثيرون ادعاءات قديمة بإمامة محمد

بن الحنفية ويزعمون انّ ابا هاشم كان الأمام بعد ابيه، وأنه اوصى قبيل وفاته الى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.

ولم يكتف العباسيون بادعاء خلافتهم لأبي هاشم ـ بعد أن نصّ ابو هاشم على محمد بن علي كما يزعمون ـ بل زعموا أيضاً انّ علياً عليه السلام اوصى بانتقال الامامة من بعد ابي هاشم الى محمد بن علي بن عبد الله، ومن بعده الى ولده ابراهيم الذي لُقِّب بالإمام، ثم الى اخيه عبد الله المكنّى بأبي العباس، ثم الى اخيه ابي جعفر الملقّب بالمنصور(١٢)!.

كما زعم العباسيون في تلك الوصية المزوّرة انّ الامام علي عليه السلام قد اختار لهم «خراسان» مكاناً صالحاً لدعوتهم!

الدعوة لأهل البيت

ويبدو أن العباسيين لم يجدوا في ما زعموه من نصّ ابي هاشم عليهم، مبرراً كافياً لاقناع الأمة بالانصياع لهم والانضواء تحت لوائهم، سيما مع عدم وجود من يؤمن بإمامة محمد بن الحنفية، ومع افتراض وجودهم فهم يعدّون بالأصابع، لهذا وجدوا انهم بحاجة الى مبررات شرعية اخرى يتمكنون بها من اجتذاب الآخرين اليهم. وفكّروا ملياً في هذا الأمر وانتهوا الى نتيجة استراتيجية ومهمة كانت في الواقع الحجر الاساس في دعوتهم والعامل الرئيس في نجاح تلك الدعوة وتحقيقها لأهدافها. فقد قرروا عدم التجاهر بالدعوة الى انفسهم فانّ ذلك سوف لن يلقى آذاناً صاغية في أوساط الامة، وانما اعلان الدعوة للرضا من آل محمد وللصادق من آل محمد، متّخذين من «آل محمد» ستاراً لتلك الدعوة

وجسراً للوصول الى السلطة بعد ان ادركوا عجز الجسور الاخرى عن ايصالهم الى مآربهم.

يقول ابن الاثير في هذا الصدد: عند ابتداء أمر العباسيين كان محمد قد أُرسل داعياً الى خراسان يدعو الى الرضا من آل البيت(١٣). كما يقول ايضاً: لما احتل ابو مسلم عاصمة خراسان ـ مرو ـ كانت صيغة البيعة التي اخذها من الناس: ابايعكم على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله والطاعة للرضا من آل الرسول(١٤)، ولم يعلن عن اسم الخليفة.

وهكذا سعى العباسيون للوصول الى السلطة عبر التستر بستار أهل البيت ومن خلال خداع الأمة بشعار الدعوة للرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله مستغلين انجذاب قلوبها اليهم وحبها لهم وشعورها بأحقيتهم في تولي أمر المسلمين.

ومحاولةً منهم للتأكيد على انتمائهم الى خط أهل البيت ودعوتهم الى رجالِ هذا الخط، التجأوا الى مجاراة العلويين للتقرب اليهم من جهة ولإلفات نظر الأمة الى انصهارهم في البوتقة العلوية من جهة اخرى، كي يتمكنوا بهذا الاسلوب مواصلة تحقيق ما يسعون اليه دون عرقلة وللحصول على رصيد اعظم من النجاح. لهذا نراهم يشتركون في المؤتمر الذي عقده الهاشميون في الابواء لمبايعة رجل منهم يكون خليفة على المسلمين عند سقوط الدولة الاموية.

وانتهى مؤتمر الابواء بعد مداولات طويلة ونقاشات حادة الى انتخاب العلوي محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية، ومدّ يد

البيعة له باتفاق الآراء تقريباً. وقد تحدث المنصور في ذلك المؤتمر موجهاً كلامه الى بعض المترددين في مبايعة النفس الزكية فقال:

لأي شيء تخدعون انفسكم؟ والله لقد علمتم ما الناس الى أحد منكم أسرع إجابة منهم الى هذا الفتى (أي محمد النفس الزكية).

فقالوا: قد والله صدقت.

فبايعوا جميعاً محمداً ومسحوا على يده.

وقد اعترف المنصور بكلامه هذا بالشعبية التي يحظى بها العلويون بين الناس وانهم أسرع إجابة الى أهل البيت منهم الى غيرهم. كما انه فضلاً عن ذلك أراد بذلك الحماس المفتعل ان يخدع العلويين أيضاً فيستميلهم اليهم ويكسب ولاءهم وعدم معارضتهم للدعوة العباسية باعتبارها تدعو للعلويين وتمهّد الطريق للخليفة العلوي المنتخب في مؤتمر الابواء.

واستطاع العباسيون من خلال المساهمة في هذا المؤتمر والموافقة على القرارات التي صدرت عنه، ان يمهدوا الطريق للسير في دعوتهم دون ان تواجه عرقلة تُذكر من جانب جزء كبير من العلويين وأنصارهم والموالين لهم.

مركز الدعوة العباسية

واتخذ العباسيون خراسان مركزاً للدعوة العباسية، مدّعين انه جاء في وصية ابي هاشم انّ الإمام علياً عليه السلام هو الذي اختارها لهم مكاناً صالحاً لدعوتهم، وهو ادعاء مفتعل ولاشك يكذّبه المنطق والوثائق التأريخية.

فقد ورد عن ابن ابي الحديد المعتزلي: «.. قال بعضهم ندعو بالكوفة، وقال بعضهم ندعو بالبصرة، وقال بعضهم ندعو بالمدينة، وقال بعضهم ندعو بمكة، وقال بعضهم ندعو بالجزيرة، وقال بعضهم ندعو بالشام، واحتج كل انسان لرأيه واعتل لقوله، قال محمد بن علي: اما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده، واما البصرة فعثمانية تدين بالكف ولا يعينون احداً على احد، واما الجزيرة فحرورية مارقة والخارجية فيها فاشية، اعراب كأعلاج، مسلمون في اخلاق النصارى، واما الشام فلا يعرفون إلّا آل ابي سفيان وطاعة بني مروان، عداوة راسخة وجهلاً متراكماً. واما مكة والمدينة فقد غلب عليهم ابو بكر وعمر، لا يتحرك معنا في امرنا هذا منهم احد، ولا يقوم بنصرنا الّا شيعتنا أهل البيت. ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير، والجلد الظاهر، وصدوراً سليمة، وقلوباً مجتمعة لا يقسمها الاهواء، ولا تتوازعها النحل، ولم يشغلها ديانة، لا هدم فيها ولا فساد، وليس لهم همّ العرب، ولا فيهم عصبية كعصبية العشائر، ولا تجارب لهم كتجارب الاتباع والسادات، ولا تحالف كتحالف القبائل، وما زالوا يُنالون، ويُمتهنون، ويُظلمون، فيكظمون وينتظرون الفرج ويأملون الدولة، وهم جند لهم ابدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من افواه منكرة»(١٥).

إذن فمحمد بن علي لم يحتج بوصية ابي هاشم ولا اختيار الامام علي عليه السلام، ولو صحّ ذلك لاحتجّ به، انما طرح عدة ادلّة موضوعية من وجهة نظره لاختيار خراسان مركزاً لدعوتهم تتلخص في كثرة أهل خراسان، وقابليتهم على الصبر والتحمل، واجماع كلمتهم، وتذمرهم من النظام

الاموي بفعل الظلم الذي الحقوه بهم، وقوة اجسامهم وخشونتهم.

وربما يكون اتخاذ العباسيين لخراسان مركزاً لدعوتهم دون بلاد العراق التي يكثر فيها عادة الموالون لأهل البيت، لأنّ العراق يقع بالقرب من العاصمة الاموية، فضلاً عن وجود الكثير من الشخصيات الاموية والجنود الامويين في العراق. اضف الى ذلك انّ الولاة الامويين على العراق كانوا ينتهجون باستمرار سياسة قاسية جداً وصارمة، ويحاسبون على الصغيرة والكبيرة، ويبذلون أقصى ما لديهم من طاقات وامكانات وقوى للتجسس على الموالين لأهل البيت وشيعتهم، وضربهم بيد من حديد، وقبر أي تحرك جهادي معاد في مهده. وهذا بطبيعة الحال وضع لا يساعد الحركة العباسية على النمو والتبلور، إنْ لم يؤد الى اخمادها في ايامها الاولى واجهاضها.

ورغم هذا لم يقتصر نشاط العباسيين على خراسان فقط، بل كان لهم تحرك أيضاً في الكوفة التي لا يمكنهم التفريط بها أو صرف انظارهم عنها بشكل نهائي لأنها مهد التشيع لآل البيت وقاعدة مهمة من قواعدهم، ولابد لهم ان يثبتوا اقدامهم فيها لموقعها الاستراتيجي المهم وقربها من مركز الحكم الاموي وتأثيرها المستمر في معادلات الصراع السياسي.

الاستيلاء على السلطة

يمكن ان يكون عام ١٠٠ هـ هو العام الذي بدأت فيه الدعوة العباسية بزعامة محمد بن علي، وكان عمره حينئذ ثمانية وثلاثين عاماً، مستفيدة من الاجواء التي تهيأت لها بفعل الارهاب الاموي الذي طال الأمة بشكل

عام والعلويين بشكل خاص وما أحدثه ذلك الارهاب من تذمّر في صفوفها وتطلع الى من يزيح عن صدرها كابوس الظلم والرعب، وكذلك بفعل حمل لواء الدعوة لأهل البيت وتجاوب الأمة مع اصداء هذه الدعوة، اضف الى ذلك كله ما قدّمته الثورات العلوية التي اندلعت ابان العصر الاموي -وفي مقدمتها ثورة الحسين بن علي عليه‌السلام ثم ثورة زيد بن علي- من خدمات تبلورت على شكل إضعاف الحكم الاموي، وإبقاء شرارة الثورة متأججة في الصدور، وهذا يعني بالنسبة للعباسيين الذين -كانوا بمنأى عن الضربات الاموية الموجهة لآل البيت- الشيء الكثير. فقد استفادوا من تلك الانجازات العلوية التي صنعوها بدمائهم واتّخذوا منها عاملاً آخر يُضاف الى عوامل انتصارهم في حركتهم المصيرية.

وتوفي محمد بن علي العباسي في عام ١٢٤ هـ بفعل مرض شديد استبد به، فأوصى برئاسة الدعوة الى أكبر اولاده ويدعى ابراهيم الذي عُرف فيما بعد بابراهيم الامام.

ووجد ابراهيم الامام الابواب مفتوحة بوجه الدعوة العباسية بعد موت الخليفة الاموي هشام بن الحكم عام ١٢٥ هـ حيث سادت الاضطرابات كافة ارجاء الدولة الاموية، ونشبت الفتن في كل مكان، مما اتاح الفرصة للدعوة العباسية في الانطلاق بقوة نحو تقوية قواعدها، وتعريض جماهيريتها، وتكثيف الاتصال بين القيادة والقواعد لا سيما في خراسان.

واختار ابراهيم الامام ابا مسلم الخراساني زعيماً للثورة العباسية في خراسان، وكان شاباً طموحاً مغامراً شديد التحمّس للدعوة، وربما يكون

حماسة ذلك نابعاً من انه وجد فيها ما يمكن ان يلبّي طموحاته ويحقق احلامه التي تراوده، سيما وأنه يملك كافة المؤهّلات التي تؤهله لأن يكون شخصية سياسية وقيادية بارزة.

وفيما كان العباسيون يحققون النجاح تلو النجاح، وفيما كانت دعوتهم تقوى يوماً بعد آخر، وفيما كان زعماؤها يتباشرون بقرب اليوم الموعود وإعلان الدعوة، وقع خطاب كتبه ابراهيم الامام الى ابي مسلم في ايدي رجال السلطة الاموية، فأمر الخليفة الاموي مروان بن محمد بالقبض على ابراهيم الذي لا زال في الحميمة في عام ١٣١ هـ فأوصى ابراهيم بالامامة من بعده الى اخيه ابي العباس السفاح. وظل ابراهيم سجيناً في حرّان حتى مات أو قُتِل.

وكانت الدعوة العباسية قد بلغت ذروة قوتها ونشاطها بخراسان في أواخر أيام ابراهيم الإمام، حيث كان الدعاة العباسيون ينطلقون داخل هذه البلاد بحماس منقطع النظير لا يدعون لشخص معين وانما يذيعون بين الناس انه لا خلاص لكم إلّا إذا ولي امركم آل البيت[١٦].

وعندما أُلقي القبض على ابراهيم الامام، شعر اخواه ابو العباس وابو جعفر بالخوف وخشيا سطوة الخليفة الاموي، فقررا الذهاب الى الكوفة التي تعد القاعدة الثانية للدعوة بعد خراسان، والتي كانت لهم فيها بعض من يعتمدون عليهم مثل ابي سلمة حفص بن سليمان الخلال.

وجهّز ابو مسلم جيشاً الى الكوفة بعدما فرض سيطرته على خراسان، وسيطر هذا الجيش على الاوضاع هناك وأعلن فيها عن قيام الدولة

العباسية رغم انّ الخليفة الاموي مروان بن محمد كان يتهيأ لمواجهة حاسمة مع هذه الحركة الجديدة. وتقلّد ابو العباس السفاح مقاليد السلطة أو الخلافة على حد تعبيرهم في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ.

وخابت ظنون وآمال المؤيدين للدعوة العباسية بدافع الولاء لأهل بيت النبوة، بعدما رأوا أنّ شخصاً غير علوي يرقى منبر المسلمين ويطالبهم بالبيعة!

وأُصيب العلويون انفسهم بالاحباط وعقدت ألسنتهم الدهشة وهم يرون العباسيين حلفاءهم بالأمس يديرون لهم اظهرهم بل ويطعنونهم من الخلف، وأدركوا انهم خدعوهم طوال تلك العقود الماضية، في سبيل زجّ جهودهم ومؤازراتهم وكفاحهم الدموي ضد الامويين، في عملية الاستيلاء على السلطة والانفراد بها دونهم لتحقيق المآرب العباسية والنوايا الخبيثة التي كانت تراود زعماء العباسيين منذ البداية.

وبات واضحاً منذ اليوم الأول لاعلان الدولة العباسية، للعلويين وانصارهم أنّ مرحلة عسيرة اخرى بانتظارهم لا تقل في قسوتها وغلظتها عن المرحلة الاموية، وأنّ اياماً حالكة مقبلة عليهم لا تقل في جورها وارهابها عن أيام بني امية.

ابو العباس السفاح

كانت الظروف الحرجة ـ بما فيها وجود الخليفة الاموي وتجهزه للحرب ـ تملي على العباسيين ان لا يكشفوا عن حقيقتهم تمام الكشف

وأنْ يحتفظوا ببعض ما لديهم من اوراق. لهذا حاول ابو العباس السفاح ـ في أول خطبة له خطبها بالكوفة يوم اخذ البيعة من اهلها ـ ان يؤكد على انتسابهم الى أهل البيت وتمثيلهم لهم، وأنهم هم الذين خصّهم الله برحم رسول الله وقرابته وأنبتهم من شجرته، كما حاول ان يوهم المستمعين بأنهم هم لا غيرهم الذين انزل الله فيهم آية التطهير وعدة آيات اخرى نزلت في بيت الرسول صلى الله عليه وآله !

ولما كان السفاح يعلم مدى النزعة العلوية لدى أهل الكوفة والولاء الكوفي التقليدي نحو آل الرسول، سعى من خلال كلمات ماكرة ان يستميلهم اليهم ويجيّر ولاءهم العلوي لصالحهم، فقد قال لهم بدهاء:

«يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عن تحامل أهل الجور عليكم حتى ادركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم اسعد الناس بنا وأكرمهم علينا، وقد زدتكم في اعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير»(١٧).

غير أنّ الزعيم العباسي كان يدرك انّ الكوفيين ولا سيما زعماءهم ليسوا سذّجاً الى هذا الحد بحيث لا يميزون بين بني العباس وبني علي بين التيار غير الرسالي والتيار الرسالي الذي بدا واضحاً انه قد أُقصي عن الساحة ضمن عملية حيكت خيوطها بحنكة سياسية وأناة ومكر واحتيال. ولهذا اخذ يتعامل معهم بحذر وينظر اليهم بريبة وشك سيما وانّ موقفه لا زال متزعزعاً واوضاع حكومته لا زالت قلقة، ولهذا أيضاً لم يعتمد على أيّ منهم حتى على زعيمهم ابي سلمة الخلال الذي كان يقود

الدعوة العباسية في الكوفة ومعتمد العباسيين الثاني بعد ابي مسلم الخراساني، والذي آوى زعماء العباسيين بما فيهم السفاح والمنصور عند هروبهم من الشام الى الكوفة، بل اعتمد كامل الاعتماد على الجيش الخراساني الذي بعثه اليه ابو مسلم واتخذ منه حرساً خاصاً خوفاً من ان يغدر الكوفيون به[١٨].

واستطاع العباسيون آخر المطاف ان يدحروا بالخراسانيين جيوش الامويين في معركة الزاب وينزلوا بهم الهزيمة النهائية التي قوّضت دولتهم تماماً، وهرب آخر خليفة اموي حيث قُتل فيما بعد. وأدى ذلك الانتصار الى شعور السفاح والقادة العباسيين بازاحة العقبة الرئيسية عن طريقهم، وتعزّز اركان دولتهم الفتية، وانّ عليهم انْ يتفرغوا لقضايا مهمة اخرى سبق ان تركوها جانباً بدافع من اهتمامهم بالتصدي للجيش الاموي الذي كان يشكل خطراً كبيراً عليهم.

وشعوراً من ابي العباس بالقوة من جهة وعدم اطمئنانه الى الكوفيين من جهة اخرى، قرر ان ينقل عاصمته من الكوفة الى الانبار على نهر الفرات. وقيل انّ الانبار شيدها أحد اكاسرة الفرس، فانبرى ابو العباس لتجديد بنائها، وأقام بها قصراً فخماً سماه الهاشمية نسبة الى هاشم بن عبد مناف[١٩].

وواضح من تسمية هذا القصر بالهاشمية انه لازال يؤكد على انتسابه الى البيت الهاشمي الذي يشتركون في الانتساب اليه مع العلويين لشعوره بالحاجة الى التأكيد على هذا الانتساب وأنّ الوقت لم يحن بعد للانتساب

بشكل مباشر الى العباس بن عبد المطلب.

مصرع الخلال

كان حفص بن سليمان المعروف بالخلال أحد أبرز رجال الدعوة العباسية وممن لعب دوراً مهماً للغاية في نجاح العباسيين ووصولهم الى السلطة، ولم يبخل على هذه الدعوة بشيء وكان ينفق من ماله على رجالها لانه كان ذا ثروة طائلة. ولولاه لما كانت الكوفة تعرف العباسيين ولما احتضنتهم وآوتهم، ولولاه أيضاً لما اصبحت الكوفة عاصمة للدولة العباسية في بداية تأسيسها ومنطلقاً لها نحو الاتساع والتجذّر والاستحكام.

وانطلاقاً من السياسة العباسية القائمة على التظاهر بالدعوة لأهل البيت، واجتذاباً للرأي الشيعي العام بشكل عام وللرأي الشيعي الكوفي بشكل خاص، استوزر ابو العباس ابا سلمة الخلال وأضفى عليه لقب «وزير آل محمد»[٢٠]، ليوحي للناس انهم آل محمد من جهة، ولكسب ولائه وولاء اصحابه من جهة ثانية لما قيل من ميولهم نحو العلويين.

ولم يكن ابو العباس ـ كما قال المؤرخون ـ محباً للخلال وانما أراد ان يمرر من استيزاره ما كان يخطط له الزعماء العباسيون من اهداف، ويحققون عن طريقه ما كانوا يطمحون اليه من مآرب.

لكنّ ابا العباس وبعد استشعاره القوة واعتقاده بتوطّد دعائم ملكه، قرر ان يتخذ أول خطوة على طريق الكشف عن الهوية العباسية المعادية

للتيار العلوي، وانْ يطلق اول سهم في عملية الصراع العباسي العلوي، وإنْ حاول ابو العباس انْ يخطو تلك الخطوة ويطلق ذلك السهم بتحفظ كبير.

واستشار ابو العباس المقربين منه في قتل ابي سلمة فقالوا له: إنك إن قتلته ارتاب ابو مسلم، ولم تأمن أن يُحدث لذلك حدثاً، ولكن الرأي ان تكتب اليه بالذي رابك منه، والذي يريده من فسخ ما انت فيه.

فكتب الى ابي مسلم بذلك، فلما قدم الكتاب اليه، كتب الى السفاح:

ـ إن كان رابك من ريب فاضرب عنقه.

فلما أتاه الكتاب قال له وزراؤه:

ـ انك لا تأمن من ان يكون ذلك غدراً من ابي مسلم، وأن يكون انما يريد ان يجد السبيل الى ما تتخوف منه. ولكن اكتب اليه ان يبعث إليك برجل من قواده يضرب عنقه.

فكتب ابو العباس اليه بذلك، وذكر في كتابه:

ـ اني لا اقدّم ولا اؤخر إلّا برأيك.

فبعث ابو مسلم اليه برجل يقال له مرار الضبي. فلما قدم على ابي العباس امره ان يقعد له في الظلمة، في داخل الامارة بالكوفة، فإذا خرج ضربه بالسيف(٢١).

وهناك روايتان لطريقة قتله الاولى ما ذكرها ابن قتيبة والتي قال فيها ان السفاح أمر قاتله ان يأتيه برأسه، ثم صلبه على دار الامارة بالكوفة(٢٢). والرواية الاخرى رواها المسعودي والطبري وجاء فيها أنّ السفاح لم يتظاهر بقتله للخلال وانما القى مسؤولية قتله على عاتق الخوارج(٢٣).

ويبدو أنّ الرواية الثانية ارجح فيما لو أخذنا بنظر الاعتبار ميل الخلال الى العلويين وولاء أهل الكوفة للعلويين، حيث لا تسمح الظروف الموضوعية للسفاح في هذه الحالة بالتجاهر بقتله لا سيما وهو يحرص على تأكيد الانتماء الى أهل البيت وكسب ودّ الموالين لهم خاصة أهل الكوفة. لهذا يستبعد ان يعلن الحاكم العباسي مسؤوليته المباشرة عن قتل الخلال فانّ ذلك لابد وان يجرح مشاعر الكوفيين ويزيح القناع عن الوجه العباسي المعادي لأهل البيت، مما يضعه ليس في موضع حرج فحسب، بل وقد يعرض دولته الجديدة لخطر السقوط والانهيار.

ولو صحت الرواية الاولى التي اوردها ابن قتيبة فهذا يعني انّ الجهاز العباسي شعر بالقوة الكافية التي تسمح له باتخاذ مثل هذه الخطوة الجريئة المحفوفة بالمخاطر، وربما أراد أيضاً من خطوته تلك اختبار ردود فعل الكوفيين والموالين للعلويين تجاه عمل كهذا، كي يقيّم وضعه على أساس ردة الفعل تلك ويتخذ الخطوات التالية بناءً عليها، فانْ وجد انّ الامر لا يعدو مجرد بعض الاعتراضات البسيطة اقدم على خطوته التالية وهي التصدي للعلويين وانصارهم بشكل أكثر وضوحاً وأعنف طبقاً لما كان يراود افكار العباسيين منذ اليوم الأول الذي بدأ فيه تحركهم ضد الامويين.

موقف الامام الصادق

وذكر بعض المؤرخين ان السبب المباشر الذي كان خلف مقتل ابي سلمة الخلال هو انه كاتب ثلاثة من أعيان العلويين وهم: الإمام جعفر بن

محمد الصادق عليه السلام، وعمر الأشرف بن زين العابدين، وعبد الله بن الحسن المعروف بالمحض. وأرسل الكتب مع رجل يدعى محمد بن عبد الرحمن بن اسلم. وقيل انّ ابا سلمة قال لرسوله الى العلويين:

ـ العجل العجل فلا تكوننّ كوافد عاد. اقصد اولاً جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فان اجاب فأبطل الكتابين الآخرين، وإن لم يجب فألق عبد الله المحض فان اجاب فأبطل كتاب عمر، وإن لم يجب فألق عمر.

فذهب الرسول الى جعفر الصادق عليه السلام اولاً ورفع اليه كتاب ابي سلمة، فقال الامام:

ـ ما لي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري.

فقال له الرجل: اقرأ الكتاب!

فقال لخادمه:

ـ ادن السراج مني.

فأدناه، فوضع الكتاب على النار حتى احترق.

فقال له الرسول:

ـ ألا تجيبه؟

قال:

ـ قد رأيت الجواب. عرّف صاحبك بما رأيت.

فخرج الرسول من عنده وأتى عبد الله بن الحسن، ورفع اليه الكتاب وقرأه وابتهج، فلما كان غد ذلك اليوم الذي وصل فيه الكتاب، ركب عبد الله حتى اتى منزل ابي عبد الله الامام الصادق عليه السلام، فلما رآه الامام اكبر

مجيئه وقال:

ـ يا ابا محمد أمر ما اتى بك؟

قال:

ـ نعم، هو أجلّ من ان يوصف.

فقال الامام الصادق:

ـ وما هو يا ابا محمد؟

فقال:

ـ هذا كتاب ابي سلمة يدعوني الى الخلافة، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان.

فقال له الامام:

ـ يا ابا محمد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟ انت بعثت ابا مسلم الى خراسان وانت امرتهم بلبس السواد؟ وهؤلاء الذين قدموا العراق، انت كنت سبب قدومهم أو وجهت فيهم؟ وهل تعرف منهم احداً؟

فنازعه عبد الله بن الحسن الكلام، الى ان قال:

ـ انما يريد القوم ابني محمداً لانه مهدي هذه الامة!

فقال له ابو جعفر الصادق عليه السلام:

ـ ما هو مهدي هذه الأمة ولئن شهر سيفه ليقتلنّ.

فقال عبد الله:

ـ كان هذا الكلام منك لشيء.

فقال الامام:

ـ قد علم الله اني اوجب النصح على نفسي لكل مسلم، فكيف أؤخره عنك فلا تمنّ نفسك الاباطيل، فانّ هذه الدولة ستتم لهؤلاء، وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك(٢٤).

ولو صحّت هذه الرسالة وبهذا المحتوى، نقول إنّ موقف الامام الصادق من دعوة الخلال موقف تفرضه الحنكة السياسية والرؤية العميقة، والتفسير الصحيح للاحداث، والنظرة الواقعية للظروف التي كانت قائمة حينئذ.

فليس معلوماً انّ الرسالة كانت موجّهة حقاً من الخلال للامام الصادق ولشخصيتين علويتين اخريين. فتزوير الرسائل من قبل السلطات وانفاذها الى الشخصيات المعارضة قضية شائعة في تلك الايام، بهدف ايقاعها في الفخ ومواجهتها بوثائق الادانة. وللعباسيين ممارسات كثيرة من هذا القبيل مثل تلك الرسائل التي كان يكتبها المنصور ويبعثها الى محمد النفس الزكية عن لسان مؤيديه وانصاره لتضليله والايقاع به.

فهناك احتمال قوي ان تكون الرسالة مزوّرة من قبل السلطة العباسية لضرب عصفورين بحجر واحد، لإدانة الخلال بمراسلته للعلويين وتآمره على السلطة العباسية، وهي عقوبة تستحق الموت، وقد جرى بالفعل تنفيذه هذه العقوبة بحقه بعد اتهامه بمراسلة العلويين ومحاولة نقل السلطة اليهم. وكذلك لادانة الزعماء العلويين البارزين وفي مقدمتهم الامام الصادق بالتواطؤ مع الخلال والتآمر على السلطة العباسية في حالة ردّهم ايجابياً على تلك الرسائل، أو للوقوف على الاقل على نوايا قادة

العلويين وموقفهم من السلطة العباسية كي تتّخذ الاجراءات الضرورية اللازمة على أساس تلك النوايا وذلك الموقف.

ومما يقوي هذا الاحتمال، أنّ الرسالة كانت موجّهة الى أبرز ثلاثة زعماء علويين، لا الى زعيم واحد، وهو يعني انّ السلطة كانت تريد الوقوف على مواقف هؤلاء الزعماء الثلاثة الذين يختلفون رغم علويتهم في متبنياتهم وطبيعة عملهم.

ورغم هذا فهناك احتمال أيضاً أنّ السلطة زوّرت حكاية الرسائل الثلاث، ولم تكن قد بعثت ـ لا هي ولا الخلال ـ برسائل الى زعماء البيت العلوي، وانما وضعت هذه الحكاية للايقاع بالخلال وكذلك للحصول على بعض المكاسب الدعائية والنفسية من خلال ما ورد في نص الحكاية من عبارات وردت عن لسان الامام الصادق عليه السلام في حواره مع عبد الله المحض والد محمد النفس الزكية. منها قوله له «ما هو مهدي هذه الأمة ولئن شهر سيفه ليقتلن» أو قوله «فانّ هذه الدولة ستتم لهؤلاء»، فهذه العبارات تصبّ في الحقيقة في مجرى ترسيخ دعائم الدولة العباسية وتعزيز كيانها وادخال اليأس في قلوب كل من تراوده فكرة الثورة عليها على اعتبار أنها «ستتم لهؤلاء» وأنّ محمد النفس الزكية الثائر العلوي الذي خرج في أيام المنصور «لئن شهر سيفه ليقتلن»، خاصة إذا ما علمنا مدى خوف السلطة العباسية من بعد أن تعاظم امره والتف الكثير من المسلمين علويين وغير علويين حوله، هذا مع الاخذ بنظر الاعتبار مبايعة العباسيين ـ وعلى رأسهم السفاح والمنصور ـ له في مؤتمر الابواء. وسنتطرق الى هذه الثورة بشكل أكثر تفصيلاً في موضعها.

والذي يعزز من احتمال اختلاق العباسيين للحكاية نفسها موقف الامام الصادق من الرسالة، فالحكاية تقول أن الامام الصادق قد احرق الرسالة دون ان يفضّها ويقرأها.. وهل يمكن لشخصية كالامام الصادق ان يقوم بهذا دون ان يطلع على فحوى الرسالة؟ وكيف يبدي رأيه فيها قبل ان يعرف ما جاء فيها؟ ولو افترضنا ان الامام كان على علم بمضمونها، لكن أليس من الحكمة والصواب فضّ الرسالة وقراءتها ثم اتخاذ الموقف المناسب حتى ولو كان إحراق الرسالة.

فمن المستبعد جداً ان يقوم الامام الصادق باحراق الرسالة دون ان يفضها ويقرأها، وهو الذي يعلّم الناس الاصول والآداب، وصاحب النظر الثاقب والرأي السديد المبتني على الموضوعية، اللهم إلّا اذا كانت هناك حكمة في الأمر نجهلها.

وهنا قد يُثار السؤال التالي: لو افترضنا انّ الرسالة كانت من الخلال حقاً، فماذا كان يمكن ان يكون موقف الامام الصادق منها مع علمه أنها من الخلال وانه صادق في ما دعى الامام اليه؟

والحقيقة انّ الامام الصادق عليه السلام ومثل باقي أئمة أهل البيت عليهم السلام كان يعمل بالعقل قبل العاطفة ويتعامل مع كافة القضايا تعاملاً موضوعياً قائماً على الدراسة العميقة والتقييم السليم، والتمحيص المنطقي. لهذا لا يمكن له في مثل هذه الحالة انْ يتفاعل مع هذه الرسالة بمستوى ذلك التفاعل الذي قيل ان عبد الله المحض قد ابداه، ولا يمكن له وهو الذي يقود الاتجاه الاسلامي الصحيح ويوجّه القاعدة الرسالية الحقيقية انْ يبني كل

آماله على رسالة مبهمة ويزجّ في كل ما يملك من رصيد جماهيري وطاقات كامنة ومتحركة في عملية لا تُعرف نتائجها، ان لم نقل محكوم عليها بالفشل في ظل تلك الظروف التي كانت قائمة.

ولهذا نعتقد انّ موقف الامام في هذه الحالة ـ أي في حالة تأكده من صحة الرسالة وصدق نوايا الخلال ـ سوف يكون على غرار موقف ابنه الامام موسى بن جعفر عليه السلام من الوزير علي بن يقطين، حيث دعاه الى البقاء وزيراً في بلاط هارون الرشيد كي يكون عوناً للشيعة ودعامة لهم، مثلما سنفصل ذلك فيما بعد.

وعلى أساس ما سبق يجب ان نقول أنّ من الخطأ تفسير موقف الامام الصادق من الخلال أو من ابي مسلم[٢٥] ـ الذي قيل انه ارسل رسالة مماثلة للامام ـ على انه تأكيد على اعتزال الامام عن الحياة السياسية مهادنته للسلطة القائمة، أو ايمانه بالعمل الفكري المجرد.

فأئمة أهل البيت لم يكونوا مهادنين في يوم ما ولم يفصلوا بين الدين والسياسة، أو بين التحرك الفكري والتحرك السياسي، وانما هدفهم النهائي ان يحكم الدين المجتمع سياسياً وفكرياً وثقافياً واقتصادياً، ولا يتحقق ذلك بالطبع ما لم تكن هناك حكومة اسلامية عادلة شرعية. ولو لم تكن للائمة مثل هذه الفكرة ولو لم يؤمنوا بهذا المبدأ، لما اعتبرتهم السلطات الجائرة اموية وعباسية الخطر الأول على سلطانهم، ولما سعت الى تصفيتهم بشتى السبل والوسائل.

الا انّ الائمة ـ بما فيهم الامام الصادق ـ كانوا يراعون الاحتياط في

التحرك، حفاظاً على القاعدة التي يسهرون على تربيتها وبالتالي على الخط الاسلامي النقي. وبعبارة اخرى ان الأئمة كانت سياستهم تقوم على عدم اعطاء السلطة الحاكمة الفرصة لضربهم أو ضرب قاعدتهم وكوادرهم، وعدم السماح لها باستغلال بعض الاعمال التي ربما يكون ضررها أكبر بكثير من نفعها ولو على الأمد البعيد.

والخلاصة ان الامام الصادق عليه السلام أو أي إمام آخر لم يتخذ مبدأ الاحتياط انطلاقاً من خوف على حياة، بل خشية على مصير الإسلام والحركة الاسلامية الاصيلة.

البشائر الملفَّقة

قلنا إنّ العباسيين استخدموا كافة الوسائلَ الممكنة وزجّوا بكافة ما يستطيعون زجّه من أساليب وحيل في سبيل اضفاء الشرعية على حكمهم وترسيخ قواعده وعرقلة وتثبيط أي تحرك مضاد أو اتجاه معاكس.

ويصب أُسلوب النبوءات والبشائر في هذا الهدف العباسي أيضاً، حيث قاموا باصطناع ـ أو كلّفوا من يصطنع لهم ـ الاحاديث والروايات المروية عن النبي صلى الله عليه وآله أو عن أئمة أهل البيت عليهم السلام التي تجمعها جميعاً فكرة تنبؤهم جميعاً بالدولة العباسية وزعامة العباسيين للمسلمين وفشل كل المحاولات التي تعترض طريقهم، هادفين من وراء ذلك كما قلنا صبغ دولتهم بالصبغة المقدسة واعطائها بعداً عقائدياً وغيبياً، وكذلك للتلويح

بتلك القدسية والغيبية بوجوه المتذمرين، وإدخال اليأس الى قلوب من يحدث نفسه بالثورة أو الخروج على السلطة ما دامت هناك أحاديث تؤكد على ديمومة هذه السلطة وبقائها واندحار كل عمل يحاول النيل منها!

ومن تلك النبوءات التي اصطنعها العباسيون قبل وبعد استيلائهم على السلطة:

انّ النبي صلى الله عليه وآله قال لعمه العباس بن عبد المطلب انّ الخلافة تؤول الى ولدك(٢٦).

وكذلك ما نُسب الى الامام علي عليه السلام: أنّ الامام علي عليه السلام افتقد في الكوفة عند صلاة الظهر عبد الله بن عباس، فقال: ما لابن عباس لم يحضر الصلاة؟ قيل له: يا أمير المؤمنين ولد له مولود.

فقال الامام علي عليه السلام: هلموا بنا اليه.

فجاء أمير المؤمنين الى دار عبد الله بن عباس، فقال له: شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب، ما اسميته؟

فقال: أو يجوز لي ان اسميه قبل ان تسميه يا أمير المؤمنين؟

فقال الامام: اخرجه لنا!

فأخرجه، فأخذه الامام وحنّكه ودعا له، ثم ردّه اليه وقال: خذ إليك أبا الاملاك، فقد سميته علياً وكنّيته بكنيتي!(٢٧)

ويتضح من هذه الحكاية الملفّقة عن الامام علي عليه السلام، ما كان يريد العباسيون ان يقولوه للناس. فهم يريدون ان يقولوا لهم بشكل عام

وللعلويين بشكل خاص، أنّ دعوتنا قد باركها علي عليه السلام قبل ان تـولد، ومؤسسها (علي بن عبد الله) قد باركه علي وحنّكه وأسماه باسمه وكنّاه بكنيته، وتنبأ أنّ الاملاك أو الحكم والملوكية ستكون من نصيب ابنائه! وهل يحق بعد ذلك لعلوي ان يعترض على علي؟ وهل يليق بابناء علي ان يتمردوا على مباركة ابيهم ونبوءته؟ وهل يقبل منهم أحد مثل ذلك لو فعلوا؟

والغريب أنّ البعض يتناقل هذه الرواية المختلقة ويتبجح بها على أنها معجزة للامام علي عليه السلام، حيث أنها نبوءة تحققت بالفعل ومَلَكَ أبناء علي بن عبد الله بن عباس! في حين أنّ التاريخ ـ فضلاً عن المنطق والوعي ـ يكشف عن وضعها. فقد اجمع المؤرخون(٢٨) على أنّ علي بن عبد الله بن عباس ولد في الليلة التي قُتِل الامام علي عليه السلام في صبيحتها! أضف الى ذلك انّ علي بن عبد الله لم يولد في الكوفة، وانما وُلد إمّا بالبصرة على قول من يرى انه كان والياً للامام عليها حتى مقتل الامام، أو ولد بالحجاز على رأي آخر.

وفي إطار عدّ التنبؤ بصيرورة الخلافة لبني العباس معاجز للائمة نرى البعض يذكر: «والواقع ان أئمة أهل البيت كثر تحدثهم قبل عصر الصادق عن الدولة الهاشمية وتعددت اشاراتـهم الى مـلك بـني العـباس وانـهم سيطأون اعناق الرجال، ويملكون الشرق والغرب ويجمعون من الاموال ما لم يجتمع لأحد من قبلهم، وأن مدة ملكهم ستطول، وستكون أضعاف مدة الدولة الاموية، وقد اخبروا بهذه الحوادث قبل وقوعها»(٢٩).

ليس خافيا أنّ كافة هذه العبارات التي وردت بصيغة التنبؤات تصبّ في خدمة الأهداف العباسية وتعبّر تعبيراً كاملاً عما يـود العـباسيون ان يقوله الناس عنهم وما يحبوا أن يشيعوه. لا شك وانهم سيشعرون بالنشوة وتطرب قلوبهم حينما يُقال عنهم انهم سيطأون اعناق الرجال ويملكون الشرق والغرب! وإذا كان الأمر بهذه الصورة فهل سيجد أحد ـ مهما كان ـ المبرر المقنع الكافي كي يحدث نفسه بالوقوف في وجوههم والتـصدي للانتهاكات التي يرتكبونها بحق الإسلام والمسلمين؟

وفي إطار تلك التنبؤات المنسوبة الى أهل البيت عليهم السلام مـا رواه ابـو الفرج الاصفهاني في «مقاتل الطالبيين»[٣٠].

لما بايع الهاشميون محمد بن عبد الله بن الحسن، قـال لهـم الامـام الصادق عليه السلام:

ـ لا تفعلوا فانّ الامر لم يأت بعد.

وضرب بيده على ظهر أبي العباس السفاح، ثم ضرب بيده على كتف عبد الله بن الحسن وقال:

ـ والله أنها ما هي لك ـ أي الخلافة ـ ولا الى ابنيك، ولكنها لهم ـ أي لبني العباس ـ وانّ ولديك مقتولان!

ثم نهض وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري، فقال:

ـ ارأيت صاحب الرداء الاصفر ـ يعني المنصور ـ؟

قال:

ـ نعم.

فقال الامام الصادق:

ـ فانّا والله نجده يقتله ـأي يقتل محمداًـ.

فقال عبد العزيز:

ـ أيقتل محمداً؟

قال الصادق:

ـ نعم.

كما روي على هذا الصعيد ان الامام الصادق عليه السلام قال لعبد الله بن الحسن ـوكان السفاح والمنصور معهما ـ انّ هذا الامر والله ليس إليك ولا الى ابنيك وانما هو لهذا ـيعني السفاح ـ ثم لهذا ـيعني المنصور ـ ثم لولده من بعده، لا يزال فيهم حتى يؤمّروا الصبيان ويشاوروا النساء، وأنّ هذا ـيعني المنصور ـ يقتله على أحجار الزيت ثم يقتل أخاه بعده. ثم قام مغضباً يجر رداءه فتبعه المنصور، فقال: أتدري ما قلت يا ابا عبد الله؟

قال: اي والله ادريه وانه لكائن(٣١).

ونحن لا ننكر ابداً علم الأئمة بالمغيبات ومعرفتهم بكثير من الحوادث قبل وقوعها بما افاض الله تعالى عليهم من علم وبما فتح لهم من نوافذ غيبه وبما اخبرهم به جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله عن الله تعالى، ولكن الامر يختلف هنا تماماً، وتخرج القضية عن إطار تنبؤ الامام أو كشفه لحالة غيبية أو إخباره بحدث مستقبلي، وتدخل في اطار شحذ عزائم العباسيين، وتثبيت اقدامهم، ومدّهم بعناصر القوة والانطلاق لتحقيق مآربهم التي تتناقض تماماً مع أهداف الإسلام وبالتالي مع أهداف الامام

الصادق، ولا يمكن للامام الصادق ان يعين الظالم بمثل هذه النبوءات وهو الذي ينهى عن اعانته بكلمة.

كما أن نبوءات من هذا النوع تعتبر بمثابة ضربة قاصمة للمجاهدين في سبيل الله الذين يرون أنّ التكليف الالهي يملي عليهم مجاهدة المنحرفين عن خط الرسالة والمحاربين لدين الله بوجهه الناصع المشرق. فهل يمكن للامام الصادق ـ رغم علمه انّ حدثاً مثل هذا سيقع ـ ان يقول لعبد الله بن الحسن: «انها ما هي لك ولا الى ابنيك، ولكنها لهم. وان ولديك مقتولان». فلو قيل انه قال عليه السلام: «انها ما هي لك ولا الى ابنيك، ولكنها لنا»، لكان الامر منطقياً وطبيعياً، فالخلافة والامامة ليست لعبد الله بن الحسن ولا لولديه محمد وابراهيم، وليست أيضاً للسفاح أو المنصور، انما هي للامام الصادق والكاظم كما نص على ذلك رسول الله والأئمة من بعده. أما ان يقول انها لهم، اي لبني العباس فهذا يعني في جملة ما يعنيه انها من حقّهم وانها لابد وان تكون لهم، وحاشا للامام الصادق ان يمنح هذا الحق لمغتصبيه. ثم هل يمكن للامام عليه السلام انْ يثبّط عزائم الثائرين محمد النفس الزكية واخيه ابراهيم باخبارهما انهما مقتولان؟! وهل تبقى لديهما معنوية للقتال والجهاد وهما يعلمان أنّ نهايتهما القتل؟ ثم ما هي الفائدة التي سيجنيها الامام عليه السلام من تثبيط عزائم المجاهدين وشحذ عزائم الظالمين؟ هذا اذا علمنا انّ الامام الصادق عليه السلام اشرك ولديه الامام الكاظم عليه السلام وعبد الله في ثورة النفس الزكية(٣٢).

ثم ألا يعني ما قيل انه كلام الامام الصادق لعبد الله بن الحسن: وانما الأمر للسفاح ثم المنصور ثم لولده من بعده... وانّ المنصور يقتل محمداً

على أحجار الزيت ثم يقتل أخاه بعده، إلاّ يعني اضفاء الشرعية على العباسيين وأعمالهم من جهة، وصرف اي جهة علوية وغير علوية عن التفكير بمواجهة العباسيين؟ وهو ما لم يقل به أحد من الأئمة المعصومين.

ونرى أنّ ادخال عبارة «حتى يؤمروا الصبيان ويشاوروا النساء» اريد به اضفاء مصداقية على الكلام كي لا يُثار حوله الشك أو يُنظر اليه بعين الريبة.

وتمادياً من العباسيين في التلاعب بالاحاديث النبوية ووضع الروايات عنه صلى الله عليه وآله وعن أهل بيته، فقد امروا من يروي كذباً عن الرسول صلى الله عليه وآله: «اللهم اغفر للعباس ولولد العباس ولمن احبهم»[٣٣].

أو: «اللهم اغفر للعباس ما اسرّ وما اعلن وما ابدى وما افض، وما كان وما يكون منه ومن ذريته الى يوم القيامة»[٣٤].

او: «يخرج منا رجل في انقطاع من الزمن وظهور من الفتن يسمى السفاح»[٣٥].

أو: «ليكونن منا السفاح والمنصور والمهدي»[٣٦].

وانت ترى كيف تجرأ هؤلاء ووعاظهم على الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله ونسبة أحاديث اليه تصبّ في خدمة دولتهم القائمة على الظلم والارهاب وتزييف القيم وافراغ المفاهيم الاسلامية من محتواها. وقد اكد الحفاظ من علماء الحديث كذب هذه الاحاديث[٣٧]. والاّ فهل يُعقل ان تصدر عن النبي أحاديث تشيد بالدولة العباسية وبالسفاح في حين انّ انحراف هذه الدولة وزعمائها عن الإسلام أمر لا يختلف فيه اثنان،

والمصائب التي لحقت بالمسلمين والرساليين في عهدهم مما امتلأت به بطون الكتب التاريخية، والاستهتار بالمبادئ الاسلامية، والانغماس في حمأة الرذيلة، ومعاقرة الخمر والعيش على انـغام المـوسيقى واصـوات القيان مما لا ينكره أحد.

سياسة الجور والارهاب

لما كان العباسيون يفتقدون الى المبررات الشرعية الحقيقية، ولما كان هدفهم من الاستيلاء على زمام الأمور هو ان يكونوا ملوكاً على الناس وحكاماً يطأون اعناقهم، فمن الطبيعي ان يمارسوا كافة الممارسات التي من شأنها ان تحفظ لهم سلطانهم وتمدّ لهم في ايامهم، وتجعل الأمة تذعن لهم اذعان العبيد، وتخضع لهم خضوع المغلوب على امره. ومن الطبيعي أيضاً ان يرتكبوا كافة أنواع الظلم، وينتهجوا سياسة الجـور والتـعسف، ويتعاملوا بلغة الارهاب، ويحاسبوا على الظن والتهمة، ويأخذوا الكـبير بهفوة الصغير، وينتقموا من البريء بتهمة المذنب، ويـقترفوا كـل جـريمة يمكن انْ تُسكِت صوت الامة، وتحبس الانفاس في الصدور، وتـصرف دعاة الحق عن التفكير بالتصدي لهم ومواجهتهم؛ طبعاً يفعلون هذا كله وهم يدّعون الدين، ويُظهرون التدين، ويتظاهرون بالولاء لأهل البيت!

وقد حاول ابو جعفر المنصور تبرير سياسة العنف التي كان ينتهجها العباسيون عندما قال له عمه يوماً:

ـ لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو؟!

فقال له المنصور:

ـ لأنّ بني مروان لم تبل رممهم وآل ابي طالب لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا امس سوقة واليوم خلفاء، فليس تتمهد هيبتنا في صدورهم الّا بنسيان العفو واستعمال العقوبة(٣٨).

فهو يؤكد في كلامه على سياسة العقوبة ويبرر تلك العقوبة بخوفه من الامويين الذين ربما ينقضون لاسترجاع الملك، ومن العلويين الذين كانوا ولا زالوا يشهرون سيوف الجهاد والثورة، ولأنهم ـ أي العباسيون ـ قد اصبحوا ملوكاً بين عشية وضحاها بعد ان كانوا اناساً عاديين مثل سائر الناس الامر الذي يثير حفيظة الآخرين ويحرك حسدهم. ولابد في مثل هذه الظروف من ارتكاب العنف وممارسة الشدة والتوسل بالعقوبة حسب وجهة نظر المنصور!

وهذا ما يكشف بشكل واضح عن أنّ العباسيين لم يأتوا كي ينقذوا الأمة من الظلم الاموي والامتهان الذي عاشته ابان عهدهم كما ادعوا في بداية استيلائهم على زمام الامور، وانما الهدف الأول والاخير هو التسلط والسيطرة والحكم.

وقد عبّر عبد الرحمن الافريقي أروع تعبير عن الجور العباسي حينما دخل على المنصور بعد شهر كامل من الوقوف ببابه، بقوله للمنصور:

ـ ظهر الجور ببلادنا فجئت لأُعلمك، فإذا الجور يخرج من دارك، ورأيت أعمالاً سيئة، وظلماً فاشياً ظننته لبعد البلاد منك، فجعلت كلما دنوت منك كان الامر اعظم(٣٩).

وقيل انّ المنصور سأله:

ـ كيف سلطاني من سلطان بني امية؟

فأجابه:

ـ ما رأيت في سلطانهم شيئاً من الجور إلّا رأيته في سلطانك[٤٠].

ولا شك انّ كلام عبد الرحمن الافريقي هذا شهادة عادلة للتاريخ على انّ السلطان العباسي لا يختلف عن السلطان الاموي سوى في التسمية، وإلّا فالجور العباسي لا يقل عن الجور الاموي إن لم يكن قد فاقه بشهادة كثير من زعماء العلويين.

وكان المنصور على علم في قرارة نفسه انه سلطان جائر، لكنه كان يحاول باستمرار شراء الضمائر لاسيما بعض الفقهاء من ضعاف النفوس لكي يقدموا شهادة كاذبة بعدالته كي يستطيع من خلال تلك الشهادة المزورة اسباغ الشرعية على ممارساته الجائرة البعيدة عن روح الإسلام وأهدافه. ونذكر في هذا الصدد ما رواه مالك بن انس قال: لما ولي ابو جعفر الخلافة، وافى اليه الملّاقون المشاءون بالنميمة عني بكلام كان قد حفظ علي، فأتاني رسوله ليلاً ونحن بمنى، قال: أجب أمير المؤمنين، وذلك بعد مفارقتي له، وخروجي عنه، فلم اشك انه للقتل، ففرغت من عهدي، واغتسلت وتوضأت ولبست ثياب كفني وتحنطت، ثم نهضت فدخلت عليه في السرادق، وهو قاعد على فراش قد نظم بالدرّ الابيض، والياقوت الاحمر، والزمرد الاخضر، حكي انه كان من فرش هشام بن عبد الملك كان قد اهداه اليه صاحب القسطنطينية، لا يعلم ثمنه،

ولا يدري ما قيمته، والشمع يحترق بين يديه، وابـن ابـي ذؤيب وابـن سمعان قاعدان بين يديه، وهو ينظر في صحيفة في يده، فلما صرت بين يديه سلمت، فرفع رأسه، فنظر اليّ، وتبسم تـبسم المـغضب، ثـم رمـى بالصحيفة، وأشار لي الى موضع عن يمينه اقعد فيه، فلما قعدت وأخذت مقعدي، وسكن روعي، رفعت رأسي انظر تلقائي، فإذا أنا بواقف عـليه درع، وبيده سيف قد شهره، يـلمع له مـا حـوله، فـالتفتّ عـن يـميني، فإذابواقف بيده جزر من حديد، ثم التفت عن يساري، فإذا أنا بواقف عليه درع وبيده سيف قد شهره، وهم اجمعون قد اصغوا اليه، ورمقوه بابصارهم خوفاً من ان يأمر في أحد فيجده غافلاً.

ثم التفت الينا وقال:

ـ اما بعد معشر الفقهاء، فقد بلغ أمير المؤمنين عنكم ما أخشن صدره، وضاق به ذرعه، وكنتم أحق الناس بالكف من السـنتكم، والأخـذ بـما يشبهكم، وأولى الناس بلزوم الطاعة، والمناصحة في السر والعلانية لمن استخلفه الله عليكم.

قال مالك فقلت:

ـ يا امير المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتُم نادمين﴾.

فقال ابو جعفر المنصور:

ـ على ذلكم، اي الرجال أنا عندكم؟ امن أئـمة العـدل أم مـن أئـمة الجور؟

فقال مالك: فقلت:

ـ يـا أمـير المـؤمنين أنـا مـتوسل إليك بـالله تـعالى، واتشـفع إليك بمحمد صلى الله عليه وآله وبقرابتك منه، إلّا ما اعفيتني من الكلام في هذا.

قال:

ـ قد اعفاك امير المؤمنين.

ثم التفت الى ابن سمعان فقال له:

ـ ايها القاضي ناشدتك الله تعالى، اي الرجال أنا عندك؟

فقال ابن سمعان:

ـ انت والله خير الرجال يا امـير المـؤمنين، تـحج بـيت الله الحـرام، وتجاهد العدو، وتؤمن السبل، ويأمن الضعيف بك ان يأكله القوي، وبك قوام الدين، فأنت خير الرجال، وأعدل الائمة.

ثم التفت المنصور الى ابن ابي ذؤيب فقال له:

ـ ناشدتك الله اي الرجال أنا عندك؟

فقال:

ـ انت والله عندي شرّ الرجال، استأثرت بمال الله ورسوله، وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين، وأهلكت الضعيف، وأتعبت القوي، وأمسكت اموالهم، فما حجتك غداً بين يدي الله؟

فقال له المنصور:

ـ ويحك! ما تقول؟ أتعقل؟ أُنظر أمامك.

قال:

ـ نعم، قد رأيت اسيافاً، وانما هو الموت، ولا بدّ منه، عاجله خير من آجله[٤١].

ونحن هنا في هذا الحدث أمام ثلاثة مواقف متفاوتة: موقف اخرسه السيف عن قول كلمة الحق وأسكته الحق عن قول كلمة الباطل، وموقف ارعبه السيف فاندفع لقول الباطل وتزكية الحاكم الجائر، وموقف لم يرعبه السيف ودفعه الحق لقول كلمة الحق حتى وان كانت ضريبتها القتل.

كما نلاحظ في هذا المشهد العجيب اندهاش المنصور من سماع كلام ابن ابي ذؤيب، لهذا أسرع الى تهديده بالاسياف المشهورة، عسى ان يغيّر من لهجته، ويتراجع عن موقفه الشجاع، لكنّ السيوف لا تؤثر دائماً على المواقف، ولا يتراجع امامها سوى المتخاذلين.

وننقل هنا نموذجين من التعامل العباسي القائم على السيف، احدهما مع العلويين والآخر مع عامة الناس، فيما نرجئ باقي الكلام حول هذا الامر حين التحدث عن الخلفاء العباسيين في أيام الامام موسى بن جعفر عليه السلام:

النموذج الاول

لما عزم المنصور على الحج دعا ريطة بنت ابي العباس، امرأة المهدي، وكان المهدي بالري قبل شخوص ابي جعفر، فأوصاها بما اراد، وعهد اليها، ودفع اليها مفاتيح الخزائن. وتقدم اليها وأحلفها ووكد الايمان ان لا تفتح بعض تلك الخزائن ولا تطلع عليها احداً لا المهدي ولا هي إلّا ان يصح عندها موته، فإذا صحّ ذلك اجتمعت هي والمهدي وليس معهما

ثالث حتى يفتحا الخزائن.

فلما قدم المهدي من الري الى مدينة السلام دفعت اليه المفاتيح، واخبرته عن المنصور انه تقدم اليها فيه إلّا يفتحه ولا يطلع عليه احداً حتى يصح عندها موته. فلما انتهى الى المهدي موت المنصور، وولي الخلافة، فتح الباب ومعه ريطة، فإذا أزج[٤٢] كبير فيه جماعة من قتلى الطالبيين، وفي آذانهم رقاع فيها انسابهم، وإذا فيهم أطفال ورجال، شباب ومشايخ عدة كثيرة. فلما رأى ذلك المهدي ارتاع لما رأى، وأمر فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها، وعمل عليها دكاناً[٤٣].

النموذج الثاني

استعمل السفاح على أهل الموصل أخاه يحيى بن محمد وسيّره اليها في اثني عشر الف رجل، فنزل قصر الإمارة بجانب المسجد الجامع، ولم يُظهِر لأهل الموصل شيئاً ينكرونه ولم يعترضهم فيما يفعلونه. ثم دعاهم فقتل منهم اثني عشر رجلاً، فنفر أهل البلاد وحملوا السلاح، فأعطاهم الامان، وأمر فنودي: «من دخل الجامع فهو آمن».

فأتاه الناس يهرعون اليه، فأقام يحيى الرجال على ابواب الجامع، فقتلوا الناس قتلاً ذريعاً اسرفوا فيه. فقيل: انه قتل فيه أحد عشر الفاً أو اكثر.

فلما كان الليل سمع يحيى صراخ النساء اللاتي قُتِل رجالهن، فسأل عن ذلك الصوت فأُخبِر به، فقال:

ـ اذا كان الغد فاقتلوا النساء والصبيان!

ففعلوا ذلك وقتل منهم ثلاثة ايام.

وكان في عسكره قائد معه اربعة آلاف زنجي فأخذوا النساء قهراً.

فلما فرغ يحيى من قتل أهل الموصل، ركب في اليوم الرابع وبين يديه الحراب والسيوف المسلولة، فاعترضته امرأة وأخذت بعنان دابته، فأراد اصحابه قتلها فنهاهم عن ذلك. فقالت له:

ـ ألست من بني هاشم؟ ألست ابن عم رسول الله؟ اما تأنف للعربيات المسلمات ان ينكحهن الزنج؟

فأمسك عن جوابها، وسيّر معها من يبلغها مأمنها، وقد عمل كلامها فيه. فلما كان الغد جمع الزنج للعطاء فاجتمعوا، فأمر بهم فقُتِلوا عن آخرهم(٤٤).

الفصل الثاني

المحاولات العباسية لطمس معالم مذهب أهل البيت عليهم السلام

سيف الرافضـــة

قلنا ان الدعوة العباسية كانت تدعو قبل انتصارها الى آل البيت وترفع شعار إعادة الحكم الى اصحابه الحقيقيين من البيت النبوي الذين أقصاهم الامويون عن المسرح السياسي، وعاملوهم بأشد ما يكون عليه التعامل. وقلنا أيضاً أنّ الأمة الاسلامية ولا سيما أهل بيت النبوة وشيعتهم كانوا يأملون خيراً في الحكم الجديد ويتوقعون منه إن يعيد الحق الى اهله و الأمور الى نصابها.

غير انّ السياسة العباسية اخذت تتبلور بمرور الزمن لتؤكد على كذب ما كانوا يرفعونه مـن شـعارات، وزيـغهم عـما كـانوا قـد عـاهدوا بـه الأمة والعلويين في مؤتمر الابواء وفي كثير من المناسبات الاخرى.

وفي الوقت الذي كان فيه العباسيون يبحثون عن الشرعية ـ سواء قبل الانتصار أو بعده ـ ويحاولون العثور على المبررات التي تـضفي عـليهم تلك الشرعية كـما أشـرنا الى ذلك فـي الفـصل الاول، سـعوا جـادين أيضاً لانتزاع الشرعية من صاحب الشرعية ـ أي العلويين ـ بشتى السبل والوسائل، لتعزيز شرعيتهم الهشة من جانب، وللتمهيد لضرب العلويين

وشيعتهم من جانب آخر.

وتحقيقاً لهذا المخطط الذي كان يصرّ عليه كافة خلفاء بني العباس، فقد اخذوا يبحثون مع المتملقين اليهم ووعاظهم الذين باعوا دينهم بدنياهم وكافة من له مصلحة شخصية ودنيوية، بما فيهم الكتّاب المأجورون، عن الطرق المناسبة لتهميش الشرعية العلوية والأحقية الشيعية.

وأدرك العباسيون والمصلحيون الملتفون حولهم أنّ العلويين انما يشعرون بالقوة انطلاقاً مما يحظون به من دعم شعبي وما لديهم من مكانة اجتماعية لاسيما في أوساط الشيعة الذين يرون فيهم التجسيد الصحيح للرسالة والامتداد الحقيقي للنبوة والكفاءة النموذجية في قيادة الامة. ولهذا قرروا ضرب الفكرة الشيعية واجهاضها بصفتها المحور الذي تدور حوله القاعدة الجماهيرية المؤيدة للبيت العلوي.

وانطلاقاً من ذلك انبروا لاحياء فكرة «الرافضة» أو «الرافضية» التي كان الامويون يقرعون طبلها وينفخون مزمارها، والتي كانوا يطلقونها على كل موال لأهل البيت ومحب لهم، للقضاء عليه وتصفيته جسدياً. ووجه العباسيون في هذا «الاتهام»، خير اسلوب لتصفية خصومهم ممن يوالي أئمة أهل البيت ويحب علياً عليه السلام، وممّن لم ينحاز اليهم أو يتعاون معهم.

ويعود أساس مصطلح «الرافضة» الى ما قيل: أن الشيعة الذين كانوا في صفوف زيد بن علي بن الحسين ـ الثائر على الخليفة الاموي هشام

بن عبد الملك ـ سألوه عن ابي بكر وعمر وما هو رأيه فيهما، فأجاب خلافاً لما كانوا يعتقدون، فتفرقوا عنه ورفضوه فسموا بالرافضة، ثمّ عُمِّم هذا المصطلح على كل من يرفض ابا بكر وعمر ولا يعترف بشرعيتهما في الخلافة، ثم حوّره الامويون والعباسيون من بعد وأرادوا به كلّ محب لأهل البيت وموال لهم ومعتقد بامامتهم.

وحول حقيقة ما قيل من انّ الشيعة هم الذين سألوا زيداً عن الشيخين، فلا صحة لذلك. فالشيعة على علم بأفكار زيد ووجهة نظره، خاصة وقد كانوا نواة جيشه وأساس انطلاقته، ثم هل من المعقول ان يسأل الشيعة زيداً مثل هذا السؤال في مثل ذلك الموقف الحرج الذي كان يستعد فيه لمجابهة الجيش الاموي، مع ادراك الشيعة ان جيش زيد يضم اضافة لهم عناصر اخرى ذات آراء تختلف عن آرائهم جمعهم واياهم العداء للامويين.

وكشف ابن عساكر(٤٥) عن هذه الحقيقة حينما قال:

خرج زيد في اربعة آلاف بالكوفة، فاحتال عليه بعض من كان يهوى هشاماً، فدخلوا عليه وقالوا:

ـ ما تقول في ابي بكر وعمر؟

فقال زيد:

ـ رحم الله ابا بكر وعمر صاحبي رسول الله ﷺ.

ثم قال معترضاً عليهم:

ـ اين كنتم قبل اليوم؟

وواضح انّ الهدف من القاء هذا السؤال شقّ صفوف معسكر زيد بن علي عليه السلام وايقاع الاختلاف بين جنوده، كي يسهل على الجيش الاموي ضربه والحاق الهزيمة به. وقد تمّ للمندسين بين صفوف جنوده من الامويين ما ارادوا.

وذهب بعض المؤرخين الى انّ الرافضة قد عُرفت في الجماعة التي امتنعت عن بيعة ابي بكر، وهو خلاف المشهور بين المؤرخين لأن الذين امتنعوا عن بيعة الخليفة الأول كانوا يعرفون بشيعة علي عليه السلام (٤٦).

والواقع ان الخلفاء الامويين وكذلك العباسيين لم يستخدموا حربة الرفض ضد اتباع أهل البيت والتنكيل بهم، حباً في الشيخين ولا تعصباً لهما، فانهم لم يُعرفوا بذلك ولم ينهجوا نهجهما أو يسيروا بسيرتهما، وانما كان بغضاً لأهل البيت وحقداً نابعاً من شعورهم بأنهم ـأي أهل البيتـ الخط الوحيد الذي يمثّل الشرعية والرسالية، والنهج الذي لا يقبل المساومة وانصاف الحلول، والجبهة التي تنطلق منها السهام باتجاههم كل حين، والرحم الذي تتمخض عنه الثورات دائماً.

وشحذ العباسيون سيف «الرافضة» واستخدموه بشكل أشد مما كان يستخدمه الامويون «حتى ادى الامر الى قتل من عُرف بحب علي وأهل بيته، واتخذوا لذلك شتى الطرق ومختلف الاساليب، وأقرب طريق سلكوه للوصول الى ايقاع الفتن بمن عُرِف بحب أهل البيت هو مسألة تفضيل علي عليه السلام على الخلفاء، وجعلوا قاعدة مطردة عندهم هي: انّ من فضل علياً عليه السلام فقد طعن على الصحابة، ومن طعن على الصحابة طعن

على رسول الله ﷺ فهو زنديق.

وجعلوا مدح علي وذكره بما خصه الله ورسوله من الفضائل التي امتاز بها على غيره، طعناً على الصحابة، وموهوا على السذج بذلك، وانخدع اكثر الناس واستجاب آخرون تحت الضغوط، ولقي المفكرون من الأمة عناء، وواجهوا مشاكل عند محاولتهم الوقوف أمام تيار ذلك السيل الجارف، فساير أكثرهم تلك الاوضاع، وجارى تلك الظروف، دفاعاً عن النفس وطمعاً في الحياة، فخضعوا لرأي الدولة وتجنبوا الحديث عن أهل البيت وفضلهم، ودرج الناس على ذلك، ونظروا الى الشيعة بعيون مزورة، وقلوب تتقد بنار العداء فكانوا لا يصبرون على سماع منقبة لأهل البيت، وإذا رأوا احداً يذكرهم بخير، رموه بالرفض، واتهموه بالزندقة»(٤٧).

ونجد ان حجر العسقلاني يميّز بين التشيع والرفض من وجهة نظر الحكام والذهنية العامة التي صنعوها. فهو يقول: «والتشيع محبة علي وتقديمه على الصحابة، فمن قدمه على ابي بكر وعمر فهو غال في تشيعه ويُطلق عليه رافضي»(٤٨).

بل وتشدد البعض في موقفهم من «الرافضي» ـ والذي يريدون به الموالي لأهل البيت ـ حتى كان يقول بتفضيل أكل ذبيحة اليهودي على ذبيحة الرافضي(٤٩). وهذا يكشف لنا مدى الحملة الاعلامية العنيفة التي شُنّت على مذهب أهل البيت والقائلين بإمامتهم من قبل السلطتين الاموية والعباسية، تلك الحملة الواسعة التي كانت مدعومة بحملة ارهابية مرعبة تطال كل من تتهمه الاجهزة الحكومية بالرفض أو التشيّع لأهل

البيت.

ولم تقف تلك الحملة عند حدود مناهضة محبي علي وأولاده والقائلين بإمامتهم، بل امتدت حتى لتشمل علياً عليه السلام رغم اتفاق المذاهب غير الشيعية على خلافته وإمامته للمسلمين! ونحن نرى كيف تعرض الامام عليه السلام أو الخليفة الرابع ـ من وجهة النظر غير الشيعية ـ الى أقسى أنواع الظلم والتطاول والانتهاك في الزمن الاموي، حتى انه كان يُسبّ من فوق المنابر منذ أيام معاوية بن ابي سفيان وحتى عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ) حيث منع ذلك السب.

إن علياً عليه السلام الذي شهد بفضله وايمانه وقربه من رسول الله صلى الله عليه وآله والنصوص البيّنة المتواترة فيه عن الرسول صلى الله عليه وآله والتي وردت في صحاح الفريقين والتي هي خارج عن بحثنا هذا، علياً الذي اجمع المسلمون على انه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله، نراه يُسبّ ويُشتم من قبل السلطة الاموية مدة ٥٨ عاماً، دون ان يثير ذلك مشاعر أحد من الحريصين على سمعة الخلافة الراشدة، أو يؤدي الى تكفير معاوية المسنّ لهذه السنّة الشيطانية والذين خلفوه من الامويين، أو يرفع عقرته متّهماً الامويين ومن حذا حذوهم بتهمة على غرار تهمة الرفض أو الزندقة أو غيرها من التهم التي تفنن اعداء الطالبيين في اختراعها.

وانبرى ابن قتيبة لاعطاء صورة وإن كانت شاحبة عما لحق بعلي عليه السلام من غُبن وبُخس حق بسبب تلك السياسة التي كانت قائمة على العداء للعلويين:

وقد رأيت هؤلاء أيضاً كلما رأوا غلو الرافضة في حب علي وتقديسه، قابلوا ذلك أيضاً بالغلو في تأخير علي كرم الله وجهه، وبخسه حقه، ولحنوا في القول وان لم يصرحوا الى ظلمه، ولم يوجبوا له اسم الخلافة لاختلاف الناس عليه، وأوجبوها ليزيد بن معاوية لاجتماع الناس عليه، واتهموا من ذكره بخير، وتحامى كثير من المحدثين ان يحدثوا بفضائله كرم الله وجهه، أو يظهروا ما يجب له(٥٠).

ونحن نرى انّ ابن قتيبة وانْ هبّ للدفاع الضعيف عن الامام علي عليه السلام وتعجبه من انهم اوجبوا اسم الخلافة ليزيد بن معاوية ولم يوجبوه له، يستخدم هو الآخر في كلامه عبارة «الرافضة»، وهذا إنْ دلّ على شيء فانما يدل على مدى ترسيخ السلطات لهذه الكلمة في الاذهان، بما فيها اذهان مَن يعرفون الحقائق الى حد ما ويحللون الاوضاع ويقفون على ما يدور وراء الستار.

اضف الى ذلك استخدامه لعبارة «الغلو في حب علي وتقديسه» وهو ما كانت الاجهزة الحكومية تسعى الى اشاعته، أو تعبّر به عن حالة الولاء للامام علي عليه السلام والايمان به خليفة مفروض الطاعة على المسلمين طبقاً للآية القرآنية الكريمة التي نزلت في حج الوداع والتي اجمع المسلمون على أنها نزلت في إمامة علي عليه السلام وخلافته للرسول صلى الله عليه وآله.

وعدا ذلك فانه يلمّح الى ان الناس قد اختلفوا على علي عليه السلام واجتمعوا على يزيد وهو ما كان مبرراً للآخرين لبخس علي حقه واللحن في القول عليه، ونحن لا ندري اي اختلاف كان على علي عليه السلام

والأمة هي التي سعت اليه واصرّت على ضرورة توليه زمام الأمور بعد مقتل الخليفة الثالث رغم رفض الامام لذلك واصراره على البقاء ناصحاً وموجهاً للامة بعيداً عن سدة الحكم، لكنهم ابوا إلّا أن يحكم المسلمين ويشيع العدل فيهم ويعيد لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله بهاءها وحيويتها. وعندئذ لم يجد عليه السلام مع اختيار الأمة له واصرارها عليه سوى الرضوخ لمطالبها.

وإذا كان يراد بعدم الاجماع خروج طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، فانهما كانا في جملة من بايعوه، لكنهما نكثا البيعة وخرجا على إمام زمانهما، وحينئذ لا يعدّ ذلك مخالفة له، وانما عصيان وخروج وتمرد، ومعلوم ماذا يكون بانتظار الخارج على إمام زمانه.

اما اذا كان يراد بالذين اختلفوا على علي عليه السلام معاوية بن ابي سفيان والخوارج، فانّ معاوية كان والياً على الشام من قبل عثمان بن عفان، والآن وقد تغيّر الخليفة وتحدّد بالانتخاب الجماهيري، فمن حقّه ان يغيّر ما شاء من ولاة الخليفة السابق ويعيّن ما شاء بدلاً منهم طبقاً لما تقتضيه المصلحة الاسلامية، وعندئذ ليس أمام معاوية سوى الاذعان والاستجابة للمرسوم العلوي بتنحيته عن ولاية الشام، لا ان يتخذ من دم الخليفة الثالث ذريعة للتمرد على الخليفة الرابع. هذا في حين أن معاوية نفسه الذي يجب ان يحاكم لانه تلكأ عن نصرة عثمان رغم استنجاده به.

اما الخوارج فلا نعتقد ان احداً من المذاهب الاسلامية يعدّهم من المسلمين، كما انهم ـ أي الخوارج ـ يكفّرون كافة المسلمين بما فيهم الامام علي ومعاوية.

كما لا ندري أي اجتماع للناس على يزيد وقد رفض مبايعته الكثير من الشخصيات الاسلامية وعلى رأسها الامام الحسين بن علي الذي لم يكتف برفض مبايعته فحسب، بل وأعلنها ثورة عليه وعلى نظامه الذي خرج عن الاسلام، وانتهت تلك الثورة ـ التي كانت في الحقيقة صرخة لايقاظ الامة ـ باستشهاد ابي عبد الله الحسين وجنوده المخلصين.

انتزاع الشرعية

سعت الدولة العباسية بجدٍ لانتزاع الشرعية من أهل البيت عليهم السلام لأنّ شرعيتهم تعني فيما تعنيه عدم شرعية العباسيين، وانطلاق التساؤلات حول المجوز الشرعي الذي سمح لهم بممارسة مهام حكم المسلمين، وهذا كان يؤذيهم غاية الأذى، ويعكّر عليهم صفو حياتهم، وكان هاجساً دائماً لهم. ولم يستطع الخلفاء العباسيون التكتم عليه في كثير من المناسبات.

وعلى هذا الصعيد نشاهد هارون الرشيد في وضع نفسي متأزم وهو يرى إجماع الأمة على خلافة الامام علي عليه السلام، ولم يكن بمقدوره ان يخفي ما كان يعتلج في صدره بسبب ذلك، لهذا قال لأحد المترددين عليه ويدعى ابا معاوية:

ـ يا أبا معاوية هممت بمن اثْبَتَ خلافة علي فعلت به وفعلت.

فسكت ابو معاوية ولم يتكلم.

فقال له الرشيد:

ـ تكلم!

ـ فقال: إن اذنت لي تكلمت.

فقال الرشيد:

ـ تكلم.

فقال ابو معاوية:

ـ يا امير المؤمنين، قالت تيم: منا خليفة رسول الله، وقالت عدي: منا خليفة رسول الله، وقالت بنو امية: منا خليفة الخلفاء، فأين حظكم يا بني هاشم من الخلافة؟ والله ما حظكم إلاّ ابن ابي طالب[٥٢].

لكن الرشيد وكذلك باقي الخلفاء العباسيين كانوا يدركون انّ علياً ليس من نصيبهم وانما من نصيب اولاده الحسن والحسين وأولاد الحسين عليهم السلام وكانوا يدركون أيضاً انّ الأمة الاسلامية تهفو الى ابناء الحسين وتنجذب اليهم لأنهم الحلقات الطبيعية في سلسلة البيت النبوي، والشرعية الحقيقية التي نصّ عليها الرسول صلى الله عليه وآله، ولهذا حاولوا وبشتى السبل ضرب هذه الحلقات المتداخلة وطمس معالم تلك الشرعية.

وضمن هذا الإطار، نشاهد الخلفاء العباسيين يبذلون كل ما في وسعهم لتحويل اهتمام الناس وصرف أنظارهم عن آل الرسول وابناء علي عليه السلام، وتعظيم كافة الشخصيات الاخرى التي هي على غير مذهبهم ولا تقول بقولهم. كما بذلوا غاية ما لديهم من امكانات لتقوية ودعم وترسيخ المذاهب الاسلامية الاخرى على حساب مذهب أهل البيت أو المذهب الشيعي. وفي هذا السياق يقول عبد المتعال الصعيدي[٥٣]،علماء

الأزهر:

«فلما رأى بنو العباس انّ وسائلهم في القهر لا تجديهم، ارادوا ان يأتوا الناس من باب التعليم، فيتولوا امره بأنفسهم، ليربوا العلماء على الخضوع لهم، ويملكوهم بالمال من أول امرهم. وكانت الأمة هي التي تتولى أمر التعليم بعيداً عن الحكومة.. فيقوم في المساجد حراً لا يخضع لحكم ملك أو أمير، ويتربى العلماء بين جدرانها احراراً لا يراقبون إلاّ الله في عملهم، ولا يتأثرون بهوى حاكم، ولا تلين قناتهم لطاغية أو ظالم، فأراد بنو العباس ان يقضوا على هذا التقليد الكريم، ويتولوا بأنفسهمالتعليم بين المسلمين، فأخذوا ينشئون له المدارس بدل المساجد، ويحبسون عليها من الاوقاف الكثيرة ما يرغب العلماء فيها، ويجعل لهم سلطاناً عليهم. وأخذت الممالك التابعة تأخذ بهذا في سنتهم، حتى صار التعليم خاضعاً للحكومات بعد أن كان امره بيد الرعية، وكان لهذا اثره في نفوس العلماء، فنزلوا على ارادة الملوك، ولم تقو نفوسهم على مخالفتهم في رأيهم أو توجيه شيء من النصح اليهم. وكانت المدرسة البيهقية اول ما أنشئت من تلك المدارس، ثم أُنشئت بعدها المدرسة السعيدية بنيسابور...» الى ان يقول:

«وقد جاء المستنصر العباسي بعد ذلك فأنشأ في بغداد المدرسة المستنصرية سنة ٦٢٥هـ وأنفق في بنائها أموالاً لا تُحصر حتى تم بناؤها سنة ٦٣١هـ فاحتفل بافتتاحها احتفالاً عظيماً حضره بنفسه وحضر معه نائب الوزارة وكذلك الولاة والحجاب والقضاة والمدرسون والفقهاء وشيوخ الربط والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء... وأُختير لكل مذهب

من المدارس وغيرها اثنان وستون نفساً، ورتب لها مدرسين ونائبي تدريس... وجعل لها ستة عشر معيداً، أربعة لكل مذهب، وجعل ربع القبلة الايمن للشافعية، وجعل ربع القبلة الايسر للحنفية، وجعل الربع الذي على يمين الداخل للحنابلة، وجعل الربع الذي على يساره للمالكية... فأقبل الناس على دراستها وأهملوا غيرها من المذاهب التي لم يقدّر لها مثل هذه الاوقاف المغرية».

وهكذا كان نمو المذاهب الأربعة على حساب باقي المذاهب الاسلامية الكثيرة الاخرى التي كانت سائدة آنذاك وفي مقدمتها مذهب أهل البيت.

وخطت الحكومات التي اعقبت الدولة العباسية، على اعقاب خطواتها داعمة المذاهب الأربعة بل ومانعة لاي مذهب آخر بما فيها مذهب أهل البيت، وكأنما كان الدعم العباسي لهذه المذاهب الاربعة، قد اضفى عليها الشرعية وسلبها عن غيرها. وهو أمر يدعو الى الدهشة والحيرة.

وتحدث المقريزي(٥٤) عن احدى تلك الخطوات قائلاً:

«فلما كانت سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري ولّى بمصر أربعة قضاة وهم شافعي ومالكي وحنفي وحنبلي. فاستمر ذلك من سنة ٦٦٥هـ حتى لم يبق في مجموع امصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الإسلام سوى هذه المذاهب الاربعة، وعملت لأهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط في سائر ممالك الاسلام، وعودي من تمذهب بغيرها، وأُنكر عليه، ولم يول قاض ولا قبلت شهادة أحد، ولا قدم للخطابة والإمامة

والتدريس أحد ما لم يكن مقلداً لاحد هذه المذاهب، وأفتى فقهاء الامصار في طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها.

وكان صلاح الدين الايوبي قبل ذلك سعى سعياً جاداً للقضاء على المذهب الفاطمي الذي كان سائداً في مصر بمختلف الوسائل ومن بينها تأسيس المدارس الشافعية والحنفية ورعايتها ومدّها بكافة ما تحتاج اليه ورغّب الناس فيها، فهجروا باقي المذاهب»(٥٥).

نعود بعد ذلك فنقول انّ العباسيين حاربوا مذهب أهل البيت عليهم السلام حرباً ضارية لا هوادة فيها وسعوا لاجتذاب أئمة المذاهب الاخرى، ليكون ذلك عوناً لهم في تحقيق هدفهم.

فالمنصور العباسي كان يحاول من خلال رعايته للإمام ابي حنيفة وتقديمه على سائر الفقهاء أنْ يخلق منه شخصية مناوئة للإمام جعفر بن محمد الصادق وبالتالي لمذهب أهل البيت عليهم السلام، لكنه باء بالفشل ولم يستطع ان يتخذ منه تلك الحربة التي كان يرجوها، بل كانت لابي حنيفة مواقف محمودة حيال العلويين ربما كانت هي السبب الذي دفع بالمنصور الى تصفيته في آخر المطاف.

كما بذل هارون الرشيد جهوداً متلاحقة ومصرة على تهميش دور الامام موسى بن جعفر عليه السلام وتسليط الاضواء على مالك بن انس، فكان يتظاهر بالجلوس بين يديه بأدب ويأمر بطانته وندماءه باحترامه. وكان مالك قد ارتفع شأنه في زمن المنصور بعد محنته وضربه وطلب منه وضع

كتاب في الفقه يحمل الناس عليه بالسيف.

ومن هذا نستنتج «ان العامل الاساسي لتكوين الالتزام بمذهب معين، وعدم الترخص في استنباط الاحكام الشرعية انما هو السلطة، وانّ بقاء هذه المذاهب انما يكون بتلك الوسائل المشجعة، حتى كثر انصارها. ولو قُدّرت عوامل الانتشار لغير المذاهب الأربعة لبقي لها جمهور يقلدها، ولكانت مقبولة عند من ينكرها، ولكنها عدمت رعاية السلطة فمحيت من الوجود، إذ لا قابلية لها في ذاتها على البقاء بقوتها الذاتية.

وفاز المذهب الحنفي بتشجيع اكثر من غيره. فهو في العصر العباسي المذهب الذي ترجع الدولة اليه في مهمات التشريع، وكانت رئاسة القضاء بيد أهل الرأي، لم يشاركهم إلاّ القليل من سائر المذاهب»[٥٦].

غير انّ تلك الحملة الشعواء التي وُجّهت للمذهب الإمامي والتي اقترنت بالتصفية الجسدية لمعتنقي هذا المذهب وزعمائه وانصاره لم تؤتِ الأُكل التي كان العباسيون يريدونها. صحيح انهم حدّوا من انتشار هذا المذهب ونشروا المذاهب الاخرى على حسابه، لكنه ظل مذهباً قوياً راسخ الجذور، عظيم البناء، حصين الكيان، لأنه لم يكن مذهباً هشاً، ولا حالة غير طبيعية، ولا بذرة القت بها الريح بين أحضان الأرض.

انّ مذهب أهل البيت هو الغرسة التي غرسها رسول الله صلى الله عليه وآله بيديه المباركتين، وتعهدها علي عليه السلام بالرعاية، ورواها الحسين بن علي عليه السلام بدمه الطاهر العبق، وظلت تُرعى وتُبارَك من قبل أئمة أهل البيت واحداً تلو الآخر، حتى اينعت وأعطت ولا زالت تعطي ثمارها.

مذهب أهل البيت هو الامتداد الطبيعي الحقيقي للاسلام، والتفسير الصحيح الصادق للمبادئ والمفاهيم والقيم الاسلامية، ولهذا تهيأ له اناس صادقون مخلصون لحمل لواء الدفاع عنه والتصدي لكافة الهجمات الموجّهة اليه، وأقبل عليه اناس يميزون بين ما هو زَبَد وبين ما ينفع، وبين المبادئ الحقّة التي سعى الحاكمون لطمس معالمها والتعتيم عليها وبين الافكار والآراء التي كانت تبثّها الابواق الدعائية المرتبطة بالنظام الحاكم، وقيّض الله له اناساً يستميتون من اجل الحق ويبذلون كل ما لديهم في سبيل ان يصل هذا الحق الى مسامع الناس كافة بما فيهم السلاطين رغم اجواء الرعب المهيمنة والتي كان يُقتل فيها المرء لمجرد ان تُشمّ منه رائحة الولاء لعلي عليه السلام واولاده، ورغم الجهاز الاعلامي المضلل القوي الذي يمدّ اذرعه في كل مكان ولا سيما على يد وعاظ السلاطين والشعراء المتملقين الذين باعوا للحاكم دينهم فوهبهم المال والجاه والمقام.

اتهامات

وضمن المخطط العباسي الرامي الى تحجيم مذهب أهل البيت وضرب الشخصيات الاسلامية الموالية أو المؤمنة بهذا المذهب، راح العباسيون يغذّون من وراء الستار بعض الحركات المنحرفة أو الالحادية، ويتخذون منها وسيلة للقضاء على خصومهم.

إنّ فسح المجال للزندقة مثلاً كان مبعثه بالدرجة الرئيسية إشغال

الساحة الاسلامية بقضايا من هذا القبيل وصرف انظار العلماء المسلمين والأمة عن رؤية قبائح السلطة وسلبياتها وانتهاكاتها للدين وللثوابت الاسلامية.

انّ ارتفاع حمى الزندقة في العصر العباسي وطرح قضايا اخرى مثل قضية خلق القرآن، وما رافق ذلك من قتل وعقوبات فجيعة، وما صاحبها من صخب اجتماعي مدوّ، ورعب خانق القى بكلاله على البلاد الاسلامية، كان يراد منه بالدرجة الاولى إلهاء المسلمين عن قضايا اساسية يعانون منها وتشكل بمجملها خطراً كبيراً على الاسلام، وفي مقدمتها انحراف القيادة الاسلامية واستهتارها بالقيم والمبادئ الإلهية.

وكانت هناك أهداف أُخرى من وراء تلك الحركات التي كانت تهدد العقائد الدينية، هي ان تنمو هذه الحركات على حساب مذهب أهل البيت أيضاً، واقحام أئمة أهل البيت في معركة جانبية هم في غنى عنها، وإرباك افكارهم ومعتقداتهم من خلال طرح الآراء المضادة من قبل الزنادقة أو الدهريين خاصة وانّ تلك الآراء المضادة كانت مدعومة بشكل خفي من قبل السلطة، ولهذا كنا نشاهد ما كان يقوم به الملحدون الزنادقة وغيرهم من مناظرات طويلة ومستمرة مع الائمة لاسيما الصادق عليه السلام، وذلك بهدف افحام الائمة وتحقيق غلبة عليهم ولو في مناظرة واحدة، مما يعني الشيء الكثير بالنسبة للسلطة.

غير انّ الائمة عليهم السلام افشلوا المخطط العباسي بأكمله وتصدوا بقوة عجيبة لكافة الهجمات الفكرية المضادة وسجّلوا عليها نصراً حاسماً

ارعب السلطة من جهة، وجعلها في قفص الاتهام من جهة أخرى، ورفع من منزلة وشأن أئمة أهل البيت من جهة ثالثة.

هذا فضلاً عن انّ عناوين تلك الحركات قد اتُّخذت سلاحاً لضرب الشخصيات المناوئة للسلطة أو الناقمة عليها أو التي لا ترتاح السلطة اليها، بما فيها الشخصيات الشيعية والعلوية.

والعجيب أن نرى لفظ الزندقة يُطلق آنذاك بشكل عشوائي -ودون ان يكون له معنى واضح- على كل من يراد الوقيعة به. فأطلق على كل من كان مذهبه مخالفاً لمذهب أهل السنّة، وعلى من يناقش أحاديث الصحابة أو يردّها لعدم صحتها، وعلى المفكرين الذين يبحثون عن الحقيقة ويحاولون الوصول اليها وتسجيلها، وعلى كل أحد لا ترغب السلطة في بقائه(٥٧).

وعلى هذا الاساس فقد زُجَّ بالكثيرين في غياهب السجون وأُطيح برؤوس الكثيرين بتهمة التزندق، دون ان يكون لهؤلاء علم بافكار الزندقة والمقصود الحقيقي بها، وكان مبعث تلك الادانات والاتهامات ومن ثم العقوبات القاسية هو أهداف سياسة محضة وإنْ خالطها الحقد وحبّ الانتقام.

وفي أجواء تلك الاتهامات الباطلة التي تكمن خلفها أهداف سياسية ومذهبية، نجد المؤرخ الشهير محمد بن جرير الطبري صاحب المذهب الخاص به، يُتَّهم بالالحاد والرفض فرموه بالحجارة حتى مات. وقيل ان الحنابلة قد غضبت عليه انتصاراً لامامهم احمد بن حنبل. ودُفن الطبري

بداره ليلاً بعد أنْ منعوا من دفنه نهاراً. وقال ابن الاثير[٥٨] في ذلك:

«لو سئِل هؤلاء ـالذين اتهموه بالالحاد والرفض ـ عن معنى الرفض والالحاد ما عرفوه ولا فهموه، وهذه التهمة وجِّهت اليه من الحنابلة لأنه الّف كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء، ولم يذكر فيه اختلاف احمد بن حنبل، فقيل له في ذلك، قال: لم يكن من الفقهاء، فاشتد ذلك على الحنابلة وكانوا لا يحصون كثرة في بغداد».

السبئية والكيسانية

والطبري الذي وقع ضحية الاتهام الباطل، وقُتِل ظلماً بتهمة الالحاد والرفض، نراه يخلق في كتابه شخصية خيالية لا وجود لها نقلاً عن رواية معروفة عند علماء الرجال بالكذب والوضع، ثم ينسب اليه مبادئ التشيع!

وواضح أنّ هذه الفرية من ابتداع المعارضين لأهل البيت وفي مقدمتهم السلطة الحاكمة التي قلنا انها كانت تسعى وعلى جميع الاصعدة وبشتى الطرق لضرب هذا المذهب وتقزيمه وإسقاط ما لديه من اعتبار وشرعية.

ونحن لا نريد الخوض في تفاصيل هذا الموضوع الذي وجد فيه الحاقدون على الامامية ضالتهم، فجعلوا منه قميص عثمان، وراحوا يصوغون حوله الحكايات، ويضيفون اليه الاضافات، ويعرّضونه بالتحاليل والتفاسير التي تتوق اليها انفسهم، مبتعدين كل البعد عن روح

المنطق ولغة الانصاف. وكان الاولى بهم ان يتحروا الحقيقة وينشدوا الحق، ويتّصفوا بالموضوعية، لاسيما في ابحاث خطيرة من هذا النوع، لها انعكاساتها على المجتمع، ومواضيع حساسة كهذه تتعلق بقطاع كبير وعظيم من هذه الامة؛ انما نكتفي بالقول أنّ شخصية تاريخ الطبري ـ أي عبد الله بن سبأ ـ شخصية خيالية ووهمية ولا وجود لها على الاطلاق، دليلنا في هذا، الرواية عن سيف بن عمر المتَّفق على كذبه، والسلسلة المجهولة التي استند عليها الطبري.

ولا بأس ان نستشهد هنا بقول المحقق العربي الدكتور طه حسين الذي بحث قضية السبئية وابن السوداء (عبد الله بن سبأ)، فقال[٥٩]:

«أقل ما يدل عليه اعراض المؤرخين عن السبئية وعن ابن السوداء في حرب صفين، انّ أمر السبئية وصاحبهم ابن إلسوداء، انما كان متكلفاً منحولاً، وقد اخترع اخيراً حين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الاسلامية. أراد خصوم الشيعة ان يدخلوا في اصول هذا المذهب عنصراً يهودياً إمعاناً في الكيد لهم، والنيل منهم، ولو قد كان أمر ابن السوداء مستنداً الى أساس من الحق والتاريخ الصحيح، لكان من الطبيعي ان يظهر اثره وكيده في هذه الحرب المعقدة المعضلة التي كانت بصفين، ولكان من الطبيعي ان يظهر اثره في تكوين هذا الحزب الجديد الذي كان يكره الصلح وينفر منه، ويكفّر من مال اليه أو شارك فيه.

ولكننا لا نرى لابن السوداء ذكراً في أمر الخوارج، فكيف يمكن تعليل هذا الاهمال؟ أو كيف يمكن ان يغفل غياب ابن سبأ عن واقعة

صفين وعن نشأة حزب المحكمة؟ اما أنا فلا أُعلل الامرين إلّا بعلة واحدة، وهي ان ابن ابي السوداء لم يكن إلّا وهماً، وإن وُجِد بالفعل فلم يكن ذا خطر كالذي صوره المؤرخون، وصوروا نشاطه في أيام عثمان وفي العام من خلافة علي، وانما هو شخص ادّخره خصوم الشيعة للشيعة وحدهم، ولم يدخروه للخوارج»[٦٠].

ولم يكتف المناوئون للامامية وأهل البيت باسطورة السبئية ومحاولة تشويه المذهب الامامي بهذه الفرية التي يكذّبها التاريخ والنقاء الشيعي والقوة المبدئية التي تميز بها هذا المذهب وعُرفت بها شخصياته وزعاماته العقائدية والفكرية، بل اضافوا الى قطاع واسع ومهم من الشيعة فرية الكيسانية، فراحوا يتهمون بها الكثير من الشخصيات المعارضة الثائرة سواء كان ذلك في العصر الاموي أو العصر العباسي، مثل شخصية المختار بن عبيدة الثقفي الثائر الشيعي الذي انتقم لدم الامام الحسين بن علي عليه السلام ودماء صحبه التي أُريقت ظلماً وعدواناً بكربلاء في العاشر من محرم عام ٦١هـ.

وكانت فرية الكيسانية قد اختلقها الزبيريون والامويون عندما ثار المختار بن عبيدة الثقفي[٦١] بالكوفة ثأراً للامام الحسين عليه السلام، مما اغاظ الامويين وآل الزبير معاً الذين تضرروا بهذه الثورة. فالامويون وجدوه يثور في الكوفة التي هي مركز مهم من مراكز الامبراطورية الاموية ويبادر الى قتل كافة عملائهم وأدواتهم لاسيما اولئك الذين ساهموا في حرب الحسين عليه السلام وارتكاب تلك الفجائع التي لا زال يئن لها التاريخ. كما أنّ آل الزبير قد غضبوا عليه لانهم كانوا يريدون الكوفة ان تخضع

لنفوذهم بعد ان تقوّى أمر عبد الله بن الزبير وراح يتطلع الى اقتطاع البلاد الاسلامية واحدة بعد اخرى من ايدي الامويين. اضف الى ذلك انّ الأهداف التي اعلنها المختار لثورته وفي مقدمتها «العودة الى خلافة آل البيت» لم تكن تعجب الفريقين الاموي والزبيري لانهما كانا يجتمعان على العداء لأهل البيت عليهم السلام .

وانطلاقاً من ذلك فقد وجّه الجناحان سلسلة من الاتهامات الى المختار ووصموه ببعض الوصمات التي كان يترفع عنها، فراحوا يشيعون عنه انه يدعو الى إمامة محمد بن علي بن ابي طالب المعروف بـ «ابن الحنفية»، فضلاً عن مفتريات اخرى لا مجال لذكرها حاولوا من خلالها الطعن في دينه وشخصيته. وكانوا يهدفون من وراء طرح محمد بن الحنفية وعلى لسان المختار أو في إطار الكيسانية التي تُنسب اليه، شقّ صفوف الشيعة أيضاً وإضعاف الامام زين العابدين عليه السلام الذي تولى الامامة بعد مقتل ابيه الحسين عليه السلام وإبعاد الناس عنه بهذه الطريقة، فضلاً عما اشرنا اليه من محاولة ضرب المختار بهذه الطريقة وإبعاد الشيعة عنه بما نسبوه اليه من قوله بامامة محمد بن الحنفية والانحرافات العقائدية التي لا تمت الى الحقيقة بصلة.

والغريب في الأمر «إنّ من الّف وكتب عن الكيسانية وعن مقالاتها لم يذكر لنا عمن اخذ رواياتها وعمن نقل حديثها، كما لم يسند أحد منهم بحثه عنها الى راوٍ أو محدث سواء كان ذلك الراوي والمحدث مجهولاً، أو كان له اسم في دفاتر علماء الرجال، لاسيما انّ من الّف وكتب عنها، الّف وكتب بعد انقراضها وزوال المنتسبين اليها. فالنوبختي وهو اول من

كتب وألّف في الاديان والفرق لم يحدثنا في كتابه (فرق الشيعة) عمن روى اخبارها وعمن اخذ مقالاتها، ومثله فعل الشيخ المفيد والشهرستاني وابن حزم، فقد اكتفى الجميع بالنقل المجرد عن ذكر الراوي، في الوقت الذي كانوا جميعاً يعلمون بأمر الوضع والوضاعين، وانتشار الكذب والكذابين، واختلاق الحديث والروايات عن النبي صلى الله عليه وآله واستفحال ذلك في الفترة التي قيل ان الكيسانية ظهرت فيها»(٦٢).

ووجد العباسيون في تجديد القول بامامة محمد بن الحنفية أو الكيسانية ما يخدم مآربهم ولا سيما على صعيد اكتساب الشرعية، فزعموا انّ ابنه ابا هاشم كان الامام بعد ابيه، وانه قد اوصى قبل موته الى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب. ولم يكتفوا بهذا الادعاء فحسب، بل زوروا وصية قالوا ان الامام علي عليه السلام اوصى فيها بانتقال الامامة من ابي هاشم الى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ومن بعده الى ولده ابراهيم ثم الى اخيه ابي العباس ثم الى اخيه المنصور!

وأكّد العباسيون على إمامة ابن الحنفية بعد علي عليه السلام وانتقال الامامة اليهم عن طريقه حتى بعد انصرام مرحلة الدعوة واستيلائهم على السلطة، فقد كانوا بحاجة اليها ما داموا في البداية والاوضاع لم تستقر لهم تماماً.

لكن ما ان استقرت الدولة العباسية وتوطدت اركانها، شعروا انّ قضية الكيسانية قد حققت اهدافها، ولم تعد هناك حاجة اليها، بل وأنّ القول بها لم يعد في صالحهم إطلاقاً، فإذا كانت الخلافة عباسية والدولة مسماة باسم العباس بن عبد المطلب، فما علاقة ذلك بابن الحنفية؟. لهذا ارادوا حينئذ ان يقولوا للناس أنّ الخلافة كانت للعباس وليست لعلي أو لمحمد

بن الحنفية، وانّ الذي كانوا يقولونه من قبل انما هو تكتيك اقتضته ظروف الدعوة والعمل السري!

وعلى هذا الاساس جمع المهدي العباسي العباسيين والمقربين منه وقال لهم بالحرف الواحد انّ الامامة بعد النبي ﷺ كانت للعباس بن عبد المطلب، ثم لولده عبد الله بن العباس، ثم لولده علي ثم لولده محمد، وانّ كل من تولى الامامة بعد النبي ﷺ كان غاصباً لحق العباس وولده. ولم يكتف بذلك بل اعتبر الكيسانية التي انتسب جده محمد بن علي اليها مذهباً هداماً منحرفاً عن الدين والصواب، وزعم انّ ابا بكر وعمر وعلي وعثمان وكل من تولى الخلافة بعد الرسول ﷺ غاصبون لحقّهم متوثبين عليهم(٦٣)!

ونختم حديثنا على هذا الصعيد بكلمة قالها المستشرق فلهورن حول ما رمي به المختار الذي نسبوا اليه الكيسانية:

«ولما مني المختار بالهزيمة وادبرت عنه الدنيا، راحت الرواة تطلق سهاما على ذكر المختار بعد مقتله. في البدء كانت تذمه دون تشويه صورته، ولكنها راحت بعد ذلك في مرحلة متأخرة تنعته بنعوت املاها الحقد، وهذه النعوت نفسها هي التي تسود الصورة التي كونتها عنه الاجيال القادمة»(٦٤).

قمع العلويين

وواضح مما سبق من الكلام اي مصائب كانت بانتظار العلويين

وشيعتهم بعد استلام العباسيين للسلطة، وأي بلايا ستصبّ على رؤوسهم من ابناء العباس الذي كانوا يرون في العلويين والشيعة العقبة الكبرىٰ التي تعترض طريقهم، والخطر الكبير على كيانهم الذي اتخذ من الدين ستاراً لضرب الدين الاسلامي والكوادر الاسلامية النقية الحريصة على تطبيق الدين في حياة الأمة على كافة الاصعدة والمستويات.

لقد عانى العلويون والمحسوبون عليهم والموالون لهم الكثير في العهد الاموي وتعرضوا لعمليات الابادة والقتل الذي لم يكن يميّز بين الصغير والكبير ولا بين الظنّ والتهمة. وقد نُقل عن الامام محمد الباقر عليه‌السلام كلام اوجز فيه ما لقيه شيعة أهل البيت من الارهاب على يد السلطة الاموية:

«قُتِلت شيعتنا بكل بلد وقطعت الأيدي والأرجل منهم على الظنة. وكل من كان يذكر بحبنا والانقطاع الينا حُبِس ونُهب ماله وهدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد الى زمن عبيد الله بن زياد قاتل الحسين، ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة وأخذهم بكل ظنة وتهمة حتى ان الرجل يقال له زنديق احب اليه من ان يقال له شيعة علي»[٦٥].

والواقع ان الحجاج بن يوسف الثقفي يمثل ذروة الظلم الاموي والاضطهاد الوحشي، وقد «أُحصي من قتله صبراً سوى من قتل في عساكره وحروبه فوجد ١٢٠ الفاً. ومات وفي حبسه ٥٠ ألف رجل و ٣٠ ألف امرأة، منهن ١٦ ألف مجرّدة. وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء»[٦٦].

وبلغ من تجبر الحجاج وطغيانه انه سمع يوماً ضجة فقال: ما هـذا؟ فقيل له: المحبوسون يضجّون ويشكون ما هم فيه من البلاء، فالتفت الى ناحيتهم وقال: «اخسئوا فيها ولا تكلمون!»(٦٧) واضعاً نفسه موضع الله جل وعلا في مخاطبته لأهل النار.

وقد اصبح الحجاج قدوةً للعباسيين، وشخصية يتمنون لو كانت لديهم مثلها رغم انهم في الحقيقة قد فاقوا الحجاج والامويين في ما ارتكـبوه بحق الشيعة والعلويين وما اتخذوه من قرارات لابادتهم وما وضعوه من خطط وبرامج لاستئصال جذورهم. فهذا ابو جعفر المنصور كان يـقول: «والله لوددت اني وجدت مثل الحجاج بن يوسف حتى استكفيه امـري وأنزله أحد الحرمين!»(٦٨).

ومن قول المنصور هذا ندرك ماذا كان يبيت العباسيون للشيعة وماذا كانوا يريدون بهم. ولماذا هذا التأسف على عدم وجـود شـخصية لدى العباسيين كالحجاج؟ فهل لم يكن العباسيون يمتلكون حـقاً مـثل هـذه الشخصية؛ أم انهم كانوا يريدون من ذلك التأكيد على سيرهم على نفس النهج الاموي الحجاجي في التصدي للشيعة والعلويين؟

ونحن في الحقيقة سنتحدث عـن الارهـاب الذي مـارسه الخـلفاء العباسيون بحق العلويين لاحقاً عندما نتطرق الى حياة الخلفاء العباسيين الذين عاصروا الامام موسى بن جعفر عليه السلام، لكننا اردنـا هـنا ان نـقدم صورة ولو صغيرة وموجزة عن ذلك لكي تتكون لدى القـارئ الكـريم فكرة عامة عن الخلافة العباسية وعن الاوضاع التي اكتنفت حياة الائمة

المعصومين ولا سيما الامام الكاظم عليه السلام الذي نتشرف بالكتابة عنه.

فالاجراء الأول الذي تعامل به العباسيون مع عاصمة الشيعة ـ أي الكوفة ـ هو أنْ فرضوا عليهم جميعاً ودون استثناء ارتداء السوداء ـ شعار العباسيين ـ وهددوا من لم يمتثل لذلك بأقسى العقوبات. وقيل انّ أهل الكوفة اخذوا يسارعون الى صبغ ملابسهم باللون الاسود لانهم كانوا يدركون جدية التهديد العباسي. ولم تتمكن محال الصباغة من القيام بصبغ ملابس جميع الاهالي، فكان البقالون يبيعون المداد لهم ليسودوا به ملابسهم(٦٩).

ولم تكتف الدولة العباسية الفتية بهذا النوع من التعامل مع شيعة الكوفة، بل كان المنصور العباسي قد جزّء جنوده الى ثلاثة اجزاء، فكانوا يطوفون الكوفة في كل ليلة وهم ينادون: «من أخذناه بعد عتمة الليل، فقد احلّ دمه بنفسه»، كما كان اذا علم بميل احدهم الى الزعيم العلوي ابراهيم بن عبد الله بن الحسن، بعث برجاله الى بيته، حتى اذا غسق الليل وهدأ الناس، تسلّق هؤلاء الرجال سلماً وتسللوا الى داره فقتلوه، وحملوا خاتمه الى الخليفة(٧٠).

والمنصور قد جدّ في مطاردة العلويين لاسيما ابناء الحسن فقبض على عبد الله بن الحسن واخوته وابناء عمومته وعدد كبير من العلويين فزجّهم في غياهب السجن الذي قيل انه كان طامورة لا يعرفون فيها الليل من النهار حتى مات اكثرهم فيه وقتل البقية الباقية من آل الحسن بالسيف. كما ابتدع المنصور العباسي طريقة في قتل أهل البيت عليهم السلام

وشيعتهم، وهي طريقة تعبّر في الواقع عن مدى الحقد الذي كان يحتدم في صدره على العلويين من جهة وعن مدى قسوته وغلظة قلبه من جهة اخرى. وقد حذا حذوه في هذه الطريقة بقية الخلفاء العباسيين الذين جاءوا من بعده.

وتتمثل تلك الطريقة الرهيبة في دفن العلويين والشيعة وهم احياء في اسطوانات قصورهم وعماراتهم، فيظل العلويون بين هذه الاسطوانات يصارعون الموت بمرارة حتى يتغلب عليهم آخر المطاف فيلفظون انفاسهم بشكل يمزّق القلوب ويثير العبرات.

وفاق المنصور في غلظته وشدته احفاده من بعده لاسيما هارون الرشيد وجعفر المتوكل فقد كان الحقد على آل البيت وانصارهم يأكل قلوبهم ويسري مع الدم في اوصالهم، فراحوا يتتبعون آثارهم ويفتّشون عنهم في كل مكان ويلقون القبض على كل من ثبت أو لم يثبت ولاءه لهم، فلا يعرف أحد عن هؤلاء المعتقلين شيئاً.

وبلغت قسوة البطش العباسي من الشدة بحيث اضطر آل علي الى الاختفاء عن الانظار والعيش متنكرين في اماكن بعيدة عن اعين السلطة وجواسيسها المبثوثين في كل مكان، بل واتخذ الكثير منهم اسماء مزوّرة انتحل شخصيات بديلة كل ذلك امعاناً في التستر ودفعاً لاحتمال تعرّف السلطة عليهم. وقد عاشوا في ظل تلك الاوضاع البعد عن الوطن والأهل والغربة بأقسى انواعها حيث كانوا غرباء حتى على انفسهم، فضلاً عن المشاق التي تحملوها بعد امتهانهم في تلك الظروف المؤلمة للمهن

القاسية الصعبة التي لم يألفوها في حياتهم كالسقاية والاحتطاب والاعمال اليدوية المجهدة الاخرى. ومن هذه الشخصيات العلوية المتنكرة القاسم بن الامام الكاظم وعيسى بن زيد بن علي حيث قيل فيه انه كان أفضل من بقي من أهله ديناً وعلماً وورعاً وزهداً وتقشفاً، وأشدهم بصيرة مع علم كثير ورواية للحديث، فانه اختفى عن اهله وصار ينقل الماء ليكسب به قوته(٧١).

وكانت السلطة العباسية مصرة غاية الاصرار على الاستمرار في سياسة المواجهة الكاملة للعلويين وشيعتهم على كافة الجبهات وفي جميع الحقول، حتى في المناطق البعيدة عن مركز الخلافة أو مراكز نشاط وتجمع العلويين كالكوفة والحجاز. فقد صدر مرسوم من بغداد الى مصر يمنع تشغيل العلويين ولا يسمح لاي علوي ان يركب فرساً أو يسافر من الفسطاط الى مناطق اخرى، وإذا كانت بين يدي علوي وبين احد من سائر الناس خصومة فعلى الوالي أو القاضي ان يلزم جانب خصم العلوي ويأخذ بقول خصمه عليه بدون بينة!(٧٢).

فهل رأيت حكما ينضح بالعدل كهذا الحكم؟ وهل رأيت عدلاً مزدهراً كهذا العدل؟ وهل رأيت حقوقاً مصانة ومرعية كحقوق العلويين؟

انها في الحقيقة مأساة مروعة وطامة كبرى تدعو الى مزيد من التأمل والوقوف، والى إعادة النظر بشكل جدي في المواقف التي اتخذها البعض وللأسف لا على أساس الحق ولا على أساس التاريخ ـ رغم ما فيه من تزييف ـ بل على أساس التقليد والتعصب اللذين يقذفان في اغلب

الاحيان بصاحبهما في مهاوي الخطأ والافتراء والادانة البعيدة عن المنطق والعقل والحقائق التاريخية الدامغة.

المتملقون والانتهازيون

في ظل الواقع المريض الذي كانت تعيشه الجماهير الاسلامية وغياب الوعي الديني والسياسي وتراكم ضباب الشبهات سواء كان في العصر العباسي أو الأموي، كان من السهل على سلاطين الدولتين شراء الذمم والضمائر وابتياع الدين والعقيدة، وزجّ كل ذلك في المعركة التي كانوا يخوضونها ضد الإسلام بصورته الاصيلة وشكله النقي ومبادئه التي تقوم على العدل والمساواة واحترام الانسان كخليفة لله في هذه الارض.

ففي مثل تلك الاجواء التي قدم لنا الشعبي نموذجاً من نماذجها عندما قال: «انه انكر على قاص حدّث عن النبي ﷺ ان الله خلق صورين، في كل صور نفخة، فقال له: اتق الله يا شيخ ولا تحدث بالخطأ إن الله لم يخلق إلّا صوراً واحداً. فقال القصاص للشعبي: يا فاجر انما حدثني فلان عن فلان وترد علي؟ ثم رفع نعله فضربه. وتتابع القوم عليه بالضرب فما خلص نفسه حتى حلف ان الله خلق ثلاثين صوراً في كل صور نفخة»(٧٣)، وفي مثل تلك الأجواء التي فيها «حدث احدهم بحديث عن النبي ﷺ انّ من بلغ لسانه ارنبة انفه لم يدخل النار، فلم يبق أحد منهم إلّا واخرج لسانه يومئ به الى ارنبة انفه»(٧٤)، من الطبيعي ان يتفنن السلاطين في الدين كيفما يشاءون، ويتخذون من المحسوبين على علماء

الدين وفقهائه الذين باعوا الآخرة بالدنيا وسيلة ناجحة وفاعلة لتمرير اغراضهم ومراميهم، وتقديم الدين للناس وفق الصورة التي يريدونها، وعرض مبادئه ومفاهيمه، مشوّهة مقلوبة كي يضفوا من خلالها الشرعية على ما يمارسونه من اعمال وما يتخذونه من قرارات لا تنسجم مع المبادئ والمفاهيم الاصيلة.

فاذا كان باعة الدين والانتهازيون يزوّرون الاحاديث عن الرسول صلى الله عليه وآله لضرب علي عليه السلام والسمو بشخصية معاوية، مثل: «ان الله اصطفى محمداً وجبرائيل ومعاوية»(٧٥).

و «روى الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: كنت عند النبي صلى الله عليه وآله اذا اقبل العباس وعلي، فقال: ان سرّك ان تنظري الى رجلين من أهل النار فانظري الى هذين الرجلين قد طلعا، فنظرت فإذا العباس وعلي، فقال: يا عائشة انّ هذين يموتان على غير قبلتي»(٧٦)، ضاربين عرض الجدار بالاحاديث الصحاح المروية عن رسول الله صلى الله عليه وآله والتي اتفق عليها كافة المسلمين بجميع مذاهبهم في حق الامام علي عليه السلام، وضاحكين على ذقون الأمة الاسلامية التي تتفق على الاقل في علي عليه السلام كخليفة رابع للمسلمين، فانّ الخلفاء العباسيين فاقوا الامويين في هذا المضمار بحيث جمعوا حولهم شلّة عريضة وطويلة من الفقهاء والعلماء ورجال الدين الذين لم يعودوا يحملوا من هذه العناوين سوى الاسم فحسب، كي يعطوا نظرة عنهم للامة ـ التي تعيش التخبّط والضبابية والمغلوبة على امرها في أغلب الاحيان ـ انهم حماة الدين وزعماء الإسلام والقادة الشرعيون للامة، ولكي يطبعوا من خلال مباركاتهم

وفتاواهم اجراءاتهم وقراراتهم وممارساتهم بطابع الشرعية!

ولم تقف فتاوى مثل هؤلاء الفقهاء ولا احاديثهم الموضوعة ولا مباركاتهم لاعمال السلطة المتعارضة مع الإطار الإسلامي العام عند حد معين، بل نجدها تدور حيثما دارت مصلحة الخليفة وعلى اهبة الاستعداد للانطلاق من فم الفقيه أو القاضي أو الواعظ العباسي بمجرد ان تكون هناك ضرورة أو عندما يجد البلاط العباسي حاجة اليها.

كمثال على ذلك: انّ هارون الرشيد سبق أن اعطى يحيى بن عبد الله بن الحسن شقيق محمد النفس الزكية عهد الامان وكان عهداً مكتوباً بأغلظ الايمان وأشدّ الالتزامات وأوثق العهود، إلّا انه زجّ بيحيى بالسجن خلافاً لما تعهد به، ثم عزم على قتله. لكنه أراد ان يلتف على عهد الامان قبل ان يخطو مثل هذه الخطوة، ولا يوفر له هذا الالتفاف ومن ثم شرعية القتل سوى فقهاء البلاط.

وبعث الرشيد على عدد من فقهائه بحضور يحيى بن عبد الله نفسه، وابتدأ بالقاضي محمد بن الحسن فناوله ذلك العهد وطلب منه ابداء وجهة نظره فيه. ويبدو أنّ هذا القاضي خشي ان يساير الخليفة اكثر مما سايره حتى الآن، أو ربما كان ذلك تكتيك من الخليفة، فقال: «هذا امان مؤكد لا حيلة فيه».

وابدى الرشيد غضبه من ذلك الموقف، وقذف بالامان على ابي البحتري وهب بن وهب الذي ادرك انّ عليه ان يُمضي رأي الخليفة والّا حياته يتهددها الخطر، فنظر فيه لحظة، ثم قال بعد أن مزّق آخر ورقة

دين كانت لديه إن لم يكن قد مزّقها حتى تلك اللحظة.

«هذا باطل منتفض قد شقّ عصا الطاعة وسفك الدم فاقتله ودمه في عنقي!».

ولا تدري اي عنق كانت لديه بحيث يحتمل هدر دم هذا العلوي الذي حصل على الامان من الرشيد، وما هو المسوّغ الشرعي الذي اعتمده في اباحة دمه، وهل فكر ملياً مع نفسه وانصاع لصوت الدين والضمير، ام انّ حبّ الدنيا والخوف من الخليفة لا من الله قد سلبا منه أي فرصة للتفكير قبل ان يصدر مثل هذا الحكم الجائر والفتوى التي تغتال العدل وتقبر الحق.

وأبدى الرشيد سروره لتلك الفتوى وانبسطت اساريره وقال لأبي البحتري:

«أنت قاضي القضاة وأنت أعلم بذلك»!

ولماذا لا يكون قاضي القضاة وقد اثلج بفتواه صدره وحقق هدفه وباع له دينه وضميره وانسانيته؟

وشعر ابو البحتري ان الدنيا لا تكاد تسعه وهو يسمع ذلك الاطراء والمديح السلطاني، فما كان منه إلّا أن يمزّق عهد الامان بيديه، ليأخذ القضية برمتها على عاتقه، ويسحب المسؤولية بأسرها عن عنق الخليفة الى عنقه الذي تحمل منذ البداية دم ذلك العلوي الذي لا حول له ولا قوة!

ولم ينته ذلك المجلس عند هذا الحد، بل نهض انتهازي آخر من آل الزبير كان ممن قربه الرشيد اليه، فصاح في وجه يحيى: «شققت العصا،

وفارقت الجماعة، وخالفت كلمتنا وأردتَ خليفتنا»![77].

وكأنما أراد بهذه الكلمات ان يطلق رصاصة الرحمة على يحيى ويعبّر بهذا الاسلوب المتملق عن ولائه وحبّه للخليفة الذي أطربتهُ هذه الكلمات وإن كان يدرك اصطناعها.

ولم يكن الامر يقتصر على انتزاع الفتاوى من قضاة وفقهاء البلاط لصالح الخليفة العباسي قط، بل كانت حتى نساء الخلفاء يتخذن منهم وسيلة لاصدار الفتاوىٰ المنسجمة مع الذوق النسوي العباسي.

فقد اهدت زبيدة بنت جعفر زوجة هارون الرشيد لابي يوسف القاضي حُقّ فضّة وحُقّي طيب وكأس ذهب وكأس فضة وغلمان وتخوت من ثياب وحمار وبغل، لأجل فتوى افتاها توافق مرادها![78].

وهبطت تلك الجوقة من الوعاظ بالاحاديث النبوية الى المستوى الذي يخدم لهو الخلفاء واهتماماتهم التافهة. فعندما وجه ابو البحتري القاضي ـ الذي سبق الحديث عنه ـ ولع الرشيد بالحمام واللهو به، سارع الى اخراج حديث من جيبه ليسعد به قلب خليفة المسلمين وليضفي على لهوه صفة الاستحباب، فقال: «روى ابو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله: لا سبق إلّا في خفّ أو حافر أو جناح»!

فأعطاه الرشيد جائزة سنية على ذلك الحديث المختلق، وهو ما كان يسعى اليه من ذلك الاختلاق المشين.

ولما خرج قال الرشيد: والله لقد علمت انه كذاب[79]!!

ولا ندري لماذا يجزيه الرشيد ويخلع عليه اذا كان يعرف انه كذاب،

وهل يجوز لخليفة المسلمين ان يسمع احداً يكذّب على رسول الله ثم يثيبه؟

والحقيقة انّ الخلفاء قد سلكوا مختلف السبل لكسب ولاء قضاة وفقهاء المسلمين وشراء ضمائرهم، ولم يتركوا اسلوباً إلّا واتبعوه معهم من أجل تطويعهم وادخالهم في سلك حاشية البلاط، بما فيه اسلوب الاغراء وأسلوب الارهاب.

فالمهدي العباسي استدعى يوماً شريك القاضي وقال له:

ـ لابد ان تجيبني الى خصلة من ثلاث خصال.

فقال شريك:

ـ وما هنّ يا أمير المؤمنين؟

فقال المهدي:

ـ إما ان تلي القضاء، أو تحدث ولدي وتعلمهم، أو تأكل عندي اكلة.

ففكر شريك، ثم قال:

ـ الأكلة اخفهنّ على نفسي.

فاحتبسه وقدم الى الطباخ ان يصلح له ألواناً من المخ المعقود بالسكر الطيرزد والعسل.

فلما فرغ من غذائه قال القيّم على الطبخ للمهدي:

ـ يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة ابداً.

فكان ما توقعه صاحب المطبخ، فقد حدّثهم شريك بعد ذلك، وعلّم اولادهم، وولي القضاء لهم.

وقد قال شريك يوماً للجهبذ[٨٠] الذي ضايقه في النقص وقال له انك لم تبع بزّاً[٨١]:

ـ بلى والله لقد بعت اكبر من البز، لقد بعت ديني![٨٢]

وهكذا يدرك شريك القاضي انه قد باع دينه للخليفة وانه أصبح أداة في يده يحركها بالاتجاه الذي يريد والذي يتعارض في أغلب الاحيان مع ارادة الدين.

ورغم هذا فلم يكن الخلفاء يحترمون هؤلاء الوعاظ والقضاة لانـهم يدركون انهم إنما يخدمونهم عن طمع وخوف لا عن ولاء واعتقاد، لهذا نراهم في اغلب الاحيان يقرّعونهم بالفاظهم المشينة ولا يقيمون لهم وزناً لأتفه الاسباب.

ففي احدى المرات استدعى المهدي شريك القاضي بعد ان سمع انه لا يرى الصلاة خلفه ـ أي خلف المهدي ـ وقال له في جملة ما قاله: يا ابن الزانية!

فاضطرب شريك غاية الاضطراب وهو يسمع مثل هذا الكلام النابي من الخليفة، فقال له:

ـ مه مه يا امير المؤمنين، فلقد كانت صوامة قوامة.

فاشتد غضب المهدي وصرخ قائلاً:

ـ يا زنديق، لأقتلنك[٨٣].

ويبدو أن المهدي قد سئم من شريك آخر المطاف لانه لم يستسلم اليه غاية الاستسلام كما فعل غيره، بل كان يبدي احياناً بعض الآراء التي لا

تروق للذائقة المهدية. لهذا أراد ان يعزله عن القضاء بـذريعة تـقنع بـها نفسه، رغم كل ما كان يؤديه اليه من خدمات، لهذا قال له يوماً:

ـ ما تقول في علي بن ابي طالب؟

فقال له:

ـ ما قال فيه جدك العباس وعبد الله.

قال المهدي:

ـ وما قالا فيه؟

فقال:

ـ فاما العباس فمات وعلي عنده أفضل الصحابة. وكان يـرى كـبراء المسلمين يسألونه عما ينزل من النوازل، وما احتاج هو عليه السلام الى حـتى لحق بالله. واما عبد الله فانه كان يضرب بين يديه بسفين، وكان في حروبه سيفاً منيعاً وقائداً مطاعاً، فلو كانت امامته على جور، كان أول من يقعد عنها ابوك لعلمه وفقهه في أحكام الله. فسكت المهدي. ولم يمض بعد هذا إلّا قليلاً حتى عزل شريكاً[٨٤].

وعلى صعيد محاولات العباسيين لاستمالة فقهاء المسلمين لاسـيما أئمة المذاهب اليهم، نجد المنصور العباسي يقرب اليه الامام ابا حنيفة، ثم يطلب منه ان يهيئ للامام الصادق عليه السلام من المسائل الشداد التـي يـعجز الامام الصادق عن الاجابة عليها، لأنّ الناس قد فُتنوا بالصادق على حدّ تعبير المنصور العباسي.

وواضح أنّ المنصور كان يهدف من وراء تلك الخطة ـالتي يمكن ان

نصفها بالتآمرية ـ اسقاط الامام الصادق عليه السلام في اعين الناس بعد أن ملأ تلك العيون واستقطبها مع القلوب من جهة، وتسليط الاضواء على ابي حنيفة في حالة نجاح الخطة، وفسح المجال لشخصيات من غير أهل البيت لتشق طريقها في أوساط الأمة وتولي شؤونها الدينية من جهة اخرى، وهذا يعني من وجهة نظر السلطة فسح المجال لها ـ أي للسلطة ـ للعمل ما يحلو ويطيب دون أنْ تُنبَس كلمة اعتراض أو تُطلق صرخة احتجاج.

ورضخ الامام ابو حنيفة لطلب المنصور، وهيأ للامام الصادق اربعين مسألة معقّدة من مسائل الدين والفقه. ثم دخل الى مجلس المنصور، فوجد الامام الصادق قد أُحضِر الى ذلك المجلس، فدخلت الى ابي حنيفة من الهيبة للصادق ما لم يدخله للمنصور. وأخذ بعد ذلك يطرح مسائله الاربعين واحدة واحدة حتى اتى عليها كلها، فأجاب الصادق على كافة تلك المسائل دون ان يخلّ بمسألة منها[٨٥].

ولم يتمكن المنصور من تحقيق ما كان يطمح فيه من ابي حنيفة، ولم يستطع ان يتخذ منه تلك الحربة التي كان يريدها ضد أهل البيت والامام الصادق على وجه الخصوص رغم كافة ما احاطه به من رعاية وعناية وتقديم على كثير من الفقهاء. وقد أُسقط في يد المنصور تماماً عندما دوّى صوت ابي حنيفة ليقول: «ما رأيت أعلم من جعفر بن محمد وأنه اعلم الامة»[٨٦].

وكان ابو حنيفة قد ادرك العصرين الاموي والعباسي، وتذمّر من خلفاء

هذين العصرين، وله شيء من الميل نحو العلويين. وكان قد تتلمذ على يد الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام واعترف له بالعلم والفضل، ومنها قوله: «والله ما رأيت أفقه من جعفر الصادق»(٨٧). وكان قد جلده يزيد بن عمر بن هبيرة ـ الوالي العراقي الاموي في عهد مروان بن محمد ـ مائة وعشر سوطاً لرفضه تولي قضاء الكوفة(٨٨). كما سبق له ان افتى بأن خروج زيد بن علي على الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك خروج شرعي يجب ان يؤازر من كافة المسلمين(٨٩).

اما الاسلوب الذي اتبعه العباسيون مع الامام مالك بن انس، فقد اتّسم بالشدة والغلظة، فضربوه بالسياط بأمر من المنصور العباسي وضيّقوا عليه حتى لان لهم آخر المطاف، فأصبح مقدماً في الدولة محفوفاً بالرعاية، وأصبح بابه تزدحم عليه الناس وداخل الامراء تهيّب منه. ثم اذعن لأمر السلطة العباسية بتأليف كتاب «الموطأ» بما ينسجم مع ذوقها لتحمل الناس عليه بقوة السيف(٩٠).

وكان من نتائج الضغوط العباسية على الامام مالك هو مساواته للامام علي عليه السلام مع سائر الناس. فهو يقول: انّ أفضل الأمة الخلفاء الثلاثة. ثم يقف ويقول: هنا يتساوى الناس. فهو لا يرى لعلي ميزة عن سائر الصحابة، كما انه لم يرو عن علي في «الموطأ»(٩١). وهل يمكن له ان يرو عن علي أو يساويه مع الخلفاء على الاقل وقد كان مفروضاً عليه ان يكتب ما يريدون منه لا ما يريد هو، وهل يجرؤ ان يسطّر أو يجهر بما يعتقده ويؤمن به في قرارة نفسه؟

باعة الكلمة

في الواقع انّ الكلمة سلاح ذو حدين: حدّ الحق وحدّ الباطل. فبامكان الكلمة ان تدافع عن الحق وتجهر به وتدعو اليه وتبلّغ له فتؤدي بذلك الدور المطلوب منها في تبيان الحقيقة وتقديمها على صورتها الجلية الواضحة الى الامة. وبامكانها أيضاً ان تحرف الحقيقة وتشوّه الحق وتقلب الصور وتعكر الأجواء.

الكلمة نعمة إلهية مثل باقي نعمه سبحانه ولا تملك سوى الانصياع لارادة الانسان، فهي طوع بنانه ولسانه، ومستعدة لاداء ما يريده منها دون أي تلكؤ أو تردد، في الخير أو الشر، في المدح أو الهجاء، في الصدق أو الكذب، في الحقيقة أو الزيف.. فالانسان هو الذي يوجّه الكلمات، وهو الذي يتفنن بأدائها، وليس امام الكلمات سوى الامتثال والطاعة.

وقد اساء الكثير من الناس الى نعمة الكلمة فزجّوا هذه النعمة الالهية التي كانت من ميزّاتهم عن الحيوانات، في خدمة الأهداف الشريرة والمصلحة الشخصية المتضخّمة على حساب المصلحة الاجتماعية، فراحوا يوجّهون الكلمات قولاً وكتابة نحو الجهة التي تعزّز معسكر الباطل وتضعّف معسكر الحق، لتتحول الكلمة في آخر المطاف الى سلاح لضرب الحق ومعسكره وجنوده بدلاً من ان تدافع عنه وتشد ازره وترفع شعاره.

ومن الطبيعي ان نجد باعة كلمة الحق يتقاطرون على السلاطين

ويتهافتون على الحكام الذين غرتهم الدنيا وخدعتهم الحياة البراقة وفتنتهم بهارج المُلك، كي يشتروا بالكلمات المتملقة والالفاظ الرنّانة الخالية من الروح الجوائز والخلع والهدايا، ليحولوا انفسهم بهذه الطريقة الرخيصة الى ادوات في خدمة السلطان الجائر والى أبواق مضللة تبارك له لا شرعيته وظلمه وتعسفه.

ومن البديهي انْ يضغط المتملقون والانتهازيون على الأوتار الحساسة وأنْ ينفذوا الى قلوب الحكام عبر نقاط ضعفهم، ويتحدثوا باللغة التي يود هؤلاء الحكام ان يترجموا بها ما يدور في أذهانهم من أفكار.

فهذا المهدي العباسي يدخل عليه مروان بن ابي حفص فينشده قصيدة يحاول انْ يقلب فيها الحقائق، فيعطي حق العلويين للعباسيين، ويضع العلويين في موضع الطامع الذي حاول انْ يغمط العباسيين حقوقهم ويسعى للتشويش على تلك الحقوق:

هل تطمعون من السماء نجومها   بأكفكم أو تسترون هلالها
او تدفعون مقالة عن ربكم   جبريل بلّغها النبي فقالها
شهدت من الانفال آخر آية   بتراثهم فأردتم إبطالها

وعندما سمع المهدي تلك القصيدة التي قيل انها كانت من مائة بيت، تزاحف من صدر مجلسه، وأخذه الفرح، ثم قال له:

ـ كم هي؟

قال الشاعر:

ـ مائة بيت.

فأمر له بمائة الف درهم، اي الف درهم عن كل بيت[٩٢].

ولا ندري هل كانت آخر آية في سورة الانفال تنص على تراث العباسيين؟ ثم إلاّ يعدّ هذا تحريفاً للقرآن وتلاعباً بآياته؟ ولماذا يصمت العباسيون عن ذلك التحريف والتلاعب، بل ولماذا يشجعون عليه بمثل هذه الاموال التي هيى حقّ كافة المسلمين؟

ويزداد مروان بن ابي حفصة في تملقه وكذبه وتزويره للحقائق كلما ازداد الغدق العباسي عليه وكلما امتلأت جيوبه من دنانيرهم. فدخل على هارون الرشيد في سنة ١٨١ هـ فأنشده قصيدة اخرى من قصائده اورد الطبري منها ٢٢ بيتا[٩٣]، ونحن نورد هنا مقتطفات منها، لكي يطلع القارئ الكريم على ما تنضح به من رياء وتملق وكذب:

وسُدَّت بهارون الثغور فأُحكمت

به من امور المسلمين المرائرُ

لقد ترك الصفصافَ هارونُ صفصفاً

كأن لم يُدَمِّنْهُ من الناسِ حاضرُ

الى وجهه تسمو العيونُ وما سمت

الى مثل هارونَ العيونُ النواظِرُ

اذا فقد الناسُ الغمامَ تتابعت

عليهم بكفيك الغيومُ المواطرُ

أُمورٌ بميراث النبي وليتها

فأنت لها بالحزمِ طاوٍ وناشِرُ

وأبـــناء عـــباسٍ نــجوم مــضيئةٌ
إذا غـــاب نــجمٌ لاح آخــرُ زاهــرُ
عَــلَيَّ بـني سـاقي الحـجيج تـتابعت
اوائـــــل مــن مــعروفكم وأواخــرُ
فأصـبحتُ قـد ايـقنتُ أنْ لستُ بـالغاً
مـدى شكـر نـعماكـم وانـي لشـاكـرُ
ومـــا النـــاس إلاّ واردٌ لحـــياضكم
وذو نَـــهَلٍ بـــالريّ عـــنهن صـــادرُ
ابـــوك ولي المـــصطفى دون هـــاشم
وإنْ رَغِــمَت مـن حـاسديك المـناخرُ

وهكذا نرى كيف يعزف على الوتر الحساس مرة اخرى في البـيت الاخير ويدّعي احـقية العـباس بـن عـبد المـطلب بـخلافة المـصطفى الامين صلى الله عليه وآله دون بني هاشم كافة، كما انه اكّد أيضاً على مـا لقـيه مـن معروف ـ أي من جوائز وخلع ـ من العباسيين، ليذكّر الرشيد بأن يـديم عليه ذلك المعروف وتلك الهبات السخية.

ولم يخيّب الرشيد ظنّه، فأعطاه ٥ آلاف دينار، وكساه خلعته، وأمر له بعشرة من رقيق الروم، وحمله على برذون من خاص مراكبه.

ويرى الدكتور طه حسين انّ مروان بن ابي حفصة كان يـعبد المـال ويقدسه، ولهذا لم يكن مدحه للعباسيين نابعاً من حبه لهم أو اعـترافـه بفضلهم وأحقّيتهم، وانما كان يزدريهم فيما بينه وبين نفسه، وانما أراد ان

يفوز بتلك الطريقة السهلة بالاموال. كما يؤكد طه حسين لو قُدّر للامويين او للعلويين ان تكون لهم دولة لسار مع دولتهم سيرته مع الدولة العباسية[٩٤].

ولم يفتأ الشعراء المتملقون يتزلفون الى العباسيين من خلال حملتهم على آل بيت الرسول ﷺ وسحب الشرعية التي لهم واعطائها للعباسيين. فهذا بشار بن برد المعروف بالزندقة والالحاد والذي لا يعترف وفقاً لمبدئه هذا لا بالعباسيين ولا بالعلويين لم يتورع هو الآخر عن الادلاء بدلوه، ما دام في ذلك المال والجاه، فوقف أمام المهدي لينشد:

يا بن الذي ورث النبي محمداً   دون الأقارب من ذوي الارحام
الوحي بين بني البنات وبينكم   قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فضيلة   نزلت بذلك سورة الانعام
انّى يكون وليس ذاك بكائن   لبني البنات وراثة الاعمام[٩٥]

فيجزيه المهدي عن هذه القصيدة ٧٠ الف درهم.

وهكذا نرى انّ اموال بيت المال الاسلامي توزَّع بدون حساب على هؤلاء الشعراء قتلة الكلمة ومغتالي الحقيقة، لمجرد انهم يؤكدون على حق ليس لهم، ويطرون على صفات ليست فيهم، وينالون من أُناس آخرين كان الاحرى انْ يُدافع عنهم. وهكذا نرى انّ ذلك الشاعر يستند الى آية في سورة الانفال، وهذا الى آية في سورة الانعام تُعطي الحق لبني العباس وراثة النبي ﷺ ولا تعطيه لابناء فاطمة عليها السلام الذين هم ابناء علي عليه السلام في نفس الوقت، وكأنما اصبحت آيات القرآن الكريم العوبة

في ايدي شعراء البلاط والزنادقة الذين لا يعترفون حتى بخالق القرآن الكريم فكيف بالقرآن وآياته؟!

ويعزف شاعر متملق آخر يُدعى مروان بن ابي الجنوب على نفس الوتر بين يدي المهدي فيقول:

لكـــموا تــراث مــحمد   وبــعدكم تشـقى الظـلامة

حتى ينتهي الى القول:

مـــا للـــذين تـنحلوا   مـيراثكـم إلاّ النـدامـة

فيخلع عليه المهدي اربع خلع، ويـنثر ثـلاثة آلاف ديـنار ويأمـر بالتقاطها، ويعطي عشرة آلاف درهم، ويـعقد له عـلى ولايـة البـحرين واليمامة(٩٦).

ولم يقتصر مدح الشعراء وتملقهم على الخلفاء العباسيين، بـل امـتد ليشمل وزراءهم وامراءهم وأصحاب النفوذ والقوة عندهم. فنجد الشاعر ابا نؤاس يتزلف الى يحيى بن خالد البرمكي من خلال قوله فيه:

سألتُ الندى هـل أنت حـرّ فـقال لا
ولكــنني عــبد ليــحيى بـن خـالدِ
فــقلت شــراءً قــال لا بــل وراثـةً
تـــوارثــني مــن والد بــعد والدِ

في حين قال شاعر آخر في البرامكة:

اذا كنت مـن بـغداد فـي الف فـرسخ
شممت نسـيم الجـود مـن آل بـرمك

بينما راح مغني البلاط العباسي ابراهيم الموصلي يغني للاثنين معاً اي لهارون السلطان ويحيى الوزير:

المتر انّ الشمس كانت مريضة
فلما ولى هارون اشرق نورها
تلبست الدنيا جمالاً بملكه
فهارون واليها ويحيى وزيرها

ومن هذا نفهم انّ هؤلاء الشعراء واولئك القضاة والوعاظ وغيرهم من الكتاب والمؤرخين كانوا سبباً من أسباب تمادي العباسيين في غيّهم وانحرافاتهم وتجرّئهم على انتهاك الحقوق وضرب العدالة وانزال المزيد من الظلم بالعباد وفي مقدمتهم آل بيت الرسول ﷺ وشيعتهم السائرين على خطاهم.

الفصل الثالث

ملامح شخصية الامام موسى بن جعفر عليه السلام

الامام شخصية من الطراز الاول

إن ايّ امة بحاجة الى قيادات كفوءة وزعامات واعية ومخلصة تأخذ على عاتقها الانطلاق بالأمة نحو تحقيق أهدافها الخيرة وطموحاتها السليمة وآمالها التي تدغدغ قلبها، وتسير بها عبر اقصر الطرق وأسلمها من أجل انْ تحوّل تلك الأهداف الى حقيقة تلمسها الأمة وتعايشها وتصر على الالتفاف حولها باعتبارها ثمرة جهادها الطويل ومحصلة عملها الدؤوب ونتاج تلاحمها مع القيادة التي حملت همومها وآلامها وقطعت فيافي الطريق الطويل وداست على الادغال والعواسج حتى وصلت بها الى ما وصلت.

والأمة الاسلامية باعتبارها سيدة الامم لكونها تعتنق سيد الاديان وتتبّع سيّد الرسل، هذه الأمة التي تحمل رسالة كافة الانبياء والائمة، وترفع لواء انقاذ المستضعفين في كل مكان من براثن العبوديات والطواغيت والفراعنة، هي بحاجة وقبل كل شيء الى قيادات رسالية كفوءة وواعية تأخذ على عاتقها توجيهها وهدايتها وقيادتها نحو الأهداف التي رسمها الله تعالى لها بعيداً عن عمليات التضليل وممارسات

الاحتواء وأساليب التستر والتبرقع، كي تحقق الأمة ما تصبو اليه من أهداف في ظل ظروف قياسية وموضوعية، وبالتالي كي يتحقق للامة عزّتها ورفعتها وعبوديتها الحقّة لله تعالى.

الأمة بحاجة الى من يوضّح لها مبادئ رسالتها بصورتها النقية، ويشرح لها مفاهيمها ناصعةً بلا لفّ ودوران، ويقدم لها اسلامها سليماً شفّافاً خالياً من كل الشوائب التي تلقي بها المصالح الشخصية في كثير من الاحيان في روافده، وبعيداً عن أجواء الضباب التي تصنعها الاهواء النفسية، وبمعزل عن العصبيات الجاهلية والتعصبات العاطفية، وفوق هذا وذاك في ظل محيط مقدس حرّ نابض بالصدق والاخلاص والتفاني، تسود فيه ارادة الخير ورجاحة العقل، وسمو الفكرة، واتزانّ الكلمة، ورسالية التوجّه، وشرعية التحرك، وربانيّة الهدف، ومحمدية الوسيلة.

الأمة الاسلامية بحاجة الى قيادات من هذا النوع تخلف الرسول ﷺ وتوجه الأمة طوال مسيرتها الشائكة وعلى امتداد حركتها باتجاه الأهداف الالهية. ومن الطبيعي انّ افتقاد الأمة لشخصيات وقيادات من هذا النوع سوف يكلف ـ وقد كلّف الأمة بالفعل ـ كثيراً، ويوجه لها الضربات تلو الضربات والصفعات تلو الصفعات، لأنّ افتقاد مثل هذه القيادات، أو ازاحة هذه الشخصيات عن قيادة الأمة وتولي قيادات مفروضة عليها غير واعية لأهدافها ولا متفهمة لرسالتها، لابد وأنْ يؤدي الى الخروج بالمسيرة الاسلامية عن الطريق الصحيح السوي الذي رسمته الشريعة، وسريان الانحرافات بعد الانحرافات الى التحرك الاسلامي ومن ثم الى المبادئ والقيم الاسلامية، فتفقد اسلاميتها وربّانيتها بشكل

تدريجي لكثرة ما يختلط بها من افكار تفرضها الذهنية الحاكمة التي تأخذ مصالحها بالدرجة الاولى وتقدمها على اي مصلحة اخرى بما فيها مصلحة الإسلام والأمة الاسلامية.

وكان أئمة أهل البيت عليهم السلام هم القيادات الحقيقية والزعامات الربانية التي اختارها الله تعالى لهداية الأمة الاسلامية وارشادها الى طريق الفلاح والصلاح، وتوجيهها باتجاه طريق عبودية الله لا عبودية الطاغوت، والاخذ بيدها عبر هذا الطريق نحو اعلاء كلمة الله في الارض واخماد اصوات الشياطين والجبابرة الذين يريدون اطفاء كلمة الله، والانطلاق بهذه الأمة نحو تحقيق المزيد من الانتصارات والنجاحات الحقيقية القائمة على أساس نشر رسالة الإسلام في كل مكان، واعمار الارض بنداء التوحيد، وبذر الاخلاق القرآنية في نفوس الاجيال.

لقد كان أئمة أهل البيت عليهم السلام ـ وبشهادة كافة المذاهب الاسلامية وكافة الاصدقاء والاعداء ـ مثالاً في الورع والاستقامة، والصدق والاخلاص، والكفاءة والجدارة، والوعي والمعرفة، والرسالية والمبدئية، والصبر والمقاومة، والصمود والتحدي، والاصرار على تطبيق مبادئ الاسلام، والعمل بالاوامر الالهية، والتخلّق باخلاق الاسلام، وابقاء سنة الرسول صلى الله عليه وآله حيّة ساطعةً نقيّةً مما يُراد أن يضاف اليها من شوائب وبدع وخرافات.

ففضلاً عن الانتخاب الالهي والاصطفاء الرباني لأئمة أهل البيت، فقد انتزعوا بفكرهم وعلمهم وسلوكهم الالهي انتخاب الأمة واختيار

الجماهير، فلم تجتمع الأمة على أحد اجتماعها عليهم ولم تعترف بعبادة احد وتقواه وعلمه وعدله واخلاصه اعترافها بعبادتهم وتقواهم وعلمهم وعدلهم واخلاصهم. ولولا الحكومات التي فرضت نفسها على المسلمين في غفلة من الزمن ولولا الارهاب الذي كانت تستخدمه سلاحاً في مواجهتهم ومواجهة الموالين لهم والمنادين بامامتهم، لما كان هناك مجال لغيرهم، ولما انضوى أحد تحت لواء غير لوائهم، بل ولما كان للزعامات الحكومية وجود ولا كان لها ذلك الاستمرار الذي تمكنت بواسطته أنْ توجّه ضربة عنيفة للاسلام باصالته ومبادئه الحقّة وقاعدته الجماهيرية وقيادته الربانية الكفوءة الصالحة.

لهذا في ظل الواقع المأساوي الذي يسعى فيه حكام السوء والنفعيون والوصوليون لطمس معالم الحق وتشويه مبادئ الإسلام وتحريف مفاهيمه وقيمه، والتعتيم على الشخصيات الرسالية والقيادات الحقيقية للامة والزعامات المبدئية، وطرح الشخصيات الدنيوية كشخصيات دينية، والزعامات المنحرفة كزعامات صالحة، في ظل هذا الواقع تبرز الحاجة الى كشف النقاب عن اوجه الزعامات الرسالية الصالحة التي أُطيح بها بأساليب المكر والارهاب عن الموقع الذي كان يجب ان تكون فيه، لكي تعرف الأمة زعاماتها الحقيقية وشخصياتها الاسوة في وقت بات يصعب فيه الى درجة كبيرة على الأمة معرفة هذه الزعامات والشخصيات دون الرجوع الى المصادر التي لم تمتد اليها يد التحريف والعبث والتلاعب، لاسيما وأنّ السلطات الحاكمة المناهضة لأهل البيتعليهم السلام قد بذلت كلّ ما في وسعها لتحريف كل شيء حتى التاريخ كي تقلب الحقائق وتشوّه

وجه الحقيقة وتزوّق وجه الباطل وتضفي عليه مسحات الجمال.

فلا بد للامة ولا بد للاجيال ولا سيما هذا الجيل، ان يطّلع على الحقيقة ويبصر وجه الحق بعينه وقلبه، ويعرف الشخصيات القدوة على حقيقتها، ويعيش معها صدقها واخلاصها، وهمومها الاسلامية، ومواقفها المناهضة للظلم والارهاب والانحراف، وصبرها ومصابرتها في طريق الدعوة الى الله، ومعاناتها وآلامها في صراعها مع أئمة الانحراف والزيغ. لابد للامة ان تتعرف على الشخصيات الاسلامية العظيمة التي كان لها الدور الفاعل الرائد في الابقاء على مشعل الإسلام وهاجاً متألقاً، وايصال صوت الإسلام الجهوري المدوي الى الاجيال الاسلامية المتلاحقة، والحفاظ على الغرسة الاسلامية حية خضراء نابضة بالحياة.

وقد اخترنا في بحثنا هذا إحدى هذه الشخصيات التي ملأت عين التاريخ وسمعه، ودوى صوتها الملعلع المطالب بالحقّ والرافض للهيمنة الدنيوية على الدين في آفاق التاريخ، ولا زال يلعلع في يومنا هذا وعلى مدى الحياة داعياً المسلمين الى حياة يؤطّرها الإسلام وينبض فيها الايمان، والى حركة حول محور «الله» لا حول اي محور آخر، فالحركة حول المحور الالهي هي التي توفّر للانسان والمجتمع حركة منظّمة متّسقة سليمة، وهي التي تقيه من السقوط في مستنقعات الانحراف وأوحال الضلال، وهي التي تضمن له الحياة السعيدة الجميلة التي لا وجود فيها للمآسي والويلات الناجمة عن حب النفس والدنيا ولا للانتكاسات التي يخلقها الغرور والكبرياء والزهو، ولا للهزائم التي تكون نتيجة طبيعية للتمرد على القيم والمبادئ والأهداف العليا.

اخترنا الحديث في هذا الكتاب عن شخصية ما زالت اشعاعاتها الفكرية والثقافية متوهجة كالشمس رغم حشود المحاولات التي بّذلت لاطفاء هذه الاشعاعات، وعطاؤها ثرّاً خصباً على الرغم من كل التحركات المضادة التي سعت وبكل ما اوتيت من قوة الى اجهاض ذلك العطاء وافراغه من محتواه، وهم لا يعلمون:

﴿فأما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾(٩٧).

فنحن في كتابنا هذا أمام شخصية عظيمة من شخصيات الإسلام وزعيم الهي من زعماء هذا الدين، وإمام مجاهد جاهد في الله تعالى على جميع الاصعدة وفي كافة المجالات، ورائد من رواد العلم والعقيدة، وصدّيق صدق ما عاهد الله عليه، وصابر لقي في طريق ذات الشوكة ألوان الظلم والاضطهاد لكنه لم يطأطئ رأسه لظالم ولم يمد يده لمضطهِد، ولم يهادن الطاغوت ولم يساوم على الحق.

كان الامام موسى بن جعفر عليه السلام رجلاً إلهياً سمت روحه في آفاق الله، وتفجّرت في نفسه ينابيع الحب الإلهي، وعرف الله معرفة الواثقين، فعبده عبادة الاحرار الذين شاهدوا الله بقلوبهم ورأوه بعقولهم، وانزاحت كافة الحجب بينهم وبينه، فانجذبوا اليه انجذاب العاشق الوله، ووقفوا بين يديه وقوف الذليل الخاشع، وأدركوا انّ رضاه لا ينال إلّا بالتفاني في حبّه، وتحمّل كافة ما يترتب على ذلك الحب من مشاق ومعاناة وعذاب.

لم يقتصر الكفاح الذي خاضه الامام موسى الكاظم عليه السلام على ميدان واحد، ولم يتحدد ضمن دائرة واحدة، انما كان كفاحاً في كافة الميادين،

لأنَّ المؤمن الرسالي لا يعرف وهو يحمل اعباء الرسالة الكلل ولا الملل، ولا يتعامل مع الله تعالى على أساس الوقت والفراغ، ولا تقوم حساباته الجهادية على أساس الربح والخسارة، انما يوقف كلّ حياته لله ولرسالته، ولهذا كانت حياة الامام كفاحاً مستمراً متواصلاً وحلقات جهاد متصلة متآصرة لا تعرف الانفصام.

كان الامام الكاظم مجاهداً من الطراز الأول هزّ بمواقفه الجهادية الشجاعة وتحديه المستمر للنظام العباسي، أركان قصر الاستبداد وعرش الفرعونية المتجبّرة، وأماد بصرخاته المدوية الارض تحت اقدام منتحلي الدين ومغتصبي ولاية أمر المسلمين، فرسم بثوريته ومقاومته ومواقفه الشجاعة درب الجهاد والكفاح للأجيال اللاحقة، وعلّم الانسان المتطلّع الى غد اسلامي مشرق كيف يقاوم ويصبر ويتلذذ بألوان العذاب ما دام ذلك في سبيل الله ومن اجل إعلاء كلمته العليا ورفع اللواء المحمدي المقدس خفّاقاً عالياً في سماء الدنيا بأسرها.

وكان الامام عابداً من الطراز الأول أيضاً، فلولا الجانب العبادي الذي كان سمة بارزة من سمات شخصيته، لما رأينا من تلك المواقف الجهادية الفريدة وذلك الصبر على الاذى في سبيل الله. فالعبادة ليست كما يتصور او يصوّر البعض من انها انعزال عن الناس والحياة ونزوع نحو الانفراد بالله والخلوة به بعيداً عما يجري في الساحة الاجتماعية من احداث وبمنأى عن التأثير الذي لابد وان تعكسه الاوضاع السياسية. فالعبادة في الإسلام لا تحمل هذا المعنى ولا تترك في المتعبدين مثل هذه الانطباعات. العبادة في الإسلام أو الطقوس العبادية الاسلامية تفجّر في

المسلم روح الثورة لله وتحرك فيه عوامل الانتفاضة على كل ما يمكن أنْ ينمو على حساب الله وعلى كل إرادة تتوخى جرّ الناس عن فناء الله نحو زريبة الشيطان.

فكانت عبادة الامام الكاظم عليه السلام في الواقع عبادة عارفة بصيرة قائمة على أساس الاقرار بالفضل الالهي والاذعان بالربوبية والاعتراف بالعجز الانساني عن تحقيق اي شيء ما لم يكن الى جانب الانسان الدعم الالهي والعناية الربانية والرعاية الغيبية. وهذا اللون من العبادة لا شك وأنّه يملأ قلب المؤمن بالقوة والعزيمة، ويبعث في نفسه بوارق الامل، ويقدح في عقله الافكار الخيرة، ويأخذ بيده على طريق الابداع والخلاقية.

فلم تكن عبادة الامام وذوبانه في الله وبكاؤه بين يدي الله، لتعزل الامام عن امته، ولم تدفعه للعيش بعيداً عن آلامها وهمومها، ولم تصرفه عن التفكير فيما تلاقيه على يد حكوماتها من جور واضطهاد. كانت عبادته محفّزاً عظيماً له على النزول الى الميدان الجهادي وبذل كافة ما يملك من قوى وطاقات وامكانات في سبيل عزّة الإسلام ورفعة المسلمين.

وكان الامام عالماً ومفكراً من الطراز الأول حتى سُمي بعالم آل محمد. فقد خلّف والده الامام الصادق عليه السلام مدرسة علمية وفقهية وتراثاً فكرياً وثقافياً ضخماً، وكان لابد للامام الكاظم عليه السلام ان يواصل ادارة تلك المدرسة العظيمة والحفاظ على ذلك التراث الفكري والثقافي الهائل. فشمّر عليه السلام عن ساعد الجد واخذ يواصل بشوق وإصرار نهج والده

واستاذه عليه السلام وتربية العلماء والفقهاء والمحدثين، لكي يخلق الكوادر الواعية والطاقات العلمية الفكرية الرائدة التي تأخذ على عاتقها حمل الفكر الاسلامي والدفاع عنه وايصاله الى القاعدة الجماهيرية.

وكان الامام عليه السلام يتحلى بالاخلاق الاسلامية والصفات المحمدية الحميدة، فكان يجسّد في افعاله وسلوكه الإسلام بأسمى صورة وأروع شكل. ولهذا كان الكاظم عليه السلام كما هو حال آبائه عليهم السلام إسلاماً متحركاً وقرآناً ناطقاً وهذا ما يمثل في الحقيقة ذروة الايمان وسنام التعبّد وقمة المبدئية. فالإسلام لم يأت لكي يظل مجرد حبر على ورق، والقرآن لم ينزل به الوحي الامين على الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله كي يُتلى ويجوّد -وان كان هذا شيء حسن- وانما أراد للاسلام ان يُترجَم ترجمة عملية في سلوك الناس وعملهم وتعاملهم، واراد للقرآن انْ يتحول الى مرشد وهاد للامة في سلوكها وتعاملها.

انّ الإسلام يزخر بالمبادئ الخلقية والمفاهيم والقيم السلوكية، بل ان الإسلام في الحقيقة اخلاق وسلوك وتعامل قيمي، وهذا ما اكّد عليه الحديث النبوي القائل «**انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق**». ولهذا من الطبيعي جداً ان نجد الامام الكاظم عليه السلام ينبوعاً من الاخلاق والسجايا الاسلامية، تلك الاخلاق التي قدّمت الكتب التاريخية نماذج رائعة منها، هي بمثابة مصابيح تضيئ الطريق امام كل انسان يحاول ان يتخلّق بالاخلاق الاسلامية، ومحفّزات قوية تحفّز المسلم على الاقتداء بسيرته والاندفاع نحو السير على خطاه وانتهاج طريقه.

وسنحاول تسليط الاضواء على بعض جوانب هذه الشخصية العملاقة التي ضربت اروع الامثلة في الجهاد والتعبّد والعلم والاخلاق، رغم قلة المعلومات التي قدمتها الكتب والمراجع حول شخصية الامام الكاظم عليه السلام، وذلك نتيجة ـ وكما سبق ان اشرنا ـ للأجواء الارهابية التي عاشها هذا الامام والأئمة من ولده، والتي كانت تمنع التحدث عنهم والاشارة الى مناقبهم، بل ان ذلك يُعدّ جريمة لا تغتفر يعاقب عليها بالموت. بل سعى حتى الائمة انفسهم الى التكتم على كثير من اعمالهم وتحركاتهم كي يحافظوا بذلك على القاعدة الفكرية والجماهيرية التي كانوا يتولون رعايتها، بل كان يُشار الى الائمة في كثير من الاحيان بالرموز والكنى المستعارة، بل كان للامام الواحد أكثر من كنية ولقب وعنوان زيادة في الحيطة والحذر.

ولهذا نرجو من قارئنا الكريم ثانية ان يتعامل مع هفواتنا وعجزنا عن اداء البحث حقّه بما نظنّه فيه من روح تتسم بالصفح، وعين تغضّ النظر عن الزلّات، آملين تزويدنا بالملاحظات النافعة والنقد البناء، عسى انْ نستفيد منها لو قدّر لهذا الكتاب ان يظهر في طبعة ثانية.

وليد الأبواء

لم يكن صباح الابواء(٩٨) في ذلك اليوم مثل ايّ صباح آخر، ولم تكن الابواء تعيش وضعاً عاديّاً كالذي كانت تعيشه كل يوم، كان صباحاً آخر، وكانت ابواء اخرى.

كانت أشعة الشمس الذهبية الرائعة تعانق سعف النخيل السامق الذي وقف بشموخ في تلك القرية لا يكترث بالرياح التي تثور بين فترة واخرى ولا بالرمال التي ترشقه في كثير من الاحيان.

وكانت الاغاريد تنطلق من حناجر الطيور التي حطّت على اشجار النخيل وادعة مستبشرة، والاهازيج تنبعث من افواه الماشية التي كانت تسرح في تلك البقعة الخضراء بأمان وسرور لتبعث في النفوس نوعاً من الهدوء الممزوج بالفرح، وتملأ القلوب بالحيوية والنشاط والحركة.

وكان ابو عبد الله الصادق عليه السلام جالساً بين اصحابه في ذلك الجو البهيج يتناول الطعام معهم، عندما اتى اليه رسول زوجته «حميدة» يخبره انّ الطلق قد ضربها.

وامتلأ قلب الامام الصادق عليه السلام بالفرح وابتهج غاية الابتهاج بذلك الخبر، لانه يعلم انها ستلد له مولوداً سيكون له شأن عظيم. وترك الامام اصحابه وهم على مائدة الطعام وانطلق نحو خباء زوجته، ثم لم يلبث أن عاد حاسراً عن ذراعيه وبين شفتيه ابتسامة عريضة.

وهبّ اصحابه واقفين احتراماً له وسرّوا لما بدا عليه من سرور، ثم سألوه بعد تردد:

ـ اضحك الله سنّك وأقرّ عينيك، ما صنعت حميدة؟

فقال الامام:

ـ وهب الله لي غلاماً وهو خير أهل زمانه.

ثم اردف الامام قائلاً:

ـ ولقد اخبرتني امه عنه بما كنت أعلم به منها.

وتقدم منه ابو بصير وكان من أقرب أصحابه اليه، وسأل الامام بشغف:

ـ جُعلت فداك، فما الذي اخبرتك به؟

فقال الامام:

ـ ذكرتْ انه لما وقع من بطنها، وقع واضعاً يده على الارض رافعاً رأسه الى السماء، فأخبرتها انّ تلك إمارة رسول الله صلى الله عليه وآله وإمارة الامام من بعده[٩٩].

وانطلق الركب المقدس بعد ذلك حاملاً المولود الجديد ـ الذي ولد في السابع من صفر عام ١٢٨ هـ ـ نحو المدينة المنورة، فعمت الفرحة أهلها وسرّ الناس بهذا المولود المحمدي الجديد، وأطعم الامام الصادق عليه السلام الناس ثلاثاً تعبيراً عن شكره لله تعالى على هذا المولود الطاهر، وترجمة للفرحة التي غمرت قلبه العامر بالايمان.

وبعثت تلك الولادة المقدسة أملاً جديداً في قلوب عشّاق طريق الرسول صلى الله عليه وآله واولياء العترة النبوية الطاهرة، كما اضافت شمساً جديدة الى شموس أئمة أهل البيت لتؤذن بانبلاج فجر جديد ويوم مشرق آخر في تاريخ الانسانية التي جثم عليها ليل طويل قاس، لاسيما وقد كان بزوغ تلك الشمس في فترة كان النظام الاموي يلفظ أنفاسه الأخيرة تحت مطرقة الرفض العلوي والدعوة لأهل البيت.

وانتخب الامام الصادق عليه السلام لولده الجديد اسماً جديداً لم يكن مألوفاً من قبل في بيت الرسالة. فقد سماه «موسى» تيمّناً باسم نبي الله موسى بن

عمران عليه السلام، ذلك النبي العظيم الذي ثار على فرعون زمانه، وسجّل الانتصار عليه في مواجهة غير متكافئة وقفت فيها الارادة الالهية والمد الغيبي الى جانب موسى عليه السلام ليلقي بفرعون وجنوده في نهاية المطاف في ظلمات البحر حيث الخسران المبين والنهاية التي لابد ان ينتهي اليها كل فرعون وطاغية. وكأنما أراد الامام الصادق عليه السلام بهذه التسمية ان يخطّ الطريق لهذا الابن المبارك منذ فجر ولادته، ويؤكد عليه انه لابدّ له من ان يخوض جهاداً مريراً كالجهاد الذي خاضه موسى عليه السلام، ولابد ان يواجه فرعون زمانه كما واجه موسى فرعون عصره. وبعبارة اخرى ان الامام أراد ان يقول للتاريخ انّ لموسى الجديد فرعون جديد، وانّ على الأمة ان تكون الى جانب موسى في مواجهته المبدئية القادمة مع فرعون زمانه الذي لن يختلف عن فرعون الأول سوى في الاسم وبعض الشكليات.

أُمّــــه

تُدعى أم الامام موسى بن جعفر عليه السلام حميدة ابنة صاعد ويُقال لها المصفّاة، وتكنّى «لؤلؤة»، وهي من بلاد الاندلس، لهذا تُعرف أيضاً بـ «حميدة الاندلسية» أو «حميدة البربرية»(١٠٠).

وكانت السيدة «حميدة» معروفة في الفضيلة والتقوى، والعبادة والورع وقد قال فيها الامام الصادق عليه السلام:

«حميدة مصفاة من الادناس كسبيكة الذهب، ما زالت الاملاك تحرسها

حتى أُدّيت اليّ كرامة من الله»[١٠١].

وأورد الكافي قصة حول طريقة زواج الامام الصادق عليه السلام من حميدة الاندلسية جاء فيها:

دخل ابن عكاشة بن محصن الاسدي على ابي جعفر -أي الباقر عليه السلام - وكان ابو عبد الله -أي الصادق عليه السلام - قائماً عنده، فقدم اليه عنباً فقال:

- حبة حبة يأكله الشيخ والكبير والصغير وثلاثة واربعة يأكله من يظن انه لا يشبع. وكله حبتين حبتين فانه يُستحب.

فقال ابن عكاشه للامام الباقر عليه السلام:

- لأي شيء لا تزوج ابا عبد الله، فقد ادرك التزويج؟

وكانت بين يديه صرة مختومة.

فقال الامام له:

- اما انه سيجئ نخاس من أهل البربر، فينزل دار ميمون، فتشتري لي بهذه الصرّة جارية.

فقال ابن عكاشة: فأتى لذلك ما أتى، فدخلنا يوماً على ابي جعفر عليه السلام فقال:

- إلاّ اخبركم عن النخاس الذي ذكرته لكم قد قدم، فاذهبوا واشتروا بهذه الصرّة منه جارية.

قال ابن عكاشة: فأتينا النخاس، فقال:

- قد بعت ما كان عندي الاّ جاريتين مريضتين احداهما امثل من

الاخرى.

ـ فاخرجهما حتى ننظر اليهما.

فأخرجهما، فقلنا:

ـ بكم تبيعنا هذه المتماثلة؟

قال النخاس:

ـ بسبعين ديناراً.

فقلنا له:

ـ أحسِن.

فقال:

ـ لا انقص من سبعين ديناراً.

فقلنا له:

ـ نشتريها منك بهذه الصرة ما بلغت ولا ندري ما فيها.

وكان عنده رجل ابيض الرأس واللحية، فقال:

ـ فكّوا وزنوا.

فقال النخاس:

ـ لا تفكوا، فانها ان نقصت حبة من سبعين ديناراً لم ابايعكم.

فقال الشيخ:

ـ ادنوا.

فدنونا، وفككنا الخاتم ووزنّا الدنانير، فإذا هي سبعون ديناراً لا تزيد ولا تنقص!

فأخذنا الجارية، فأدخلناها على ابي جعفر عليه السلام وجعفر قائم عنده، فأخبرنا ابا جعفر بما كان، فحمد الله واثنى عليه ثم قال لها:

ـ ما اسمك؟

قالت:

ـ حميدة.

فقال الامام الباقر عليه السلام:

ـ حميدة في الدنيا محمودة في الآخرة(١٠٢).

ولو صحت هذه الرواية التي اوردها الكافي، فهي تعاني من اشكال يلفت النظر، لأنّ قول ابن عكاشة للامام الباقر عليه السلام «لأي شيء لا تزوج ابا عبد الله، فقد ادرك التزويج؟»، يدل على انّ الامام الصادق لم يتزوج حتى تلك اللحظة، في حين نعلم انّ الصادق عليه السلام كان له ولدان اكبر من موسى الكاظم عليه السلام وهما اسماعيل وعبد الله وامهما فاطمة بنت الحسين الأشرم حسب اغلب المصادر. ولا يمكن ان يرتفع هذا الاشكال الّا اذا كانت حميدة قد تأخّرت في الحمل، ولم تنجب الّا بعد زواج الصادق من فاطمة وانجابها لاسماعيل وعبد الله.

كناه وألقابه

كانت للامام كنى عديدة انطلاقاً مما كان يسود زمانه من ارهاب وجور وتجسس شديد على الامام وصحبة ومراقبة مستمرة لنشاطاته. لهذا كان اصحابه يكنونه بكنى عديدة للتمويه على السلطات التي كانت

تتربص به وبصحبه الدوائر ولصرف ذهنها عن أن المراد بهذا الكنى شخص واحد هو الامام موسى بن جعفر عليه السلام.

فمن كناه التي عُرف بها: ابو الحسن الاول، وابو الحسن الماضي، وابو ابراهيم، وابو علي.

اما القابه فهي كثيرة أيضاً وقد كان كلّ لقب منها يدلّ على خصلةسجيّة امتاز بها الامام أو عُرِف بها بين أوساط الأمة، وهذا يعني في جملة ما يعنيه مدى اتساع الدائرة الخلقية التي كان يمتلكها الامام والتي تشمل كافة السجايا الاسلامية.

فأشهر القابه عليه السلام هو الكاظم، واشتهر بهذا اللقب لما كظم من الغيظ وصبر عليه من فعل الظالمين به حتى مضى قتيلاً في حبسهم ووثاقهم(١٠٣).

ومن القابه الاخرى: زين المجتهدين، والعبد الصالح، والنفس الزكية، والصالح، والصابر، والامين، والوفي والزاهر.

وسُمي بالعبد الصالح لأجل عبادته واجتهاده وقيامه بالليل(١٠٤).

وقيل انه سمُي بالزاهر لانه زهر بأخلاقه الشريفة وكرمه المضيء التام(١٠٥).

كما عُرف الامام الكاظم عليه السلام بباب الحوائج بعد وفاته، وهو لقب اضفاه عليه أهل بغداد بعد التجربة التي ادركوا من خلالها قضاء الله تعالى لحوائجهم ببركة التوسل به اليه وتقديمه بين يدي حاجاتهم. وذكر شيخ الحنابلة ابو علي الخلال: «ما اهمني أمر فقصدت قبر موسى بن

جعفر عليه السلام فتوسلت به، إلّا سهّل الله تعالى لي ما احب»[١٠٦].

إمامتــه

الامام الكاظم عليه السلام كان الامام السابع من أئمة أهل البيت عليهم السلام، ولي خلافة الأمة وامامتها بعد ابيه الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، ورغم انه لم يتمكن كآبائه عليهم السلام من تولي الزعامة السياسية وذلك لعدم سماح طواغيت عصره بذلك، إلّا انه كان في الواقع هو الامام الحقيقي للمسلمين، ولم تكن الزعامات التي كانت تحكمهم سوى زعامات مغتصبة لحقّه وفارضة نفسها على الكيان الاسلامي بقوة السيف ولغة الارهاب.

ولا شك انّ الرسول صلى الله عليه وآله قد نصّ على إمامة الائمة الاثني عشر واكّد في مناسبات عديدة على انّ هؤلاء الائمة هم الذين يحق لهم حكم المسلمين وإمامتهم من بعده. ولسنا في الحقيقة هنا في معرض التحدث عن ذلك، وانما نكتفي فقط بالاشارة السريعة الى بعض تلك الاحاديث:

قال سلمان الفارسي (رض): دخلت على النبي صلى الله عليه وآله فإذا الحسين على فخذيه وهو يقبّل عينيه ويلثم فاه وهو يقول: انت سيد ابن سيد، انت إمام ابن إمام، انت حجة ابن حجة، ابو حجج تسعة من صلبك تاسعهم قائمهم[١٠٧].

عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الائمة بعدي اثنا عشر اولهم علي بن ابي طالب وآخرهم القائم، خلفائي وأوصيائي وأوليائي وحجج

الله على امتي بعدي المقر بهم مؤمن والمنكر لهم كافر[108].

عن عبد الله بن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أنا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهرون معصومون[109].

عن سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام عن سيد الاوصياء علي بن ابي طالب عليه السلام قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: الائمة من بعدي اثنا عشر: اولهم انت يا علي وآخرهم القائم الذي يفتح الله تبارك وتعالى ذكره على يديه مشارق الارض ومغاربها[110].

وانطلاقاً من ذلك ولما امتاز به الامام موسى بن جعفر عليه السلام من مؤهلات قيادية وصفات وسجايا رسالية، فقد خلف اباه الامام الصادق عليه السلام في امامة المسلمين وقيادتهم وتوجيههم طبقاً لرسالة الإسلام وفي إطار ما كانت تمليه المسؤولية الشرعية والتكليف الالهي، فكان حريصاً على حفظ مبادئ الإسلام من التحريف والتشويه، والقاعدة الجماهيرية الواعية من التصفية والاحتواء والتمزق.

ولا شك انّ الامام الصادق عليه السلام قد نصّ وفي مختلف المناسبات على إمامة ولده موسى عليه السلام من بعده. وروى صريح النص بالامامة عن الصادق عليه السلام على ابنه الكاظم عليه السلام عدد كبير من شيوخ اصحاب الامام الصادق عليه السلام وثقاته، ومنهم: المفضل بن عمر الجعفي، ومعاذ بن كثير، وعبد الرحمن بن الحجاج، والفيض بن المختار، ويعقوب السراج، وسليمان بن خالد، وصفوان الجمال، واسحاق بن جعفر الصادق، وعلي بن جعفر الصادق، وهذا الاخيران اخوان للامام الكاظم عليه السلام وكانا من الفضل والورع على ما لا يختلف فيه اثنان[111].

ومن بين ما ورد عن الامام الصادق عليه السلام في النصّ على إمامة ولده الكاظم من بعده:

* عن الفيض بن المختار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: خذ بيدي من النار، من لنا بعدك؟ فدخل عليه ابو ابراهيم عليه السلام -اي ولده موسى- وهو يومئذ غلام، فقال: هذا صاحبكم فتمسكوا(١١٢) به.

* عن المفضّل بن عمر قال: كنت عند ابي عبد الله عليه السلام -الصادق- فدخل ابو ابراهيم عليه السلام وهو يومئذ غلام، فقال: استوص به وضع امره عند من تثق به من اصحابك(١١٣).

* قال اسحاق بن جعفر الصادق عليه السلام: كنت عند ابي يوماً فسأله علي بن عمر بن علي فقال: جعلت فداك الى من نفزع ويفزع الناس بعدك؟ فقال: الى صاحب الثوبين والغديرتين(١١٤)، وهو الطالع عليك من هذا الباب، يفتح الباب بيديه جميعاً. فما لبثنا انْ طلع علينا كفّان آخذان بالبابين ففتحهما ثم دخل علينا ابو ابراهيم.

* قال منصور بن حازم للامام الصادق عليه السلام: بأبي انت وامي ان الانفس يُغدى عليها ويُراح، فإذا كان ذلك فمن؟ فقال الامام: اذا كان ذلك فهو صاحبكم. فضرب بيده على منكب ابي الحسن(١١٥).

* عن سليمان بن خالد قال: دعا عبد الله عليه السلام ابا الحسن يوماً ونحن عنده، فقال لنا: عليكم بهذا بعدي فهو والله صاحبكم بعدي(١١٦).

كان هذا في حياة الامام الصادق عليه السلام، اما بعد وفاته فقد اشاع اصحاب المطامع والأهداف الخبيثة والنوايا السيئة الاشاعات والاخبار الكاذبة في محاولة لصرف الامامة عن طريقها الطبيعي ومجراها الصحيح والصاقها

بابني الامام الصادق الآخرين وهما اسماعيل وعبد الله، خاصة وانّ الامام الصادق قد تكتّم كثيراً على ابنه موسى ولم يخبر بذلك الاّ الخواص والمقربين من اصحابه خوفاً من بطش المنصور العباسي بخليفته والفتك به، سيما وقد كان يهمه كثيراً معرفة الامام من بعد الصادق ووضعه تحت المراقبة أو تصفيته قبل ان تتوطد له الامور.

والذي يؤيد اهتمام المنصور بخليفة الصادق واصراره على معرفة من يكون، الخبر الذي يقول:

دعا ابو جعفر المنصور في جوف الليل كاتبه ابا ايوب الخوزي، فلما اتاه رمى كتاباً اليه وقال:

ـ هذا كتاب محمد بن سليمان يخبرنا بأنّ جعفر بن محمد قد مات. ثم اوصاه بعد ذلك:

ـ اكتب، ان كان اوصى الى رجل بعينه، فقدّمه واضرب عنقه. فكتب ابو ايوب الخوزي الى والي المدينة، فعاد الجواب بعد مدة:

«قد اوصى الى خمسة احدهم ابو جعفر المنصور، ومحمد بن سليمان، وعبد الله، وموسى، وحميدة».

فقال المنصور:

ـ ما الى قتل هؤلاء سبيل(١١٧).

وشاع مثل هذا الخبر بين اوساط الناس، فقد اتى اعرابي الى ابي حمزة الثمالي فسأله ابو حمزة عن الامام الصادق فقال له الاعرابي:

ـ توفي جعفر الصادق.

فشهق ابو حمزة شهقة واغمي عليه. فلما افاق قال:

ـ هل اوصى الى احد؟

قال الاعرابي:

ـ نعم اوصى الى ابنه عبد الله وموسى وابي جعفر المنصور.

فضحك ابو حمزة وقال:

ـ الحمد لله الذي هدانا الى المهدي، وبيّن لنا عن الكبير، ودلنا على الصغير، وأخفى عن أمر عظيم.

فسُئل عن معنى قوله هذا، فقال:

ـ بيّن عيوب الكبير، ودلّ على الصغير لاضافته اياه، وكتم الوصية للمنصور، لأنه لو سأل المنصور عن الوصي لقيل انت(١١٨).

ومن تلك الوصية التي نُقِلَت الى اسماع المنصور نفهم مدى التكتم الذي كان قد ابداه الامام ومدى الحذر الشديد على الوصي الذي هوهؤلاء الخمسة أو الثلاث، ومن الطبيعي انّ الامام الصادق كان يعلم ان خلّص اصحابه وصفوة جماعته يعلمون من هو الامام الحقيقي من بعده، وانّ اقحام اسماء اخرى مع اسم الامام الحقيقي انما هو اسلوب للتمويه وتفويت الفرصة على السلطة، لاسيما وانّ الامام الصادق قد اخبر هؤلاء الاصحاب من قبل عن الخليفة من بعده كما رأينا.

ولا شك ان السلطة العباسية كانت هي الاخرى تدرك انّ الامامة لابد وان تكون لموسى بن جعفر لما عُرِف به من ايمان وورع وتقوى وعلم ومؤهلات قيادية اخرى، إلاّ انها لم تكن تملك الوثيقة التي تستند اليها في

ذلك. وقد حاولت هذه السلطة ـ مع كافة من لهم مصلحة في صرف الامامة عن موسى الكاظم عليه السلام ـ ان تؤكدعلى إمامة اسماعيل بن الامام الصادق وعبد الله بن الامام الصادق، خاصة وأنّ ذلك سيؤدي الى شراذم صغيرة لا تشكل خطراً على السلطة ولن يكون لها تأثير على الرأي الاسلامي العام.

وفاة اسماعيل

كان اسماعيل بن الامام الصادق عليه السلام قد توفي في حياة ابيه الصادق وقبل وفاة ابيه بعشرين عاماً وقد علم بذلك كافة اصحاب الامام، كما اكّد الامام على وفاته وأراهم جنازته وكشف لهم عن وجهه مراراً قبل ان يودع جثمانه التراب، لعلمه انّ البعض سيحاول ان يتّخذ منه فتنة لتمزيق اوصال شيعة أهل البيت وتفريقهم عن امامهم الحقيقي.

وعلى هذا الصعيد روي عن زرارة بن اعين انه قال:

دخلت على ابي عبد الله عليه السلام وعند يمينه سيّد ولده موسى وقدامه مرقد مغطّى، فقال لي:

ـ يا زرارة جئني بداود الرِّقّي وحمران، وأبي بصير. ودخل عليه المفضل بن عمر، فخرجت فأحضرت من امرني باحضاره، ولم تزل الناس يدخلون واحداً اثر واحد، حتى صرنا في البيت ثلاثين رجلاً.

فلما حشد المجلس قال الامام الصادق،

ـ يا داود اكشف لي عن وجه اسماعيل.

فكشف عن وجهه، فقال ابو عبد الله عليه السلام:

ـ يا داود، احيٌّ أم ميّت؟

فقال داود:

ـ يامولاي هو ميّت.

فجعل يعرض ذلك على رجل رجل، حتى اتى على آخر من في المجلس وكلٌّ يقول:

ـ هو ميت يا مولاي.

فقال الامام:

ـ اللهم اشهد!

ثم أمر بغسله وحنوطه وإدراجه في اثوابه.

فلما فرغ منه، قال للمفضل:

ـ يا مفضل إحسر عن وجهه.

فحسر عن وجهه، فقال الامام:

ـ احيٌّ هو ام ميت؟

فقال المفضل:

ـ ميّت.

فقال الامام:

ـ اللهم اشهد عليهم.

ثم حُمِل الى قبره، فلما وُضع في لحده، قال:

ـ يا مفضل اكشف عن وجهه.

وقال للجماعة:

ـ احيٌ هو ام ميت؟

فقالوا:

ـ ميّت.

فقال الامام الصادق:

ـ اللهم اشهد، واشهدوا فانه سيرتاب المبطلون، يريدون إطفاء نور الله بأفواههم.

ثم اومأ الى ولده موسى وهو يقول:

ـ والله متم نوره ولو كره المشركون.

ثم حثوا عليه التراب.

ثم اعاد القول على اصحابه فقال:

ـ الميّت المكفَّن المحنَّط المدفون في هذا اللحد من هو؟

فأجابوه جميعاً:

ـ اسماعيل.

فقال الامام الصادق عليه السلام:

ـ اللهم اشهد.

ثم اخذ بيد موسى عليه السلام وقال:

ـ هو حقّ، والحق معه ومنه، الى ان يرث الله الارض ومن عليها(١١٩).

وهذا التأكيد المتواصل والاصرار الذي ابداه الامام في إثبات وفاة ولده اسماعيل يبيّن مدى خشية الامام من احتمال ان ينسب البعض

الامامة الى اسماعيل أو يدّعي عدم وفاته. واستطاع الامام بذلك النفس الطويل من التأكيد على وفاة ولده اسماعيل، ان يفقس عين الفتنة التي ادرك وقوعها من بعده، لكن الفتنة ظلت تدخّن رغم عينها العوراء وتأثرت بها شريحة لا يُستهان بها والتي عُرفت فيما بعد بالفرقة الاسماعيلية.

والاسماعيلية في الحقيقة فرقة آمنت بإمامة اسماعيل من بعد ابيه الصادق عليه السلام وانقسمت الى فئتين:

فئة انكرت وفاته في حياة ابيه وقالت بأنه حيّ يرزق. وفئة آمنت بوفاته، لكنها ادعت انه اوصى لابنه محمد من بعده، وعُرِفت هذه الفئة بالقرامطة فيما بعد.

وواضح بطلان ادعاءات الاسماعيلية وزيفها. فالامام الصادق عليه السلام لم ينص ابداً على ابنه اسماعيل، بل كانت كافة نصوصه على ولده موسى كما رأينا من قبل. ولو افترضنا انه قد نصّ عليه، فانّ ذلك النص يُلغى بوفاة اسماعيل ويفقد شرعيته. اما القائلون بامامة محمد بن اسماعيل بعد وفاة اسماعيل، فواضح بطلان ادعائهم، حيث انّ من لم يتول الامامة بعد، كيف يمكنه التصريح بامامة ولده؟!

الفطحيـــة

كان عبد الله بن جعفر اكبر اولاد الامام الصادق بعد اسماعيل. ولم تكن منزلته عند ابيه الصادق منزلة غيره من اخوته في الاكرام[١٢٠].

وروي ان الامام الصادق عليه السلام كان يلومه ويعاتبه ويعظه ويقول:

ـ ما منعك ان تكون مثل اخيك ـ اي موسى ـ فوالله اني لأعرف النور في وجهه.

فقال عبد الله:

ـ لم؟ أليس أبي وأبوه واحد وامي وامه واحدة؟

فقال له الامام:

ـ انه من نفسي، وانت مني[(١٢١)].

وقيل أيضاً انه كان يخالط الحشوية ويميل الى المرجئة[(١٢٢)].

وقد ادعى عبد الله الامامة بعد وفاة ابيه الصادق محتجاً بأنه اكبر اولاده الاحياء، فاتبعه جماعة عُرِفوا بالفطحية نسبة اليه لما كان يُعرف بالأفطح، لانّ قدميه كانتا عريضتين. وأخذ جماعته ينسحبون عنه بعدما ادركوا عدم كفاءته وأهليته لامامة المسلمين، وبعدما تأكدت لهم إمامة الامام موسى بن جعفر عليه السلام.

وكان هشام بن سالم قد دخل على عبد الله الافطح بعد موت الامام الصادق عليه السلام وادّعائه الامامة فسأله عن مقدار الزكاة قائلاً:

ـ كم في المئة؟

فقال الافطح:

ـ خمسة دراهم.

فقال له هشام:

ـ وكم في نصف المئة؟

فقال:

ـ درهمان ونصف.

فقال له هشام:

ـ ما قال بهذا أحد من الأمة.

فخرج من عنده قاصداً قبر رسول الله صلى الله عليه وآله مستغيثاً به قائلاً:

ـ يا رسول الله! إلى من؟ الى القدرية؟ الى الحرورية؟ الى المرجئة؟ الى الزيدية؟

فاذا به كذلك اذ اتاه رسول ابي الحسن عليه السلام غلاماً صغيراً فقال له:

ـ اجب مولاك موسى بن جعفر عليه السلام.

فأتاه، فلما بصر به من صحن الدار ابتدأه قائلاً:

ـ يا هشام!

فقال:

ـ لبيك.

فقال الامام موسى بن جعفر عليه السلام:

ـ لا الى القدرية، ولا الى الحرورية، ولا الى المرجئة، ولا الى الزيدية، ولكن الينا.

فقال هشام للامام:

ـ انت صاحبي.

واخذ هشام يسأله عن كل ما أراد والامام يجيبه(١٢٣).

ووردت طريقة دخول هشام بن سالم على الامام الكاظم عليه السلام بشكل

اكثر تفصيلاً وعن لسان هشام نفسه[١٢٤]:

خرجت أنا وابو جعفر الاحول من عند عبد الله ضلّالاً لا ندري اين نتوجه، فقعدنا في بعض ازقة المدينة باكين حيارى ونحن نقول الى من نقصد؟ الى المرجئة؟ الى القدرية؟ الى الزيدية؟ الى المعتزلة؟ الى الخوارج؟

فبينما نحن كذلك، اذا رأيت شخصاً لا اعرفه يومئ الي بيده فخفت ان يكون عيناً من عيون ابي جعفر المنصور، وذلك انه كان له بالمدينة جواسيس ينظرون الى من اتفقت شيعة جعفر عليه‌السلام عليه، فيضربون عنقه، فخفت ان يكون منهم. فقلت للأحول:

ـ تنحّ فاني خائف على نفسي وعليك، وانما يريدني ولا يريدك. فتنحّ عني لاتهلك وتعين على نفسك.

فتنحى غير بعيد، وتبعت الشيخ وذلك اني ظننت اني لا اقدر على التخلص منه، فما زلت اتبعه وقد عزمت على الموت حتى ورد بي على باب ابي الحسن عليه‌السلام ثم خلاني ومضى، فإذا خادم بالباب فقال لي:

ـ ادخل رحمك الله.

فدخلت فإذا ابو الحسن موسى. فقال لي ابتداء منه:

ـ لا الى القدرية، ولا الى الزيدية، ولا الى المعتزلة، ولا الى الخوارج، اليّ اليّ.

فقلت له:

ـ جعلت فداك مضى ابوك؟

فقال:

ـ نعم.

فقلت:

ـ فمن لنا من بعده؟

فقال:

ـ ان شاء الله ان يهديك هداك.

فقلت:

ـ جعلت فداك ان عبد الله يزعم انه من بعد ابيه.

قال الامام:

ـ يريد عبد الله ان لا يعبد الله.

قلت:

ـ فأنت هو؟

قال:

ـ لا ما اقول ذلك.

فقلت في نفسي: لم اصب طريق المسألة.

ثم قلت له:

ـ جُعلت فداك، اعليك إمام؟

قال:

ـ لا.

فداخلني شيء لا يعلمه الّا الله عزّ وجل إعظاماً له وهيبة اكثر مما كان

يحل بي من ابيه إذا دخلت عليه.

ثم قلت له:

ـ جعلت فداك، اسألك عما كنت أسأل اباك؟

فقال:

ـ سلّ تُخبَر، ولا تُذع فانْ اذعت فهو الذبح.

فسألته فإذا هو بحر لا ينزف.

فقلت:

ـ جعلت فداك، شيعتك وشيعة ابيك ضِلال أفألقي اليهم وأدعوهم إليك فقد اخذت عليّ الكتمان؟

فقال:

ـ من آنست منه رشداً فألق اليه، وخذ عليه الكتمان، فإذا اذاعوا به فهو الذبح.

وأشار بيده الى حلقه.

فخرجت من عنده فلقيت ابا جعفر الاحول، فقال لي:

ـ ما وراءك؟

فقلت:

ـ الهدى.

فحدثته بالقصة.

ثم لقينا الفضيل وابا بصير فدخلا عليه وسمعا كلامه وساءلاه، وقطعا عليه بالامامة. ثم لقينا الناس افواجاً، فكل من دخل عليه قطع الاّ طائفة

عمار وأصحابه.

وبقي عبد الله لا يدخل اليه الاّ قليل من الناس، فلما رأى ذلك قال:

ـ ما حال الناس؟

فأخبروه أن هشاماً صدّ عنك الناس، فأقعد لي بالمدينة غير واحد ليضربوني.

ومن هذه القصة ندرك كيف كان الجو الارهابي مخيماً على أجواء المدينة بعد وفاة الصادق عليه السلام، وكيف كان اصحاب الامام يخشون عيون السلطة وجواسيسها، وكيف كان الامام الكاظم عليه السلام يتّخذ جانب الحذر حتى في الاجابة على أسئلة أصحاب أبيه، هذا في وقت كان فيه عبد الله الافطح قد فتح أبوابه للناس للدخول عليه دون وجل أو خوف أو حذر، وهو ما يقوي من احتمال دعم السلطة له والدعاية لإمامته، أو لعدم خوفها منه في أضعف الاحتمالات، لمعرفتها به، ووقوفها على شخصيته التي لا يمكن ان تشكل خطراً عليها لعدم امتلاكه للمؤهلات التي تخلق منه شخصية مؤثرة، وللوضع المرتبك والموقف المتذبذب اللذين كان عليهما.

والحقيقة انّ الزعماء العباسيين كانوا يعلمون أنّ الامام الكاظم هو الامام الحقيقي وانه أولى بإمامة المسلمين وإنْ حاولوا التكتم على هذه الحقيقة بدافع حبّ السلطة، لكنها كانت تظهر احياناً على فلتات ألسنتهم.

فهذا هارون الرشيد يكشف النقاب عن شخصية الامام الكاظم لولده المأمون الذي سأله عنه: «يا بني هذا إمام الناس، وحجة الله على خلقه، وخليفته على عباده. وانا إمام الجماعة في الظاهر والغلبة والقهر، وانه والله

لأحق بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله مني ومن الخلق جميعاً...».

لكنّ هارون الرشيد وبعد اعترافه بأحقية الامام بالإمامة والخلافة نراه يؤكد لولده المأمون على أنّ هذا كله لا يعني ان يتخلى عن الخلافة له، فيقول بالحرف الواحد:

«والله لو نازعني في هذا الامر لاخذتُ الذي فيه عيناه، فان الملك عقيم...».

ثم يواصل بعد هذه العبارة الاستدراكية ـ أو المبدأ السياسي الذي حرص على انْ يؤكّده لابنه المأمون ـ التحدث عن شخصية الامام بقوله:

«يا بني هذا وارث علم النبيين، هذا موسى بن جعفر، إن اردت العلم الصحيح تجده عند هذا»(١٢٥).

كما انّ الامام نفسه حاول أن يؤكد هذه الحقيقة للسلطة العباسية، ويعلن لها انه الامتداد الطبيعي لرسول الله صلى الله عليه وآله، وهو ما يعني انه اولى من بني العباس في خلافة رسول الله وإمامة المسلمين.

فقد تواتر أن هارون الرشيد لما توجه لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله ومعه الناس، حاول ان يتخذ من تلك الزيارة دعاية إعلامية له ويستفيد منها في التأكيد على قرابته من الرسول صلى الله عليه وآله والانتماء النسبي إليه كي يفتخر على الناس بذلك من جهة، وليثبت أحقّيته بخلافة المسلمين من جهة اخرى. ولكي يحقق هذين الهدفين من تلك الزيارة السياسية، تقدم من القبر وقال متغطرساً على الآخرين:

ـ السلام عليك يا بن عمّ!

الا انّ الامام موسى بن جعفر عليه السلام الذي كان حاضراً آنذاك، رأى انّ

المصلحة الاسلامية تقتضي ان يفوّت الفرصة على الرشيد ويُفشل تلك الزيارة ولا يدعها تحقق ما كان مخططاً لها من اهداف، ويؤكد للرشيد وبالتالي للامة انه اولى منه بالانتماء الى الرسول ﷺ، بل وانه الامتداد الطبيعي والحقيقي له، لهذا تقدم الى القبر بكل تواضع وهدوء وقال:

ـ السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبه[١٢٦].

وهكذا نجد الامام عليه السلام يسلّم على الرسول ﷺ كرسولٍ أولاً ثم كأب، على العكس من الرشيد الذي خاطبه كابنِ عمٍ فحسب، وهذا يعني انّ الامام أراد انْ يؤكد على رسالة الرسول ﷺ ونبوته لهذه الامة، وانه رسول للناس قبل ان يكون قريباً لأحد منهم، ملفتاً الانظار بشكل غير مباشر الى ضرورة التمسك بهذه الرسالة والالتزام بها، مؤكداً انّ الاحترام والتقدير الذي يكنّه المسلمون للرسول ﷺ، لكونه رسول الله وحامل رسالته الى الناس، لا لشيء آخر.

وشعر الرشيد انّ صفعة قوية توجّه اليه أمام تلك الجموع الحاشدة، وادرك انّ اهدافه من تلك الزيارة قد احترقت بنار كلمات الامام موسى عليه السلام، لهذا تغيّر وجهه، وتبين الغيظ فيه، واضمر السوء للامام، حتى قيل ان ذلك الموقف البطولي الذي اظهره الامام، كان السبب المباشر في اتخاذ الرشيد لقرار القاء القبض عليه.

سجاياه وفضائله

لم تكن شخصية الامام موسى بن جعفر عليه السلام بخافية على أحد ممن

عاصره ومن تلاه من أهل العلم والفضل والاجتهاد، فكانوا يعترفون بفضله وعلمه وسمو أخلاقه رغم ان البعض كان يخشى التجاهر بذلك خوفاً من السلطة التي كانت سياستها تنصب على طمس معالم هذه الشخصية الربانية، وتطويق ما كان يشع منها من فضائل واخلاق وعلم.

ورغم قلة ما وصل الينا من معلومات حول جوانب مضيئة كثيرة من حياة هذا العَلَم الاسلامي الشامخ، والكوكب المحمدي المتألّق في سماء العلم والمعرفة والدين، إلاّ انّ هذا القليل الذي وصل الينا يؤكد هو الآخر على مدى سمو شخصيته ورفعة اخلاقه، وذوبانه في دين الله، بحيث كان كآبائه اسلاماً متحركاً، وقرآناً ناطقاً، وخليفة مخلصاً لله في ارضه، يسعى لنشر مبادئ الاسلام، وهداية الناس نحو صراط الله المستقيم، والتأكيد لهم أنّ الإسلام هو الدين الوحيد القادر على معالجة كافة المشاكل الاجتماعية، وارساء دعائم الاخوة والالفة بين الناس، وتطهير القلوب من أدران الحزازات، والاطماع، والنوايا الخبيثة، وصنع مستقبل مشرق وضاء للانسانية المعذَّبة التي عانت ما عانت في ظلّ النظم اللااسلامية.

وقال فيه ابن الصباغ المالكي: واما مناقبه وكراماته الظاهرة وفضائله وصفاته الباهرة تشهد له بأنه انتزع قبّة الشرف وعلاها، ونما الى اوج المزايا فبلغ أعلاها(١٢٧).

وكتب الشيخ المفيد: كان موسى بن جعفر عليه السلام أجل ولد أبي عبد الله قدراً وأعظمهم محلاً وأبعدهم في الناس صيتاً ولم ير في زمانه أسخى منه ولا اكرم نفساً وعشرة. وكان اعبد أهل زمانه، وأورعهم، وأجلّهم،

وأفقههم. واجمع جمهور شيعة ابيه على القول بامامته والتعظيم لحقّه، والتسليم لأمره. ورووا عن ابيه عليه السلام نصاً عليه بالامامة، واشارة اليه بالخلافة، وأخذوا عنه معالم دينهم، ورووا عنه من الآيات والمعجزات ما يقطع بها على حجيته، وصواب القول بامامته[١٢٨].

وكان عليه السلام افقه أهل زمانه وأحفظهم لكتاب الله، وأحسنهم صوتاً للقرآن، وكان اذا قرأ القرآن يحزن، ويبكي السامعون لتلاوته، وكان الناس بالمدينة يسمونه زين المجتهدين[١٢٩].

وكان عليه السلام عالماً متفقهاً في الدين منذ صغره، وهذه خصلة لا تجتمع الّا لأئمة أهل البيت عليهم السلام الذين توارثوا العلم وتناقلوه. وهذا ما اعترف به الامام ابو حنيفة عندما قال:

«رأيت موسى بن جعفر وهو صغير السنّ في دهليز ابيه فقلت:

ـ اين يحدث الغريب منكم اذا أراد ذلك؟

فنظر اليّ ثم قال:

ـ يتوارى خلف الجدار ويتوقى أعين الجار ويتجنب شطوط الأنهار، ومساقط الثمار، وأفنية الدور، والطرق النافذة، والمساجد، ولا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ويرفع ويضع بعد ذلك حيث شاء.

فلما سمعتُ هذا القول منه نبل في عيني وعظم في قلبي. فقلت له:

ـ جعلت فداك ممن المعصية؟

فنظر الي ثم قال:

ـ اجلس حتى اخبرك.

فجلستُ فقال:

ـ انّ المعصية لابد ان تكون: من العبد، أو من ربه، أو منهما جميعاً. فان كانت من الله تعالى فهو أعدل وأنصف من أن يظلم عبده ويأخذه بما لم يفعله. وان كانت منهما فهو شريكه والقوي اولى بانصاف الضعيف، وإن كانت من العبد وحده فعليه وقع الأمر واليه توجه النهي وله حق الثواب والعقاب ووجبت الجنة والنار.

فقلت:

ـ ذرية بعضها من بعض»[١٣٠].

وللامام الكثير من المواقف التي تؤكد تبحره في الفقه الاسلامي وتفوقه على أئمة زمانه في هذا المجال. فقد ورد أن رجلاً افتض جارية معصراً[١٣١] لم تطمث فسال الدم نحواً من عشرة أيام. فاختلف القوابل انه دم الحيض ام دم العذرة. وسألوا ابا حنيفة عن ذلك فقال:

ـ هذا شيء قد اشكل، فلتتوضأ ولتصل وليمسك عنها زوجها حتى ترى البياض.

فسأل خلف بن حماد موسى بن جعفر عن ذلك فقال:

ـ تستدخل القطنة ثم تدعها ملياً ثم تخرجها إخراجاً رقيقاً، فان كان الدم مطوقاً في القطنة فهو من العذرة، وانْ كان مستنقعاً في القطنة فهو من الحيض.

فقال خلف:

ـ جعلت فداك من يحسن هذا غيرك؟!

فرفع الامام يده الى السماء وقال:

- اني والله ما اخبرك إلاّ عن رسول الله عن جبرئيل، عن الله تعالى[(١٣٢)].

وكانت السلطة العباسية قد ادركت البراعة الفقهية لدى الامام الكاظم عليه السلام وتناقل الناس للاجوبة الفقهية الشافية التي كان يقدمها الامام للعويص من المسائل الشرعية، وشعرت انّ ذلك لا يصب في مصلحتها ابداً سيما وهي تحاول طرح غيره من الائمة وتسليط الاضواء عليهم، وفسح المجال للمذاهب الاخرى للعمل والتحرك على امتداد الساحة الاسلامية. لهذا حاول هارون الرشيد مراراً انْ يُفْحِم الامام فقهياً كي يتمكن من هذا الطريق من إسقاطه في اعين الناس ورفع شأن غيره من الفقهاء.

وعلى هذا الصعيد أمر هارون الرشيد ابا يوسف القاضي ان يسأله مسألة فقهية يُربكه فيها.

فوجّه اليه ابو يوسف السؤال التالي:

- ما تقول في التظليل للمحرِم؟

فأجابه المام:

- لا يصلح.

فقال ابو يوسف:

- فيضرب الخباء في الارض ويدخل البيت؟

فقال الامام:

ـ نعم.

وتصوّر ابو يوسف انه قد وجد الطريق لافحام الامام، فقال متعجباً:

- فما الفرق بين الموضعين؟!

وفطن الامام عليه السلام الى ما يريد ابو يوسف، فطرح عليه السؤال التالي:

ـ ما تقول في الطامث؟ اتقضي الصلاة؟

قال ابو يوسف:

ـ لا.

فقال له الامام:

ـ فتقضي الصوم؟

فأجابه:

ـ نعم.

وهنا بادره الامام بالسؤال المحرج التالي:

ـ ولم؟

فأجاب ابو يوسف:

ـ هكذا جاء.

فقال له الامام:

ـ وهكذا جاء هذا.

وهكذا أُسقط في يد ابي يوسف وخاب ظنّ الرشيد به، فالتفت اليه بغضب وقال:

ـ ما اراك صنعت شيئاً.

فأجابه:

ـ رماني من حجر دامغ![١٣٣].

والواقع انّ الامام أراد من هذا الجواب الذي افحم خصمه به أن يؤكد على قضية مهمة في الفقه الاسلامي وهي أنّ احكام الله لا تخضع للقياس سيما وقد ورد عن المعصومين عليهم السلام انّ من قاس احكام الله بعضها على بعض فقد ضلّ عن سواء السبيل.

وضمن دائرة القياس أيضاً يقع السؤال التالي الذي وجهه اليه اخـوه علي بن جعفر:

ـ هل يأكل المحرِم اذا اضطر الصيد أو الميتة؟

فأجابه الامام:

ـ يأكل الصيد.

فقال له:

ـ ان الله عزّ وجل حرم الصيد وأحلّ له الميتة؟

فأجابه الامام:

ـ يأكل الصيد ويفديه فانما يأكل من ماله.

ويبدو انّ موقف نفيع الانصاري من الامام عند باب الرشيد كان بايحاء من السلطة العباسية نفسها، والّا لما تجرأ على محاولته التي هدف بـها النيل من الامام عليه السلام:

فعندما رأى نفيع كيف استُقبل الامام الكاظم عليه السلام بحفاوة بالغة مِن قبل من كان محتشداً عند باب الرشيد انزعج من ذلك وقال:

ـ ما رأيت اعجز من هؤلاء القوم يفعلون هذا برجلٍ يقدر ان يزيلهم عن السرير، اما لأن خرج لأسودنه.

فقال له صاحبه ويدعى عبد العزيز بن عمر:

ـ لا تفعل فانّ هؤلاء أهل بيت قلّ من تعرض لهم في الخطاب وسموه بالجواب سمة يبقى عارها عليه مدى الدهر.

وعندما خرج الامام من عند الرشيد، قام اليه نفيع الانصاري فأخذ بلجام حماره ثم قال بوقاحة:

ـ من انت يا هذا؟

فقال الامام:

ـ يا هذا إن كنت تريد النسب فأنا ابن محمد حبيب الله بن اسماعيل ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله. وانْ كنت تريد البلد فهو الذي فرض الله عز وجل على المسلمين وعليك ـ ان كنت منهم ـ الحج اليه. وان كنت تريد المفاخرة فو الله ما رضى مشركو قومي مسلمي قومك اكفاء لهم حتى قالوا: يا محمد اخرج الينا اكفاءنا من قريش. وانْ كنت تريد الاسم والصيت فنحن الذين أمر الله بالصلاة علينا في الصلاة المفروضة تقول اللهم صل على محمد وآل محمد، فنحن آل محمد.

ثم قال له الامام بعد ذلك:

ـ خلِّ عن الحمار.

فخلّى عنه ويده ترتعد وانصرف مخزياً.

فقال له عبد العزيز متشفياً به:

ـ ألم اقل لك؟!(١٣٤).

والواقع انّ اتصاف الامام موسى بن جعفر عليه السلام بمثل هـذه الصـفات ليس بالأمر الغريب عليه، فلا بدّ أن يتصف الامام بهذه الصفات ولابد له ان يكون بالمستوى الذي يتمكن به من الاجـابة عـلى كـافة الاسـئلة والخروج من كل المضائق والمآزق الشرعية والفكرية لاسيما تلك التي يحاول خصومه انْ يوقعوه بها. بل ان الامام الحقيقي لا يـعرف المآزق، وكيف يعرف المآزق وقد تولى الامامة كي يخرج الأمة من المآزق على جميع الاصعدة ويفتح بوجهها آفاق الحياة السليمة النابضة بالحبّ والأمل والاستقامة.

وأكد الامام موسى بن جعفر عليه السلام على وجوب تحلّي إمام المسلمين بالقابلية على اجابة كل ما يُطرح عليه من اسئلة واشباع النهم الفكـري والثقافي للامة: فقد سأل ابو بصير الامام:

ـ جُعلت فداك، بم يُعرَف الامام؟

فأجابه الامام:

ـ بخصال: اما اولاهنّ فانّه بشيء قد تقدم فيه من ابيه واشارته اليـه ليكون حجة، ويُسأل فيجيب، وإذا سُكت عنه ابتدأ، ويخبر بما في غد، ويكلم الناس بكل لسان.

ولكي يؤكد الامام عليه السلام على كلامه هذا بشكل عملي قال لأبي بصير:

ـ يا ابا محمد، اعطيك علامة قبل ان تقوم.

فلم يلبث ان دخل اليه رجل من أهل خراسان، فكلمهُ الخـراسـاني بالعربية، فأجابه الامام بالفارسية.

فقال له الخراساني:

ـ والله ما منعني ان اكلمك بالفارسية إلاّ انه ظننت انك لا تحسنها!!

فقال الامام:

ـ سبحان الله اذا كنتُ لا أُحسن ان اجيبك فما فضلي عليك فيما استحق به الامامة؟

ثم وجّه الامام كلامه لأبي بصير:

ـ يا ابا محمد انّ الامام لا يخفى عليه كلام أحد من الناس ولا منطق الطير ولا كلام شيء فيه روح (١٣٥).

ومثل هذا أيضاً سؤال الامام لبريه النصراني. فقد سأله الامام عليه السلام يوماً:

ـ كيف علمك بكتابك؟

فقال النصراني:

ـ أنا عالم به وبتأويله.

فابتدأ الامام يقرأ الانجيل. فتعجب بريه من ذلك وقال:

ـ والمسيح كان يقرأ هكذا، وما قرأ هكذا إلاّ المسيح، وانا كنت اطلبه منذ خمسين سنة.

ثم اسلم على يد الامام (١٣٦).

تكافله الاجتماعي

كان الامام موسى بن جعفر عليه السلام قد اشتهر بتفقده لاوضاع المسلمين

وسعيه الجاد المتواصل لمساعدة فقرائهم ومعوزيهم، ومدّ يد العون ما يستطيع لكل من هو بحاجة الى ذلك العون. ولم تكن هذه السجية غريبة على أهل بيت الوحي ومعدن الرسالة، ولا هي غريبة أيضاً على انسان مثله كان يجسّد الإسلام تجسيداً كاملاً ويعي دوره كقيادي رسالي للامة وكمسلم شاعر بالمسؤولية.

وأشاد التاريخ رغم عمليات التعتيم القاسية والرقابة المفروضة التي كانت تحرّم تناقل اخبار أهل البيت وانبائهم وكراماتهم ونشاطاتهم الاسلامية المتألقة، بما كان للامام من تحرك على صعيد اغاثة فقراء المسلمين وتفقد احوال ضعفائهم وقضاء حوائج محتاجيهم.

كان الامام الكاظم عليه السلام على اعتقاد بأنّ «العون للضعيف من أفضل الصدقة»[١٣٧] و «ان لله عباداً في الارض يسعون في حوائج الناس هم الآمنون يوم القيامة، ومن أدخل على مؤمن سروراً فرح الله قلبه يوم القيامة»[١٣٨] و «ثلاثة يستظلون بظل عرش الله يوم لا ظل ظله: رجل زوّج أخاه المسلم أو أخدمه أو كتم له سراً»[١٣٩].

وانطلاقاً من ذلك فقد روى الخطيب في تاريخ بغداد ان موسى بن جعفر عليه السلام كان سخياً كريماً، وكان يصرّ الصرر ثلاثمائة دينار وأربعمائة دينار ثم يقسمها بالمدينة، وكان يُضرب المثل بصرره، اذا جاءت الانسان الصرّة فقد استغنى[١٤٠].

وكان معروفاً في ذلك العصر انه عليه السلام كان يتفقد فقراء أهل المدينة فيحمل اليهم في الليل العبن والورق[١٤١] وغير ذلك فيوصله اليهم وهم لا

يعلمون من اي جهة هو[١٤٢].

ونفهم من ذلك انّ الامام عليه السلام قد وضع برنامجاً للتكافل الاجتماعي واغاثة المحرومين والمستضعفين، ولا بد انه قد استقطب في ذلك البرنامج المؤمنين من أهل الثروة ليزجّ بما تجود به ايديهم في تلك العملية الانسانية الخيّرة فضلاً عما كان لدى الامام من أموال.

وعلى صعيد كرم الامام واعانته لاصحاب الحاجة تحدث عبد الله البكري قائلاً: قدمت المدينة اطلب ديناً فأعياني، فقلت لو ذهبت الى ابي الحسن عليه السلام فشكوت اليه. فأتيته في صنيعته، فخرج اليّ ومعه غلام ومعه منسف فيه قديد مجزّع، ليس معه غيره، فأكلت معه، ثم سألني عن حاجتي فذكرت له قصتي فدخل ولم يقم إلّا يسيراً حتى خرج اليّ فقال لغلامه: اذهب! ثم مدّ يده اليّ فناولني صرة فيها ثلاثمائة دينار، ثم قام فقمت فركبت دابتي وانصرفت[١٤٣].

والواقع انذ هذا اللون من الدعم المادي الذي اتخذه الامام ومن سبقه ومن تلاه من الائمة يعبّر عن سموّ في النفس ورفعة في الخلق فضلاً عن كونه سنّة اسلامية حسنة تحفظ للجهة التي أُسدي إليها الدعم عزّتها وكرامتها وماء وجهها. فالامام الكاظم عليه السلام ومن خلال تقديم مساعداته المالية ليلاً وبعيداً عن انظار الناس ودون ان يعرف حتى غلامه بذلك ـ كما في قصة البكري ـ كان يحرص على اشاعة هذا النمط من التكافل والدعم الاجتماعي بعيداً عن عملية التطبيل أو التبجح التي ترافق هذا النوع من المساعدات لدى الآخرين مما يكون بالتالي على حساب المكانة

الاجتماعية للشخصيات المدعومة، وهي عملية يرفضها الإسلام وائـمة أهل البيت عليهم السلام الذين يسيرون على خطى الاسلام.

ونلاحظ ذلك التكافل الاجتماعي الذي كان يرعاه الامام على مختلف الاصعدة وهو ما يؤكد على انّ الامام انما كان يقوم بـذلك شـعوراً مـنه بمسؤوليته كزعيم حقيقي للمسلمين ولابد له مع هذه الزعـامة الربـانية وتلك المسؤولية المترتبة عليها انْ يتحرك على كافة تلك الاصـعدة مـا يستطيع. وفي هذا المجال روى الخطيب البغدادي عن عيسى بن محمد بن مغيث القرظي قوله:

زرعت بطيخاً وقثاء وقرعاً في موضع بالجوانية على بئر يقال لها «ام عظام»، فلما قرب الخير واستوى الزرع بغتني الجراد فأتى عـلى الزرع كله، وكنت غرمت على الزرع وفي ثمن جملين مائة وعشرين ديـناراً. فبينما أنا جالس إذ طلع موسى بن جعفر بن محمد فسلّم ثم قال:

ـ ايش حالك؟

فقلت:

ـ اصبحت كالصريم، بغتني الجراد فأكل زرعي.

فقال الامام:

ـ وكم غرمت فيه؟

فقلت:

ـ مائة وعشرين ديناراً مع ثمن الجملين:

فقال الامام:

ـ يا عرفة زن لأبي المغيث مائة وخمسين ديناراً، فنربحك ثلاثين ديناراً والجملين.

فقلت:

ـ يا مبارك ادخل وادع لي فيها!

فدخل، ودعا، وحدثني عن رسول الله ﷺ انه قال: تمسكوا ببقايا المصائب(١٤٤).

وكان الامام عليه السلام لا ينسى وهو يقدم ما تجود به يده من مساعدات ان يلفت انظار اصحاب الحاجة الى دورهم كمسلمين في هذه الحياة ويذكرهم ببعض القضايا العقائدية المهمة التي ربما غفل عنها الناس بفعل الجو السياسي المخيّم على الامة.

وكنموذج على ذلك اقبل اليه يوماً فقير يسأله سدّ فاقته، فضحك الامام في وجهه وقال له:

ـ اسألك بمسألة فانْ اصبتها اعطيتك عشرة أضعاف ما طلبت، وإن لم تصبها اعطيتك ما طلبت.

فقال الرجل:

ـ سل!

فقال الامام:

ـ لو جُعل إليك التمني في نفسك في الدنيا ماذا كنت تتمنى؟

فقال الرجل الفقير:

ـ اتمنى ان أُرزق التقية في ديني وقضاء حقوق اخواني.

فقال الامام:

ـ فمالك لا تسأل الولاية لنا أهل البيت؟

فقال:

ـ ذلك قد أُعطيته وهذا لم نعطه. فأنا اشكر الله على ما اعطيت وأسأل ربي عزّ وجل ما منعت.

فقال الإمام:

احسنت.

ثم وهبه الفي(١٤٥).

والإما عليه السلام كما مرّ لم يكن ينتظر من الفقير ان يطرق بابه ليـقدم له العون والمساعدة، وانما كان في أغلب الأحيان يتفقّد اوضاع المسلمين ويتحرّى شؤونهم ويتنسّم أخبارهم كي يبادر الى اغاثة الملهوف مـنهم ودعم المعسر وقضاء حاجة المحتاج. وهذا اللون من التحرك الاجتماعي يُعدّ ذروة السلوك الإسلامي وقمة الشعور بالمسؤولية. وكان يقوم بعملية التفقّد تلك بنفسه في بعض الأحيان عندما يرى انّ ذلك أمراً ضرورياً.

ومن ذلك التفقّد، مرّ برجل من أهل السواد دميم المنظر، فسلّم عليه ونزل عنده وحادثه طويلاً، ثم عرض عليه نفسه في القـيام بـحاجة إن عرضت له.

فقيل له:

ـ يا ابن رسول الله أتنزل إلى هذا ثم تسأله عن حوائجه وهـو إليك أحوج.

فقال لهم الإمام:

ـ عبد من عبيد الله، وأخ في كتاب الله، وجار في بلاد الله، يجمعنا وإياه خير الآباء آدم، وأفضل الأديان الاسلام. ولعل الدهر يرد من حاجتنا اليه، فيرانا بعد الزهو عليه متواضعين بين يديه[١٤٦].

وهكذا يطرح الإمام الأُسس المبدئية التي دفعته لدعم الأشخاص بعيداً عن التأثيرات العصبية والنزعات النفسية وكل شكل من أشكال البعد عن الدائرة الإلهية. والأُسس التي طرحها الإمام هي: الاشتراك في العبودية والدين والانسانية. وهل هناك منطق اروع من هذا؟ انه المنطق الاسلامي في ابهى صوره، وأروع اشكاله، المنطق الذي دوّى على لسان القرآن والنبي الذي نزل عليه القرآن.

وكان كرم الامام ودعمه للمسلمين يمتزج بالعفو والحلم في بعض الاحيان، اذا كان يرى ذلك مؤثراً في كشف الحقيقة وتبصير مَن حجبت قلوبهم اغشية التعصّب والجهل، وهداية من اضلتهم ابواق السلطة الاعلامية، بالضبط كما فعل مع العمري:

كان في المدينة رجل عمري يؤذي الامام عليه السلام ويسبّه إذا رآه، ويشتم علياً عليه السلام. فقال بعض اصحاب الامام له يوماً:

ـ دعنا نقتل هذا الفاجر.

فنهاهم الامام عن ذلك اشدّ النهي وزجرهم.

وسأل الامام عن العمري فقيل له انه يزرع بناحية من نواحي المدينة. فركب اليه، فوجده في مزرعة له، فدخل المزرعة بحماره. فصاح به العمري:

ـ لا توطئ زرعنا.

فتوطأه بالحمار حتى وصل اليه ونزل وجلس عنده وباسطه وضاحكه، وقال له:

ـ كم غرمت على زرعك هذا؟

فقال:

ـ مائة دينار.

فقال له الامام:

ـ فكم ترجو أن تصيب؟

قال:

ـ لستُ أعلم الغيب.

فقال الامام:

انما قلت كم ترجو ان يجيئك فيه؟

قال:

ـ ارجو ان يجيئ مائتا دينار.

فأخرج له الامام صرة فيها ثلاثمائة دينار، وقال له:

ـ هذا زرعك على حاله، والله يرزقك فيه ما ترجو.

فقام العمري فقبل رأس الامام، وسأله ان يصفح عما بدر منه من سوء ادب.

فتبسم اليه الامام وانصرف.

وأثر ذلك الموقف الاسلامي الرائع على العمري ايما تأثير. فعندما

دخل الامام المسجد وجد العمري جالساً فيه، فلما نظر الى الامام قال:

ـ الله أعلم حيث يجعل رسالته.

فلما رجع الامام الى داره قال لجلسائه الذين سألوه قتل العمري:

ـ ايما كان خيراً ما أردتم أم ما أردتُ؟

ثم واصل الامام كلامه:

ـ انني أصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتم وكفيت به شره(١٤٧).

وعلى صعيد العون الممتزج بالعفو نذكر الخبر التالي ايضاً:

كان الامام في حائط له يصرم، فإذا غلام له قد اخذ كارة من تمر فرمى بها وراء الحائط. فأتى به احدهم الى الامام وقال له:

ـ جعلت فداك اني وجدت هذا وهذه الكارة.

فقال الامام للغلام:

ـ أتجوع؟

فقال:

ـ لا يا سيدي.

فسأله الامام:

ـ فتعرى؟

فقال:

ـ لا يا سيدي.

فقال له الامام:

ـ فلأي شيء اخذت هذه؟

فقال الغلام:

ـ اشتهيت ذلك.

فقال الامام:

ـ اذهب فهي لك[١٤٨].

وكانت استجوابات الامام للغلام يقف خلفها دافعان: الاول، بما انّ العملية كانت عملية سرقة فكان يتوجب على الامام ان يحاسبه على ذلك كي لا يتكرر منه ولا من زملائه مثل هذا العمل المشين، والثاني، انّ الامام كان يريد ان يقف على الدافع الحقيقي الذي دفعه لعملية السرقة تلك، فقد يكون الجوع أو العوز هو الذي دفعه لذلك، وفي هذه الحالة كان يجب على الامام دفع الجوع والحاجة عنه.

على أيّ حال فان الامام ورغم كرمه وجوده، الّا انه كان لا يرى ذلك جوداً، وانما للجود معنى آخر من وجهة نظره. فقد سأله رجل عن الجواد، فقال عليه السلام:

ـ «إن كنت تسأل عن المخلوقين فانّ الجواد الذي يؤدي ما افترض الله عليه، والبخيل من بخل ما افترض الله. وإنْ كنت تعني الخالق فهو الجواد إن اعطى، وهو الجواد إن منع، لانه إن اعطاك اعطاك ما ليس لك، وانْ منعك منعك ما ليس لك»[١٤٩].

عبادته وتقواه

العبادة في الإسلام معناها الاذعان والخضوع له تعالى والانصياع

لأوامره والانتهاء عن نواهيه، وعلى هذا الاساس تكون اعمال وسلوكيات المسلم المطيع المنقاد لله تعالى أعمالاً عبادية تقع ضمن اطار عبودية الله. وعلى هذا الاساس أيضاً تكون الطقوس العبادية كالصلاة والصوم وغيرها جزءاً من هذه العبادة أو إقراراً قلبياً ونفسياً بالعبودية لله وتعبيراً عملياً عن الخضوع له وتجسيداً لما يجب ان يقدمه العبد من شكر وثناء للربّ الذي أغدق عليه كل هذه النعم وهداه الى طريق الحق والاستقامة، وترجماناً معنوياً لحاجة العبد الى الله تعالى في كل حين وشعوره بوجوب استمرار تلك العلاقة بينه وبين ربّه، لأنّ في استمرارها استمراراً لحياته في أروع صورها، وأبهى أشكالها، حيث لا مجال فيها للخضوع لأرباب مزيفين وعبوديات مشينة تفرض على الانسان ان يدوس على فكره وضميره وقيمه ليتحول الى اداة ميكانيكية تخدم مصالح الاشرار والطواغيت.

فالمسلم الرسالي يجسّد العبويدة لله تعالى في كل انطلاقة له على طريق الله، وفي كل حركة يتحركها بايحاء من الامر الالهي، وفي كل كلمة يقولها انطلاقاً من المسؤولية الالهية، وفي كل عمل يقوم به بدافع من الاهتمام بمصالح المسلمين. أو بعبارة اخرى: المسلم هو عابد لله تعالى ويمارس تلك العبودية باستمرار ما دام هدفه مرضاة الله، وما دامت حركته حول هذا المحور ومسيرته باتجاه الله تعالى.

وجسّد أئمة أهل البيت عليهم السلام هذه العبودية بأسمى الوانها وأروع أشكالها، فكانت حياتهم بأسرها عبودية محضة لله ودوراناً لاحباً مستمراً حول مركز الرضا الالهي، ولم تكن العبادة عندهم تعني مجرد الطقوس

العبادية، كما نشاهد ذلك عند الآخرين الذين نرى حتى طقوسهم العبادية طقوساً ميتة لا حياة فيها ولا روح.

وكان الامام موسى بن جعفر وتأسيّاً منه بجده رسول الله صلى الله عليه وآله وآبائه ائمة الهدى عابداً حقيقياً لله تعالى معبّراً عن هذه العبودية اسمى تعبير في كل خطوة كان يخطوها، وموقف كان يتخذه، وحديث كان يتحدث به. كما كان عليه السلام ورعاً غاية الورع وتقياً منتهى التقوى، وخشياً لله ومؤمّلاً لرحمته وراجياً لفضله وعارفاً به حقّ ما يستحقّه سبحانه من عرفان. ولهذا كان يترجم ذلك الورع والتقوى وتلك الخشية والرجاء والعرفان على شكل صلاة وسجود ودعاء وتبتل ودموع تعبيراً عن حبّه لله وعرفانه بحقّه وتعظيماً له وطمعاً في رضوانه.

لقد وصفه الشيخ المفيد بقوله:

كان ابو الحسن موسى أعبد أهل زمانه وأزهدهم وافقههم وأسخاهم كفاً وأكرمهم نفساً. وروي انه كان يصلي نوافل الليل ويصلها بصلاة الصبح، ثم يعقّب حتى تطلع الشمس. وكان يبكي من خشية الله حتى تخضل لحيته[١٥٠].

وقال ابن حجر الهيثمي المكي:

وهو وارثه (الصادق) علماً ومعرفة وكمالاً وفضلاً، سمي الكاظم لكثرة تجاوزه وحلمه، وكان معروفاً عند أهل العراق بباب قضاء الحوائج عند الله، وكان اعبد أهل زمانه وأعلمهم وأسخاهم[١٥١].

وأثنى عليه عبد الرحمن بن الجوزي قائلاً:

موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ابو الحسن الهاشمي كان يُدعى العبد الصالح لأجل عبادته واجتهاده وقيامه بالليل(١٥٢).

وأطراه الخطيب البغدادي:

كان موسى بن جعفر يُدعى العبد الصالح من عبادته واجتهاده. روي انه دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فسجد سجدة في أول الليل وسُمِع وهو يقول في سجوده: عظم الذنب عندي فليحسن العفو عندك يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة، فجعل يرددها حتى اصبح(١٥٣).

ومن الطبيعي ان ينعكس الايمان بالله ـ إذا كان عن عرفان واخلاص ـ على شكل عبادة واجتهاد وشعور بالذنب وطلب للمغفرة وتعفير للجبين. انها علامات الايمان والتقوى وصدق التعامل مع الله سبحانه.

وكان الامام الكاظم عليه السلام يحمل الايمان بالله والاعتراف بربوبيته والاقرار بسلطانه منذ نعومة اظفاره، وهذه ميزة تميّز بها أئمة الهدى وآل البيت النبوي عليهم السلام. فذكر معاوية بن وهب في هذا الشأن قائلاً:

دخلت على ابي عبد الله الصادق عليه السلام فرأيت ابا الحسن موسى عليه السلام وله يومئذ ثلاث سنين ومعه عَناق(١٥٤) وهو آخذ بخطامها ويقول لها: اسجدي لربك! فلا تفعل ذلك ثلاث مرات.

فقال غلام له صغير:

ـ يا سيدي، قل لها: تموت!

فقال موسى:

ـ ويحك أنا احيي واميت؟! الله يحيى ويميت[155].

كانت الصلاة جزءاً لا يتجزأ من حياة الامام الكاظم عليه السلام وكيف لا تكون كذلك وهي عمود الدين واساس العبادة والترجمان الحقيقي للعبودية. ولم يكن ليقتصر الامام على الصلوات الواجبة، بل كان يصلي النوافل بأسرها لا سيما نوافل الليل، فكان يحيي ليله بالصلاة والدعاء والتضرع الى الله. وكان يخر لله ساجداً بعد طلوع الشمس فلا يرفع رأسه من الدعاء والتحميد حتى يقرب زوال الشمس[156].

وكان الدعاء لوناً من ألوان العبادة التي يجد فيها نشوته الروحية، وهدوءه المعنوي، ووسيلته للتقرب من الله، والتحليق في سماء رحمته ورضوانه، والتزود منه بزاد اليقين والمعرفة، لمواصلة الطريق الرباني بارادة واصرار وقابلية على تحمل الأذى في الله.

فمن ادعيته التي كان يرددها سلام الله عليه:

* اللهم اسألك الراحة عند الموت والعفو عند الحساب[157].

* عظم الذنب من عبدك فليحسن العفو من عندك[158].

* هذا مقام من حسناته نعمة منك وشكره ضعيف وذنبه عظيم، وليس لذلك إلاّ رفقك ورحمتك، فانك قلت في كتابك المنزل على نبيك المرسل ﴿وكانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالاسحار يستغفرون﴾، طال هجوعي، وقلّ قيامي، وهذا السحر، وانا استغفرك لذنبي استغفارك من لا يجد لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً[159].

* عصيتك بلساني ولو شئت وعزتك لأخرستني وعصيتك ببصري ولو

شئت وعزتك لأكمهتني[١٦٠]، وعصيتك بسمعي ولو شئت وعزتك لأصممتني، وعصيتك بيدي ولو شئت وعزتك لكنعتني[١٦١]، وعصيتك برجلي ولو شئت وعزتك لجذمتني، وعصيتك بجميع جوارحي التي انعمت بها علي، وليس هذا جزاؤك مني[١٦٢].

وعلّق المحدث الكاشاني حول إظهار المعصوم لنفسه في الدعاء عاصياً مذنباً مقترفاً كل هذه الآثام، يقول:

«إنْ قيل كيف يصدر عن المعصوم مثل هذا الدعاء، قلنا: إنّ الانبياء والائمة عليهم السلام لما كانت اوقاتهم مستغرقة في ذكر الله وقلوبهم مشغولة به جلّ شأنه وخواطرهم متعلقة بالملأ الاعلى، وهم ابداً في المراقبة، فكانوا اذا اشتغلوا بلوازم البشرية من الاكل والشرب والنكاح وسائر المباحات عدّوا ذلك ذنباً وتقصيراً. كما انّ الذين يجالسون الملوك لو اشتغلوا وقت مجالسته وملاحظته بالالتفات الى غيره، لعدّوا ذلك تقصيراً واعتذروا منه. وعليه يُحمل ما ورد انّ النبي صلى الله عليه وآله كان يتوب الى الله عزّ وجل كل يوم سبعين مرة»[١٦٣].

وكان السجود ميّزة معروفة للامام الكاظم عليه السلام، فالسجود تعبير عن منتهى الطاعة والانقياد والشكر، وترجمة لذروة العبودية، بحيث يؤكد فيه الانسان لربه انه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا بامكانه ان يكون شيئاً ما امام القدرة الالهية والهيمنة الربانية على الكون. وما الطاقات التي يزخر بها الانسان والكون سوى هبة من الله تعالى وتفضل منه وترحم منه على البشرية التي تستمد حياتها ووجودها من وجوده، وحركتها من

نفحات جوده وكرمه.

كان عليه السلام يخرّ ساجداً بعد كل صلاة وبعد كل دعاء، وقد تطول سجدته لعدة ساعات، وقد يقول «العفو العفو» في السجدة الواحدة الف مرة، ويلصق خده الايمن بالارض بعد كل سجدة وهو يقول بصوت حزين: «بؤت إليك بذنبي عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي انه لا يغفر الذنوب غيرك يا مولاي»، يكرر ذلك ثلاث مرات، ثم يلصق خده الايسر بالارض ويقول: «ارحم من اساء واقترف واستكان واعترف» ثلاث مرات ايضاً(١٦٤).

وكان يكثر من سجوده أيضاً كلما انعم الله عليه بنعمة تعبيراً عن شكره لله تعالى على هذه النعمة. فقال هشام بن احمر: كنت اسير مع ابي الحسن عليه السلام في بعض اطراف المدينة إذ ثنى رجله عن دابته، فخرّ ساجداً فأطال وأطال، ثم رفع رأسه وركب دابته، فقلت له:

ـ جُعلت فداك، قد اطلت السجود؟!

فقال عليه السلام:

ـ اني ذكرت نعمة أنعم الله بها عليّ، فأحببتُ ان اشكر ربي(١٦٥).

ومن هذا نفهم انّ السجود لله لم يكن يعرف عند الامام الكاظم عليه السلام وقتاً معيناً ولا فترة زمنية خاصة، وانما يستوعب حياته بأسرها، لهذا نراه وبمجرد ان يذكر نعمة الله عليه يترجّل عن ظهر دابته ويهوي على الارض ساجداً لله، ولم يؤخّر ذلك السجود الى وقت آخر، ولماذا يؤخّره؟ والله تعالى لم يؤخّر نعمته عليه ولم يكن تعامله معه على الوقت.

وقد وجد سلام الله عليه في السجن فرصة ذهبية للتفرغ لعبادة الله والانقطاع اليه واداء ما يستحقه من الشكر والحمد. وطالما سمع الجواسيس ـالذين وضعهم هارون الرشيد للتجسس عليه ونقل اخباره اليه ـ الامام عليه السلام وهو يكثر في دعائه من قول:

«اللهم انك تعلم اني كنت اسألك ان تفرغني لعبادتك. اللهم وقد فعلت ذلك، فلك الحمد»(١٦٦).

وهكذا، فالسجن الذي قد يرى فيه الكثيرون عقاباً وعذاباً وعمراً ضائعاً، كان يرى فيه الامام الصابر محراباً لعبادة الله ومختلىً للخلوة به، ومحلاً يتضرّع فيه الى الله بعيداً عن هموم الحياة العادية ومشاكلها، وبمعزل عن ضوضاء الاماكن العامة وصخب الناس وفضول الآخرين. والسجن الذي يهبط بمعنويات الكثيرين ويغيّر من نفسياتهم ويزعزع ثقتهم بمبادئهم، كان معراجاً للامام الى الله ومرتقى لنفسه نحو التسامي في آفاق العرفان الالهي، ومصدراً لمزيد من الاصرار على المبدأ والتمسك بالعقيدة والتكبّر على الطواغيت والرفض للانحناء أمام ارادة الشر والشيطان.

ووصف الفضل بن الربيع الامام الكاظم عليه السلام عندما كان سجيناً لديه بقوله: اني اتفقده في الليل والنهار فلا اجده في وقت الّا على هذه الحالة: انه يصلي الفجر فيعقب ساعة في دبر الصلاة الى ان تطلع الشمس، ثم يسجد سجدة فلا يزال ساجداً حتى تزول الشمس. وقد وكل من يترصد له الزوال فلست ادري متى يقول الغلام قد زالت الشمس اذ يثب فيبتدي

في الصلاة من غير ان يحدث حدثاً فأعلم انه لم ينم في سجوده ولا اغفى.

ولا يزال كذلك الى ان يفرغ من صلاة العصر فإذا صلى العصر سجد سجدة فلا يزال ساجداً الى ان تغيب الشمس فإذا غابت الشمس وثب من سجدته فصلى المغرب ولا يزال في صلاته وتعقيبه الى ان يصلي العتمة، فاذا صلى العتمة افطر على شوي يؤتى به ثم يجدد وضوءه ثم يسجد ثم يرفع رأسه فينام نومة خفيفة، ثم يقوم فيجدد الوضوء ثم يقوم فلا يزال يصلي في جوف الليل حتى يطلع الفجر، فلستُ أدري متى يقول الغلام ان الفجر قد طلع اذ قد وثب هو لصلاة الفجر، فهذا دأبه منذ حُوّل الي(١٦٧).

وكان هارون الرشيد يقوم احياناً بتجسس أوضاع الإمام عليه السلام بنفسه ليطمئن على وجوده في السجن حيث كان يخشى ان يقوم أحد باطلاق سراحه. وكان يصعد مع الربيع كل يوم سطحاً يشرف منه على الحبس الذي زجّ فيه بالامام فيرى ثوباً مطروحاً على الارض، والتفت يوماً الى الربيع قائلاً:

ـ يا ربيع ما ذاك الثوب الذي اراه كل يوم في ذلك الموضع؟

فيقول له الربيع:

ـ ما ذاك بثوب وانما هو موسى بن جعفر، له في كل يوم سجدة بعد طلوع الشمس الى وقت الزوال.

فيقول له هارون:

ـ اما إنّ هذا من رهبان بني هاشم!

فيقول له الربيع:

ـ فما لك قد ضيقت عليه الحبس؟

فيرد عليه الرشيد قائلاً:

ـ هيهات لابد من ذلك![١٦٨].

وهذه الشهادة من خصمه اللدود خير دليل على تألّق هذا الكوكب العلوي الساطع في سماء العبودية، وفناء هذا الخلف المحمدي في الله، وانقطاع هذا العارف الرباني الى الله واستئناسه به وتلذذه بعبادته، وهل هناك الذّ من التهجد بين يدي الخالق والتسبيح له والبكاء عند اعتابه لدى العارفين؟

ولكن هل يستحق هذا العارف العابد العاشق لله ذلك السجن والتضييق والنفي عن البلاد والاهل؟

وقد اجاب الرشيد نفسه على ذلك عندما قال للربيع: هيهات لابد من ذلك!

نعم لابد من إلقاء الإمام في السجن كي يشعر الرشيد بالارتياح، حيث يخاف الطغاة مثل هؤلاء العُبّاد الزاهدين في الدنيا الرافضين للخنوع الواعين لدورهم الرسالي. فالطواغيت لا تخيفهم العبادة عندما تكون انقطاع عن المجتمع وهمومه ومشاكله، وانعزال عن الأمة وتطلعاتها الخيّرة، وتنصّل عن المسؤوليات، والطواغيت لا يعيرون اهمية للعبادة عندما تكون مجرد صلاة وصيام وتسبيح جاف لا ينعكس على السلوك ولا يؤثر في حركة الفرد داخل المجتمع، بل ويشجع الطواغيت هذا النوع

من العبادة التي لا تنسجم مع الإسلام كنظام الهي اجتماعي كامل. وانما يخشى الطغاة من العبادة عندما تكون من نوع عبادة الامام الكاظم عليه السلام، وعندما تكون انقياداً كاملاً لله وصدوراً عن كافة ما أمر به واستجابة لكافة ما دعا اليه، وعندما تكون معايشةً للمبادئ الالهية وتحرّقاً دائماً من اجل تطبيقها بكاملها دون زيادة أو نقصان ودون اسدال ستار النسيان على بعضها، وعندما تكون إصراراً على قول كلمة الحق في وجه السلطان الظالم، وعندما تحبب السجن الى العبد بحيث يتخذه مسجداً للتقرب أكثر فأكثر من الخالق المتعال.

الفصل الرابع

الامام الكاظم عليه السلام والخلفاء العباسيون

كان عمر الامام موسى بن جعفر عليه السلام أربع سنوات حينما انقرضت السلالة الأموية وحلت محلها السلالة العباسية، ولهذا عاصر خمسة خلفاء عباسيين هم: ابو العباس السفاح، وابو جعفر المنصور، ومحمد المهدي وموسى الهادي، وهارون الرشيد. الّا انه ادرك كإمام عشر سنوات من عهد المنصور، وعهدي المهدي والهادي، و ١٣ عاماً من عهد الرشيد.

وكان الامام الكاظم عليه السلام ورغم صغر سنه يتابع ما كان يجري من احداث في عهد ابيه الامام الصادق عليه السلام ويطلع عن كثب على الممارسات التي كان يمارسها المنصور العباسي والولاة العباسيون، ويتفحّص بنظرة ثاقبة مرامي السلطة العباسية وأهدافها.

ورغم انشغال السلطة العباسية في بداية نشوئها بقضية تثبيت دعائمها وترسيخ وجودها، إلاّ انها لم تغفل مع ذلك عن مراقبة البيت العلوي ومن ثم اتباع سياسة التصدي العنيف لهذا البيت خاصة بعد ان استقامت الأمور للمنصور الذي آل على نفسه تصفية الشخصيات العلوية والقضاء عليها ضمن عملية ارهابية دموية قلما شهد لها التاريخ مثيلاً.

ونظراً لمعايشة الامام الكاظم عليه السلام لكافة تلك الممارسات وذلك الجو المشحون بالتألب على أهل البيت، فقد ارتأينا ان نستعرض باختصار

تلك الظروف التي كانت سائدة في أيام الخلفاء العباسيين الأربعة الذين عاصرهم كامام وما جرى في عـهودهم مـن ويـلات ومـصائب عـلى العلويين ومواقف الامام الكاظم عليه السلام بقدر ما يتوفر لدينا من معلومات، لاننا نعلم ـ وكما اشرنا الى ذلك من قبل ـ انّ السلطة العباسية سعت جادة ـ ومن خلال سلاحي الإعلام والارهاب وسياسة تقريب الآخرين وفسح المجال لهم للنمو على حساب الشخصيات العلوية ـ لطمس اخبار أهل البيت والتعتيم على ائـمتهم وفـرض الرقـابة الصـارمة عـلى اخـبارهم ومواقفهم.

١ ـ اوضاع الساحة الاسلامية في أيام ابي جعفر المنصور

توفي ابو العباس السفاح في ١٣٦هـ فخلفه اخوه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس المعروف بأبي جعفر المنصور والذي كان اكبر من اخيه السفاح.

وعندما تولى المنصور شؤون السلطة، كان العلويون قد ادركوا انّ العباسيين خدعوهم عندما كانوا يرفعون شعار الدعوة لأهل البيت والرضا من آل محمد، وبدا ابو جعفر اكثر تصميماً على التشبث بالحكم والتمسك بالسلطة ومواجهة كافة ما يمكن ان يشكل خطراً عليه، وظهر أشد اصراراً على الالتفاف على العلويين والتعامل معهم بمنطق القمع والشدة، بعد أنْ ادرك انّ ذلك الاسلوب، هو الأسلوب الوحيد الذي يمكن ان يخرس به الافواه المطالبة بحقها في الحكم واحقيتها في خلافة المسلمين.

الايقاع بأبي مسلم

لعب ابو مسلم الخراساني كما مرّ من قبل دوراً أساسياً في نجاح الدعوة العباسية المتسترة بستار أهل البيت، وتقويض صرح الحكم الاموي، وظهور الدولة العباسية الى الوجود. ولولا الجهود التي قام بها ابو مسلم في خراسان والجيوش التي اعدّها وهزم بها الجيوش الاموية، لما

قامت للعباسيين قائمة.

وهناك اختلاف بين المؤرخين في أصل ابي مسلم الخراساني، لكنّ المرجّح انه فارسي ولد بالقرب من مدينة اصفهان عام ١٠٨هـ ووجد فيه ابراهيم الامام شجاعة وخصالاً يمكن ان يفيد منها في دعوته، وأطلق عليه اسم عبد الرحمن بعد ان كان اسمه عثمان بن يسار، واشتهر بأبي مسلم فيما بعد.

واتّسم ابو مسلم بالحماس المنقطع النظير للعباسيين لاسيما وقد كان شاباً طموحاً وجد في تلك الحركة ما يمكن ان يلبّي طموحه ويحقق ما كان يصبو اليه من آمال وتطلعات. وانتهج اسلوب الشدة والقسوة في التعامل مع كل ما يمكن ان يكون معرقلاً للحركة التي كان يتزعمها في خراسان وكل من يشم منه رائحة المعارضة. ولهذا كان يقارن بالحجاج بن يوسف الثقفي من حيث الدموية والارهاب.

وقد قيل لعبد الله بن المبارك يوماً: ابو مسلم كان خيراً أو الحجاج؟

فقال: لا اقول إن ابا مسلم كان خيراً من احد، ولكن الحجاج كان شراً منه(١٦٩).

ومن دمويته: انه خطب يوماً فقام اليه رجل فقال: ما هذا السواد الذي أراه عليك؟

فقال: حدثني ابو الزبير عن جابر بن عبد الله انّ النبي صلى الله عليه وآله دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء، وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة.

وبعد أن وضّح ابو مسلم سبب ارتدائه للثياب السوداء نادى على

غلامه قائلاً: يا غلام اضرب عنقه[١٧٠].

وهكذا كان جزاء ذلك الرجل القتل لأنه تجرأ وسأل ابا مسلم عن سبب لبس السواد!

وأشار ابو مسلم في رسالة له الى المنصور بما كان يقوم به من قتل للنفوس البريئة وانتهاك للحرمات وسفك للدم، اطاعةً للعباسيين، وتنفيذاً لاوامرهم:

«كنت ـ يريد المنصور ـ اتخذت اخاك ـ اي السفاح ـ إماماً وجعلته على الدين دليلاً لقرابته والوصية التي زعم انها صارت اليه، فأوطأ بي عشوة الضلالة، وارهقني في ربقة الفتنة، وامرني ان آخذ بالظنة، وأقتل على التهمة، ولا اقبل المعذرة، فهتكتُ بأمره حرمات حتم الله صونها، وسفكتُ دماء فرض الله حقنها، وزويتُ الأمرَ عن أهله، ووضعته في غير محله»[١٧١].

ونشاهد في هذه الرسالة اعتراف ابي مسلم أيضاً بصرفه للامر عن اهله وهم أهل البيت عليهم السلام ووضعه في غير محله وهم العباسيون، وهذا ما يؤكد على اسلوب الخداع الذي نهجه العباسيون وما قاموا به من تضليل للامة خلال مرحلة الدعوة السرية، وتواطؤ ابي مسلم معهم في عملية الخديعة تلك.

والدليل الآخر على تواطئ ابي مسلم مع العباسيين ومعارضته لأهل البيت عليهم السلام هو موقفه من الثائر العلوي عبد الله بن معاوية بن عبد الملك ابن جعفر بن ابي طالب.

تزامنت حركة عبد الله بن معاوية مع الدعوة العباسية، وكان يرفع شعار الدعوة الى الرضا من آل محمد وهو نفس الشعار الذي كان يرفعه العباسيون. وامتدت دعوته الى معظم مدن العراق وايران، واتخذ من اصفهان مركزاً لدولته العلوية وذلك في عام ١٢٩هـ منتهزاً الفوضى السياسية التي شهدتها الدولة الاموية آنذاك وانقسام البيت الاموي على نفسه.

وبعث عبد الله الى كافة الهاشميين علويين وعباسيين يدعوهم اليه ليساهموا معه في تدبير شؤون الدولة الجديدة. وقد رأى العباسيون في هذه الحركة العلوية خطراً على حركتهم التي لا تلتقي معها في الأهداف وانْ التقت في الشعار لكنهم رأوا من الحكمة انْ يلتحقوا بها عسى ان يلتفوا عليها ويحققوا من خلالها ما يرومون تحقيقه من اهداف. وكان السفاح والمنصور من بين الملتحقين، وولى عبد الله بن معاوية ابا جعفر على كورة «ايزج».

غير ان الخليفة الاموي مروان بن محمد افلح في الوصول الى الحكم آخر المطاف وقرر ان يسير على نهج من سبقه من خلفاء بني امية في قمع العلويين. وبعث بالجيوش لقتال عبد الله بن معاوية ودارت معارك ضارية بين الجانبين سجّل عبد الله الانتصار في بداياتها، لكنه انهزم اخيراً لأن جيشه لم يكن يتألف من اناس على نمط عقائدي واحد، وانما كانوا على عقائد شتى ـ بما فيهم الخوارج ـ جمعتهم المعارضة الاموية تحت راية واحدة.

وهرب عبد الله ومعه اخواه الحسن ويزيد وجماعة من اصحابه الى خراسان طمعاً في الوصول الى ابي مسلم الخراساني الذي كان يدعو هو الآخر للرضا من آل محمد، ظاناً انه سيحتضنه ويدعمه نظراً لاشتراكهما في دعوة واحدة وهدف واحد. ولم يكن الرجل على معرفة بحقيقة ابي مسلم، وما كان يدور في خلده انه قد اتخذ من آل محمد وسيلة لتنفيذ المرامي العباسية.

وعندما وصل الى نواحي هراة القى ابو نصر مالك بن الهيثم الخزاعي القبض عليه وعلى من معه، ثم سأله عن سبب قدومه الى خراسان فقال له: بلغني انكم تدعون الى الرضا من آل محمد فأتيتكم!

وأرسل ابو نصر الى ابي مسلم يعرفه خبره، فورد عليه كتاب ابي مسلم يأمره بقتله. فأمر من وضع فراشاً على وجهه فمات(١٧٢).

وعلّق المستشرق «فلهوزن» على مصرع عبد الله على يد ابي مسلم بقوله: كان ابو مسلم قد ظهر بمظهر المطالب بثأر يحيى بن زيد، لما يعلمه من تأثير ذلك في النفوس، ولذلك كان ابن معاوية يعتقد انه اذا خرج الى خراسان فهو مصيب مكاناً اميناً، ولكنه أخطا ظنه في ابي مسلم، لأنّ ابا مسلم لم يكن عنده مكان لعلوي حيّ أكثر مما كان عنده لعلوي ميت(١٧٣).

ولهذا كان موقف الامام الصادق عليه السلام من رسالة ابي مسلم موقفاً قائماً على معرفة كاملة بحقيقة ابي مسلم وما كان قد اقترفه من اعمال في سبيل العباسيين وتوطيد كيانهم، فقد اجابه الامام بكلام موجز لكنه بليغ،

وبعبارة قصيرة لكنها ذات معنى كامل، قال له بالحرف الواحد:

«ما أنت من رجالي، ولا الزمان زماني»(١٧٤).

ونحن لا نعرف على وجه الحقيقة الدافع الذي دفع ابا مسلم لكتابة ذلك الكتاب الى الامام الصادق عليه السلام والذي جاء فيه: «اني اظهرت الكلمة، ودعوت الناس عن موالاة بني امية الى موالاة أهل البيت، فان رغبت فيه، فلا مزيد عليك».

فهل دفعت ابو مسلم لاتخاذ هذا الموقف، الخلافات التي نشبت بينه وبين رجال الدعوة العباسية، لاسيما المنصور الذي قيل انه لم يكن راضياً عن ابي مسلم منذ البداية، كما انّ ابا مسلم كان لا يكترث به ويشعر بالتبرم منه؟

فقد ورد «انّ السفاح كان بعث ابا جعفر الى خراسان بعدما صفت الأمور له، ومعه عهد ابي مسلم بخراسان وبالبيعة للسفاح وابي جعفر المنصور من بعده. وكان ابو مسلم قد استخف بأبي جعفر. فلما رجع اخبر السفاح ما كان من أمر ابي مسلم. فلما قدم ابو مسلم في عام ١٣٦ على ابي العباس بهدف الذهاب الى الحج، قال ابو جعفر للسفاح: اطعني واقتل ابا مسلم فوالله ان في رأسه لغدرة»(١٧٥).

وهل يمكن ان يكون الدافع وراء ذلك الكتاب، ندم حلّ بأبي مسلم، ومحاولة للتوبة بعد اعمال القتل وسفك الدماء وانتهاك الحرمات التي اقترفها والتي اعترف بها في رسالته التي بعثها الى المنصور والتي اشرنا اليها قبل قليل؟

وهل يمكن ان يكون وراء ذلك وخزة ضمير، وومضة حقّ ومضت في نفسه، ادرك معها انه قد تمادى في غيه الى حد بعيد وركب امواج الظلم والفساد، وعليه ان يعود الى رشده، ويصيغ لصوت الحقيقة، ويعيد الحق الى اهله بعد ما «زواه عنهم ووضعه في غير محله»[١٧٦]؟

وهل يمكن ان تكون تلك الرسالة محاولة من العباسيين انفسهم للوقوف على موقف الامام الصادق من دعوتهم، وهل يمكن ان يشكل خطراً عليهم لو اعلنوا عن قيام دولتهم؟

وهناك احتمالات كثيرة اخرى لسنا بصددها، الّا أنّ موقف الامام الصادق عليه السلام من رسالته موقف صائب وسليم لا غبار عليه. فلو كانت الرسالة من ابي مسلم حقاً، ولو صحّ انه مال عن العباسيين بسبب بروز التناحر بينه وبينهم، أو بسبب ندمه وتوبته، فلا يمكن للامام ان يركن اليه، او يعتمد عليه، وهو الذي يملك ذلك السجل العريض في خدمة العباسيين، وتعزيز سلطانهم، وتلك الخلفية غير المحمودة التي اعترف بها في كتابه للمنصور، ثم كيف يمكن للامام ان يثق به ويطمئن الى عدم ميله عنه، وهو الذي مال عن العباسيين الذين عاش فترة طويلة يدعو اليهم، ويدافع عنهم، ويوطد لهم اركان دولتهم؟

ودبّر المنصور مكيدة قتل ابي مسلم عند عودتهما من حج عام ١٣٧هـ وبعيد سماع المنصور بوفاة ابي العباس السفاح وهو في الطريق. وكان كل منهما قد سلك طريقاً مختلفاً. وحينما التحق ابو مسلم بأبي جعفر بالمدائن أمر الناس ان يتلقوه، فتلقاه بنو هاشم والناس، ثم قدم فدخل

على المنصور فقبل يده، وأمره المنصور ان ينصرف للاستراحة.

فلما كان الغد، دعا المنصور عثمان بن نهيك واربعة من الحرس وتركهم خلف الرواق بعد ان اوصاهم بالهجوم على ابي مسلم وقتله متى ما صفق بيده.

وأرسل الى ابي مسلم يستدعيه، فدخل عليه، فقال له المنصور:

ـ اخبرني عن نصلين اصبتهما مع عبد الله بن علي.

قال ابو مسلم:

ـ هذا احدهما.

قال ابو جعفر:

ـ ارنيه!

فانتضاه ابو مسلم وناوله اياه، فوضعه المنصور تحت الفراش، فاستطاع بهذه الطريقة ان ينزع سلاحه عنه.

ثم اقبل المنصور عليه يستجوبه قائلاً:

ـ اخبرني عن كتابك الى السفاح تنهاه عن الموات، اردت ان تعلمنا الدين؟

فقال ابو مسلم:

ـ ظننت اخذه لا يحلّ، فلما اتاني كتابه علمت انه وأهل بيته معدن العلم.

فقال له المنصور:

ـ فأخبرني عن تقدمك اياي بطريق مكة؟

فأجابه:

ـ كرهتُ اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس فتقدمتك للرفق.

فقال له المنصور:

ـ فقولك لمن اشار عليك بالانصراف اليّ بطريق مكة حين اتاك موت ابي العباس الى ان تقدم فنرى رأينا، ومضيت فلا انت اقمت حتى الحقك ولا انت رجعت الي!

فردّ عليه ابو مسلم قائلاً:

ـ منعني من ذلك ما اخبرتك من طلب الرفق بالناس، وقلتُ تقدم الكوفة وليس عليك من خلاف.

قال المنصور:

ـ فجارية عبد الله اردت ان تتخذها؟

فأجابه:

ـ لا، ولكني خفت ان تضيع فحملتها في قبة ووكلت بها من يحفظها.

فقال المنصور:

ـ فمراغمتك وخروجك الى خراسان؟

قال ابو مسلم:

ـ خفت ان يكون قد دخلك مني شيء فقلتُ آتي خراسان فأكتب إليك بعذري فأُذهب ما في نفسك.

فقال المنصور:

ـ والمال الذي جمعته بخراسان؟

قال:

ـ انفقته بالجند تقوية لهم واستصلاحاً.

فقال المنصور:

ـ ألست الكاتب اليّ تبدأ بنفسك وتخطب عمتي آمنة ابنة علي وتزعم انك ابن سليط بن عبد الله بن عباس؟ لقد ارتقيت، لا امّ لك، مرتقى صعباً.

ثم اردف المنصور قائلاً:

ـ وما الذي دعاك الى قتل سليمان بن كثير مع اثره في دعوتنا وهو احد نقبائنا قبل ان يدخلك في هذا الامر؟

فقال:

ـ أراد الخلاف وعصاني فقتلته.

ولما طال استجواب المنصور وترادف اسئلته شعر ابو مسلم بالجزع وقال له:

ـ لا يقال هذا لي بعد بلائي وما كان مني.

فاستنشاط المنصور غضباً وصرخ في وجهه:

ـ يابن الخبيثة! والله لو كانت أمة أو امرأة مكانك لبلغت ما بلغت في دولتنا، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلا.

وادرك ابو مسلم حينئذ انّ المنصور قد اضمر الشرّ له فأخذ بيده يقبلها ويعتذر اليه، إلاّ انه قال له:

ـ ما رأيت كاليوم! والله ما زدتني إلّا غضباً!

فقال له ابو مسلم حينما رآه هكذا:

ـ دع هذا فقد اصبحت ما اخاف الّا الله تعالى.

فغضب المنصور وشتمه، ثم صفّق بيديه.

فخرج عليه الحرس، فضربه عثمان بن نهيك فقطع حمائل سيفه.

فقال ابو مسلم للمنصور:

ـ استبقني لعدوك يا امير المؤمنين!

فأجابه المنصور صارخاً:

ـ لا ابقاني الله اذاً، اعدوّ أعدى لي منك؟

وأخذه الحرس بسيوفهم حتى قتلوه وهو يصيح: العفو!

فقال له المنصور:

ـ يا بن اللخناء العفو والسيوف قد اعتورتك!

وهكذا انهى المنصور وبهذه الطريقة المأساوية اسطورة ابي مسلم الخراساني وحياة قائد عباسي كبير بسط الأمور لبني العباس واقام صرح دولتهم وعزّز كيانهم.

ولو القينا نظرة على التهم التي وجهها المنصور لأبي مسلم والتي استند عليها في قتله، لا نجدها تهماً ذات بال تستحق هذه النهاية الفجيعة لابي مسلم، بل ربما يطغى عليها الجانب الشخصي اكثر من الجانب السياسي. لكن الدافع الحقيقي وراء مقتل ابي مسلم هو الخوف من نفوذه المتزايد واحتمال قيامه بانقلاب مسلّح على العباسيين لاسيما وقد عُرِف بطموحه وهمته العالية.

والملفت للنظر في تلك الاستجوابات هو خلوها من اتهامه بموالاة

العلويين أو الاشارة الى مكاتبته للامام الصادق عليه السلام. فلو صحّ ما قيل عن تلك الموالاة أو المكاتبة لكانت التهمة الاولى والاخطر التي يوجهها المنصور له، ولما تردد المنصور عن سؤاله عنها، ولا يمكن للمنصور ان تكون خافية عليه النزعة العلوية عند ابي مسلم لو كان لها وجود وهو المعروف بكثرة ما لديه من عيون وجواسيس واهتمامه الكبير بتحركات ابي مسلم(١٧٧).

التظاهر بالتدين

لم تستطع السلطة العباسية ان تكسب في بداية عهدها ودّ أحد من فقهاء المسلمين وعلمائهم. وكان علماء المدينة يجهرون بالفتوى بأن بيعة العباسيين غير صحيحة(١٧٨). كما انّ الموقف العلوي من العباسيين كان يقوم على عدم الاعتراف بشرعية حكمهم، وقد تجسّد ذلك الموقف في عميد البيت العلوي الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام الذي كان يؤكد انّ الإمامة لا تصلح إلّا لرجل فيه ثلاث خصال: «ورع يحجزه عن المحارم، وحلم يملك به غضبه، وحسن الخلافة على من ولي حتى يكون له كالولد الرحيم»(١٧٩).

وهذه المعايير الثلاثة التي اعلنها الامام الصادق عليه السلام تؤكد بما لا يقبل الشك على عدم صلاحية المنصور أو أي خليفة عباسي آخر للخلافة، فضلاً عن فقدانه للشرعية التي هي المرتكز في كل خلافة أو سلطة على المسلمين.

والحقيقة ان المنصور العباسي قد شمر عن ساعديه ووظّف كافة ما لديه من امكانات بشرية ومادية كي يعمق جذور دولته من جهة وليضفي عليها جانب الشرعية من جهة اخرى.

ومن أجل أن يعمق جذور هذه الدولة سعى لضرب كل ما كان يشكل خطراً عليه وتصفية كل من يحتمل فيه الخطورة على الكيان العباسي، لاسيما العلويين الذين كان يرى فيهم الخصم الأول والعدو الألد والخطر الاكبر الذي يمكن ان يزعزع صرح الدولة العباسية في كل حين.

اما في محاولته لاضفاء جانب الشرعية على حكمه فقد تطرقنا الى ذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب، إلّا اننا نؤكد على هذا الاسلوب مرة اخرى ونقول بأنّ المنصور العباسي حاول جاداً لكسب تأييد الفقهاء من غير العلويين وضمّ اصواتهم الى فكرة شرعية الخلافة العباسية. وكان المنصور يهدف من وراء تقريب فقهاء المذاهب الاخرى أيضاً تقليص المساحة الشعبية التي كان يتحرك عليها الامام الصادق عليه السلام ومن ثم نجله الامام الكاظم عليه السلام وفرض طوقاً من العزلة حول هذين الامامين والحد من نشاطاتهما الرامية الى تربية كوادر إسلامية متعلمة واعية.

وكان فقهاء المدينة المنورة كما قدّمنا ناقمين على الحكم العباسي وغير مرتاحين له، حتى ان ابا الفرج الاصفهاني تحدث عن انضمام كافة فقهائها الى ثورة ابراهيم العلوي شقيق النفس الزكية الذي ثار بعد اخيه بالبصرة. ومن هؤلاء الفقهاء عباد بن العوام وابو العوام القطان الذي كان من محدثي البصرة ومن اصحاب الحسن البصري[١٨٠].

كما انّ الامام ابا حنيفة وقف هو الآخر موقفاً مؤيداً لثورة ابـراهـيم حتى انه كان يجهر في امره جهراً شديداً ويفتي الناس بـالخروج مـعه. وكتب اليه مشيراً عليه بالتوجه الى الكوفة لوجود الشيعة الموالين البـيت فيها: «ائتها سراً فانّ مَن هاهنا من شيعتكم يـبيتون (اي يـهاجمون) ابـا جعفر فيقتلونه، أو يأخذون برقبته فيأتونك به»(١٨١).

وأدى موقف ابي حنيفة هذا بالمنصور الى ان يكنّ له الغضب ويضمر له السوء حتى قيل انه دسّ له السم فمات مسموماً.

كما كان موقف الامام مالك في بدايته سلبياً من الحكم العباسي، واورد الطبري انّ كثيراً من اهالي المدينة اقبلوا عليه يستفتونه في الخروج مع محمد النفس الزكية، وقالوا له: انّ في اعناقنا بيعة لأبي جعفر. فقال لهم: انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين(١٨٢).

ولكن ذلك التعامل السلبي أو المناوئ الذي اتخذه الفقهاء حيال الدولة العباسية قد ازعج المنصور العباسي وأقلقه كثيراً، لهذا اصر على تقريب هؤلاء من البلاط وشراء تأييدهم أو سكوتهم على الاقل مهما كان الثمن. واستطاع ابو جعفر باسلوب الترغيب والترهيب ان يستميل اليـه بـعض الفقهاء ويزجّهم في بلاطه وينتزع منهم الدعاء له بطول العـمر ولدولتـه بالبقاء.

وكانت الخطوة الاولى التي اتبعها المنصور ـعلى سبيل المثال ـ مـع الامام مالك بن انس لاستمالته اليه وتغيير موقفه المتشدد مـن الخـلافة العباسية، هي استدعاؤه من قبل والي المدينة جعفر بن سليمان وضربه

سبعين سوطاً، لكي يؤكد له عن هذا الطريق انّ المنصور العباسي لا يسمح له ولا لأي فقيه آخر ان يصدر فتوى معادية أو يتخذ موقفاً يتعارض مع السياسة العامة للبلاد. واستطاع المنصور بتلك العقوبة القاسية ان يشتري صمت مالك وهذا مكسب كبير له، إلاّ انه لم يكتف بذلك المكسب، بل كان يتطلع الى ما هو أكبر منه.

وكان لابد للمنصور من اتخاذ الخطوة الثانية وذلك عندما حجّ عام ١٦٣هـ، حيث لابد لوجوه القوم والشخصيات المعروفة من زيارته والقدم عليه.

وندع مالكاً نفسه يروي لنا ما حدث بينه وبين المنصور في ذلك اللقاء:

لما صرت بمنى اتيت السرادقات، فاذنت بنفسي، فأُذن لي، ثم خرج الي الاذن من عنده فأدخلني، فقلت للاذن:

ـ اذا انتهيت الى القبة التي يكون فيها أمير المؤمنين فأعلمني. فمرّ بي من سرادق الى سرادق، ومن قبة الى اخرى، في كلها اصناف من الرجال بأيديهم السيوف المشهورة والأجزرة المرفوعة، حتى قال لي الاذن:

ـ هو ـ أي المنصور ـ في تلك القبة.

ثم تركني وتأخّر عني فمشيت حتى انتهيت الى القبة التي هو فيها، فاذا هو قد نزل في مجلسه الذي يكون فيه الى البساط الذي دونه، وإذا هو قد لبس ثياباً قصدة لا تشبه ثياب مثله تواضعاً لدخولي عليه، وليس معه في القبة إلاّ قائم على رأسه بسيف صلت.

فلما دنوت منه رحب بي وقرب، ثم قال:

ـ ها هنا الي.

فاوميت للجلوس، فقال:

ها هنا.

فلم يزل يدنيني حتى اجلسني اليه، ولصقت ركبتي بركبته. ثم كان اول ما تكلم به أنْ قال:

ـ والله الذي لا اله إلّا هو يا ابا عبد الله ما أَمرتُ بالذي كان، ولا علمته قبل ان يكون، ولا رضيته اذ بلغني (يريد به ضرب مالك من قبل والي المدينة).

فحمدتُ الله تعالى على كل حال، وصليت على الرسول ﷺ، ثم نزهته عن الامر بذلك والرضا.

ثم قال المنصور:

ـ يا ابا عبد الله لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم، واني اخالك اماناً لهم من عذاب الله وسطوته. ولقد دفع الله بك عنهم دفعة عظيمة. فانهم ما علمت اسرع الناس الى الفتن وأضعفهم عنها، قاتلهم الله انى يؤفكون. وقد امرتُ ان يؤتى بعدو الله من المدينة (والي المدينة جعفر بن سليمان) على قتب، وأمرت بضيق مجلسه، والمبالغة في امتهانه، ولابدّ ان انزل به من العقوبة اضعاف ما نالك منه.

فقلت له:

ـ عافى الله أمير المؤمنين واكرم مثواه، قد عفوت عنه لقرابته من

رسول الله صلى الله عليه وآله ثم منك.

قال ابو جعفر:

ـ وانت فعفا الله عنك ووصلك.

ثم فاتحني فيمن مضى من السلف والعلماء فوجدته اعلم الناس بالناس، ثم فاتحني في العلم والفقه فوجدته اعلم الناس بما اجتمعوا عليه وأعرفهم بما اختلفوا فيه، حافظاً لما روي، واعياً لما سمع. ثم قال لي:

ـ يا ابا عبد الله ضع هذا العلم ودوّنه، ودوّن منه كتباً وتجنّب شدائد عبد الله بن عمر، ورخص عبد الله بن عباس، وشواذ ابن مسعود، واقصد الى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الائمة والصحابة رضي الله عنهم، لنحمل الناس ان شاء الله على علمك وكتبك، ونبثك في الامصار، ونعهد اليهم ان لا يخالفوها، ولا يقضوا بسواها. فقلت:

ـ اصلح الله الأمير، ان أهل العراق لا يرضون علمنا، ولا يرون في علمهم رأينا.

فقال ابو جعفر:

ـ يُحملون عليه، ونضرب على هاماتهم بالسيف، ونقطع طي ظهورهم بالسياط. فتعجّل بذلك وضعها، فسيأتيك ابني المهدي العام المقبل ان شاء الله الى المدينة ليسمعها منك، فيجدك وقد فرغت من ذلك ان شاء الله.

ثم أمر لي بألف دينار عيناً ذهباً وكسوة عظيمة وأمر لابني بألف دينار.

ثم استأذنته فاذن لي، فقمت فودعني ودعا لي، ثم مشيت منطلقاً،

فلحقني الخصي بالكسوة فوضعها على منكبي[١٨٣].

وحقق المنصور في ذلك اللقاء ما كان يطمح اليه فتمكن انْ يعطي للامام مالك صورة بريئة ومليحة عنه، ويؤثر عليه بما كان لديه من معلومات واطلاع على احوال الناس وآراء العلماء.

حاول المنصور في ذلك اللقاء ان يظهر امامه بملابس متواضعة بسيطة خالعاً عنه ما كان يرتديه من زي ملكي فاخر، وقد اثر ذلك على مالك اي تأثير بحيث دفعه للقول «وإذا هو قد لبس ثياباً قصدة لا تشبه ثياب مثله تواضعاً لي»، وهكذا فهم مالك ان ذلك العمل انما كان تواضعاً له، وهذا يعني تواضعه للفقهاء، وهي قضية مهمة عنده!

ولكي يمرر المنصور خطته بنجاح بادء مالكاً بالقاء تبعة الجلد الذي تعرض له على عاتق ابن عمه جعفر بن سليمان والي المدينة، وانه لم يكن قد أمر بذلك. وهذا اسلوب ليس جديداً على الملوك والسياسيين، وهي لعبة سياسية طالما مارسوها لاركاع خصومهم وتحويلهم الى معسكرهم.

ولكي يتظاهر بصدقه فيما ادعى بجهله بما لحق بمالك من ضرب، اكّد له انه قد عزل جعفر بن سليمان عن ولاية المدينة وسينزل به عقوبة صارمة. وليس مهماً ان يقع جعفر بن سليمان ضحية للخطة التي رسمها المنصور، فالنتائج المتمخضة عنها اكبر وتصبّ في مصلحة الوجود العباسي ككل.

وانطلى الامر على الإمام مالك أو ربما وجد نفسه مكرهاً للتصديق

بما قاله المنصور اذ لا سبيل امامه سوى ذلك سيما وهو يعلم انه سيتعرض لأذى أكبر مما لحق به في المرة الاولى ولكي يضمن المنصور لخطته رصيداً اكبر من النجاح راح يمارس اسلوب الخداع والتضليل من خلال الاطراء على شخصية مالك وتصويرها وكأنها تفوق اي شخصية اخرى من شخصيات مكة والمدينة ووصفها بأنها امان لأهل الحرمين وأنهم بخير ما كان بين اظهرهم!

ونحن نعلم انّ هناك شخصية اخرى كانت تفوق كافة الفقهاء والعلماء فقهاً وعلماً وتزيد عليها تقوىً وورعاً، ولا يختلف فيَ هذا التقييم اثنان ويتّفق فيه الاعداء والاصدقاء الا وهي شخصية الامام الصادق عليه السلام، فها هو الامام مالك ابن انس يقول فيه:

«جعفر بن محمد اختلفت اليه زماناً فما كنت اراه الا على إحدى ثلاث خصال: إما مصل، وإما صائم، وإما يقرأ القرآن. وما رأت عين ولا سمعت اذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادة وورعاً»(١٨٤).

وقال الامام ابو حنيفة فيه بعد ان هيّأ له اربعين مسألة صعبة بأمر من أبي جعفر المنصور: فجعلت القي عليه فيجيبني فيقول: انتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا، فربما تابعهم وربما خالفنا جميعاً حتى اتيت على الاربعين مسألة. ألسنا روينا انّ أعلم الناس اعلمهم باختلاف الناس؟!(١٨٥).

كما قال ابو حنيفة أيضاً: «لو لا السنتان لهلك النعمان». ويعلّق

الآلوسي على هذه العبارة قائلاً: «هذا ابو حنيفة وهو من أهل السنة يفتخر ويقول بأفصح لسان لولا السنتان لهلك النعمان، يعني السنتين اللتين جلس فيهما لاخذ العلم عن الامام الصادق»[١٨٦].

ووصفه كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي قائلاً:

«جعفر بن محمد هو من علماء أهل البيت وساداتهم، ذو علوم جمة، وعبادة موفورة، وأوراد متواصلة، وزهادة بينة، وتلاوة كثيرة، يتتبع معاني القرآن ويستخرج من بحره جواهره ويستنتج عجائبه، ويقسم أوقاته على انواع الطاعات بحيث يحاسب عليها نفسه، رؤيته تذكر بالآخرة، واستماع كلامه يزهد في الدنيا، والاقتداء بهديه يورث الجنة. نور قسماته شاهد انه من سلالة النبوة، وطهارة افعاله تصدع انه من ذرية الرسالة. نقل عنه الحديث واستفاد منه العلم جماعة من اعيان الأمة واعلامهم مثل: يحيى بن سعيد الانصاري، وابن جريح، ومالك بن انس، والثوري، وابن عيينة، وايوب السجستاني وغيرهم، وعدوا اخذهم منه منقبة شرفوا بها وفضيلة اكتسبوها»[١٨٧].

فلماذا اذن يتجاهل المنصور هذه الشخصية العملاقة وتلك الدوحة العلوية ذات الظل الوارف الذي يتفيّأ به كافة فقهاء الامة؟ ولو قلنا انّ العداء العباسي المتأجج في قلب المنصور لأهل البيت كان يمنعه من تسليط الاضواء على شخصية الامام الصادق عليه السلام بل ويدفعه للتعتيم عليها وتحجيمها، لكن هل فاقت شخصية الامام مالك كافة الشخصيات الاسلامية الاخرى فقهاً وعلماً ولم يكن بينها من يرقى الى مقامه ودرجته

العلوية؟

والغريب ان المنصور لم يقف عند هذا الحد، بل حث مالكاً على تدوين فقه اسلامي يتناسب مع الذوق العباسي والسياسة العباسية من ميزاته خلوه من «شدائد عبد الله بن عمر ورخص عبد الله بن عباس وشواذ بن مسعود» حسب تعبير المنصور. ليس هذا فحسب بل انه عقد العزم على نشر هذا الفقه المالكي في كافة ارجاء البلاد الاسلامية وفرضه على الناس بالقوة، وحملهم عليه بالسيف. ولا ندري نحن ولا يدري اي منصف لماذا كان المنصور مصراً على الفقه المالكي ومعاقبة من يرفضه بالضرب على «هاماتهم بالسيف وقطع طيّ ظهورهم بالسياط»؟! فهل هو الحرص على الإسلام والشعور بأن هذا الفقه اقرب الى روح الإسلام وتعاليمه، ام هي المصالح التي كانت تقتضي ذلك سيما وقد استطاع المنصور أن يكسب ودّ مالك في نهاية المطاف ويؤثر بدهائه عليه حتى انه اندفع ـ اي مالك ـ لوصفه بـ «أعلم الناس بما اجتمعوا عليه واعرفهم بما اختلفوا فيه...».

ولا نعتقد انّ المنصور كان حريصاً على الإسلام وهذا واضح من تنكره للشخصيات الاسلامية الاخرى وباقي فقهاء المسلمين سيما الامام الصادق عليه السلام، هذا فضلاً عن انّ الفقه الاسلامي لا يفرض بقوة السيف والإسلام لا يجيز اجبار الناس على اعتناق مذهب اسلامي معين وإنْ كانت هناك تأكيدات على اتباع مذهب أهل البيت والعمل طبقاً لفقههم وفتاواهم.

على أي حال فان المنصور كان يصرّ على مسايرة بعض الفقهاء واظهار الورع والزهد والتأثر بوعظ الواعظين، محاولةً منه للاستعانة بهذا الاسلوب على تحقيق اهدافه، سيما وأنّ عامة الناس ينخدعون بالمظاهر ويتأثرون بما يشاهدونه دون ان يكون لهم ادنى اهتمام بالبحث عن الحقيقة وما وراء تلك المظاهر.

فعندما بلغه ان عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة قد استلم كتاباً من محمد بن عبد الله النفس الزكية، شعر بالاضطراب وخشي ان ينضم الزعيم المعتزلي الى النفس الزكية أو يؤيده على الأقل، فقرر ان يلجأ الى هذا الاسلوب لاستمالته اليه. فأرسل الى عمرو بن عبيد فلما وصله اكرمه واغدق عليه رعايته، ثم قال له:

ـ بلغني ان محمد بن عبد الله كتب إليك كتاباً.

فقال ابن عبيد:

ـ قد جاءني كتاب يشبه ان يكون كتابه.

فسأله المنصور:

ـ فبم اجبته؟

فقال:

ـ لم اجبه الى ما اراد.

وهنا بدأ المنصور بممارسة اسلوبه التضليلي، فقال لابن عبيد:

ـ عظنا يا ابا عثمان!

فقال ابن عبيد:

ـ اعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم «الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد».. الى آخر السورة.

فبكى المنصور بكاء شديداً وكأنه يسمع بهذه السورة لاول مرة!

ثم اردف ابن عبيد قائلاً:

ـ اتق الله فقد اعطاك الدنيا بأسرها فافتد نفسك ببعضها، واعلم انّ الامر الذي صار إليك انما كان بيد غيرك ممن كان قبلك ثم افضى اليك...

وعاد المنصور يبكي من جديد(١٨٨).

وبهذه الطريقة أراد المنصور ان يطبع في ذهن الزعيم المعتزلي صورة جميلة عنه، ويظهر امامه بمظهر الزاهد الخائف من الله، المتواضع الذي يسمع الوعظ والنصيحة من علماء المسلمين، كي يتمكن بهذا الاسلوب ان ينتزع ولاء المعتزلة أو لتحييدهم على الاقل.

غير انّ هناك من العلماء والزهاد من لم ينخدع بأساليب المنصور وتظاهره بالتعبد والتدين. فذكروا انه لما حجّ ودخل في الطواف بالبيت، لقي عبد العزيز بن ابي رواد ـ المعروف بانه لم يرفع رأسه الى السماء مدة ٤٠ سنة تخشعاً لله ـ فقبض المنصور على يده في محاولة منه للتحدث معه واستمالته، ثم قال له:

ـ اتعرفني ؟

فقال له ابن ابي رواد:

ـ لا، الا انّ قبضتك قبضة جبار.

فقال له:

ـ أنا ابو جعفر امير المؤمنين، فسلني من حوائجك ما شئت اقضها.

فقال له ابن ابي رواد:

ـ اسألك برب هذا البيت ان لا ترسل اليّ بشيء حتى آتيك طوعاً.

فقال له المنصور:

ـ ذلك لك.

فأقبل يمشي المنصور بمشيته في طوافه، فتأنّف ابن ابي رواد بقربه وثقل عليه كلامه، فقال له منزعجاً:

ـ اسألك بحرمة هذا البيت الا تنحيت عني.

فتنحى عنه المنصور وخلّى سبيله[١٨٩].

ومن الشخصيات الاخرى التي لم تنخدع بالمنصور ومكره عبد الله بن مرزوق. فقد التقى به في الطواف أيضاً وقد تنحى الناس عنه، مما دفعه لاستنكار ذلك، فقال له:

ـ من جعلك احقّ بهذا البيت من الناس تحول بينه وبينهم وتنحيهم عنه؟

فنظر المنصور في وجهه فعرفه، فقال له وقد استشاط غضباً:

ـ يا عبد الله بن مرزوق من جرّأك على هذا ومن اقدمك عليه؟

فقال عبد الله:

ـ وما تصنع بي؟ ابيدك ضرر أو نفع؟ والله ما اخاف ضرك ولا ارجو نفعك، حتى يكون الله عزّ وجل يأذن لك فيه، ويلهمك الى فعله.

فقال له المنصور:

ـ انك احللت بنفسك واهلكتها.

فقال ابن مرزوق:

ـ اللهم ان كان بيد ابي جعفر ضري فلا تدع من الضر شيئاً الّا انزلته علي، وان كان بيده منفعتي فاقطع عني كل منفعة منه.

فأمر به المنصور فحمل الى بغداد فسجنه بها.

مع الامام الصادق عليه السلام

ان ابا جعفر المنصور الذي كان بالأمس يذرف دموع التماسيح على حقوق أهل البيت المهضومة ويرفع عقيرته منادياً باعادة تلك الحقوق اليهم ورفع سيف الظلم عنهم، نراه ما ان يحقق هدفه ويعتلي عرش السلطة حتى يتنكر لهم ويمارس معهم نفس السياسة التي مارسها الامويون، ويضيّق الخناق عليهم، ويبدأ بشنّ حملة دموية تطال رجالهم وشخصياتهم المرموقة، حتى انه فاق الحجاج بن يوسف في ذلك، وهذا ما اكّد عليه المسيب بن زهير الضبي: فقد قال المنصور يوماً لجلسائه بعد قتل محمد وابراهيم ابني عبد الله بن الحسن:

ـ ما رأيت رجلاً أنصح من الحجاج لبني مروان!

فقام المسيب بن زهير وقال:

ـ يا أمير المؤمنين ما سبقنا الحجاج بأمر تخلفنا عنه، والله ما خلق الله على جديد الارض خلقاً أعز علينا من نبينا صلى الله عليه وسلم، وقد امرتنا بقتل أولاده فأطعناك، وفعلنا ذلك، فهل نصحناك ام لا؟[١٩١].

لقد كان أمر العلويين اذاً أهم شيء عند المنصور وفي طليعتهم الامام الصادق عليه السلام، فكان يفكر به دائماً وشبحه لا يفارق عينيه لأنه يعلم ما للصادق من مكانة علمية ودينية وما لديه من قاعدة في اوساط الأمة بمختلف مذاهبها وفئاتها.

وكان الامام الصادق عليه السلام قد اتخذ سياسة الاحتراس والحذر من السلطة العباسية والتشدد على تحركاته وتحركات العناصر المتصلة به، وكان يؤكد على عدم اعطاء اي ذريعة للمنصور لضربه أو ضرب حركته. كان يمارس عمله السياسي بصمت ومثابرة، فكان يؤهّل من طلابه وتلامذته من يجد فيهم الاهلية لممارسة دورهم في المجتمع كدعاة الى الله وهداة الى الإسلام وادلّة على القيادة الشرعية المتمثلة بأئمة أهل البيت عليهم السلام وبالامام الصادق عليه السلام في تلك الفترة.

فالامام الصادق عليه السلام أو الامام الكاظم عليه السلام أو ايّ إمام آخر لم يكن في قاموسه وجود للاعتزال والانزواء أو القعود عن مجاهدة الظالمين والزعامات غير الشرعية، انما كان يرى انّ العمل السياسي يجب ان يكون الى جانب العمل الفكري والعقائدي اولاً، وان يتخذ طابع الحيطة والحذر أو باصطلاح الائمة عليهم السلام طابع التقية والسرية كي يمكن عن هذا الطريق توفير مقومات النصر وتهيئة الشروط الموضوعية اللازمة للانتصار.

فهل يمكن لمواجهة علنية ومجابهة مكشوفة ان يُكتَب لها النجاح في ظل ظروف تتسم بالشراسة ومشحونة بالخوف، وفي ظل أجواء تحصي فيها السلطة على آل البيت انفاسهم وتتصيد الثغرات وتفتّش عن

المبررات للايقاع بهم؟ ثم كيف يمكن للامام الصادق عليه السلام أو الكاظم عليه السلام انْ يكشف لأجهزة المنصور القمعية عن نشاطه وتحركاته والكوادر الرسالية المجاهدة التي يحرصان على إعدادها، والمنصور يتحيّن الفرص لتوجيه ضربة قاصمة الى ذلك التحرك وعناصره؟

وللأسف نقول أنّ البعض قد وصف الامام الصادق وحتى الكاظم عليهما السلام بالاعتزال وعدم التدخل في القضايا السياسية، لأنّ هذا البعض كان يقارن تحرك الامام الصادق عليه السلام بتحرك الامام الحسين عليه السلام فيجد الامام الحسين ثائراً والامام الصادق عليه السلام قاعداً عن الثورة لاجئاً الى رواية الحديث والفقه. هذا في حين انّ الامام الصادق كان إماماً ثائراً كالحسين والامام الكاظم عليه السلام كان إماماً مجاهداً كالحسين، الّا انّ الظروف التي كانت سائدة آنذاك أملت على الحسين عليه السلام ان يجاهر بتلك الثورة ويخوض مواجهة عسكرية دموية مع النظام المنحرف عن الاسلام، في حين أن ظروف الامام الصادق أو الكاظم عليهما السلام كانت تحتم عليهما العمل الثوري في إطار كامل من السرية والتكتّم.

ورغم هذا كله فلم يكن خافياً على المنصور أهداف الامام الصادق عليه السلام وموقفه الرافض للسلطة العباسية بأسرها، الا انه كان يحذر الاصطدام معه، لعدم وجود ادلّة لديه يدينه بها، ولخوفه من إثارة الرأي العام الموالي أو المتعاطف معه. ولم يستطع المنصور ان يخفي قلقه الدائم منه حيث كان يصفه «بأنه الشجى المعترض حلقه»[١٩٢]. فإذا كان الصادق عليه السلام لا يشكل خطراً عليه ولا يثير له المشاكل فلماذا هذا الخوف منه، وكيف يمكن ان يكون شجى في حلق المنصور؟

ولم يجد المنصور العباسي بداً من استدعاء الامام الصادق مراراً الى بغداد لما كان يساوره منه من قلق وخوف، وللاطلاع على حقيقة تحركاته وتبيّن مقدار ما يشكله من خطورة على الكيان العباسي. وقد همّ المنصور في مرات عديدة بتصفيته والقضاء عليه لكنه كان يتراجع في اللحظات الاخيرة.

وقيل ان اول استدعاء للامام الصادق عليه السلام الى العراق كان في أيام ابي العباس السفاح، وكان الهدف من ذلك الاستدعاء، محاولة من السفاح لكسب ودّه وتأييده للنظام العباسي لاسيما وانّ هذا النظام لم يكن قد كشف عن كامل عدائه للعلويين.

ولم يكن ذلك الاستدعاء لصالح السلطة العباسية، حيث أنّ الامام تمكن من الالتقاء برجال الشيعة وتوثيق صلته بهم، كما عقد عدة مناظرات فكرية وعقائدية مع رجال الفرق والمذاهب الاخرى مما عزّز من مكانته ورفعه في اعين الناس ودفعهم للاقبال عليه والالتفاف حوله.

وعندما سافر المنصور الى الحجاز، توقف بالربذة بالقرب من المدينة المنورة، وأمر بالقاء القبض على عدد غفير من العلويين بما فيهم عبد الله بن الحسن واولاده ومن ينتسب اليه، وحملهم اليه في ذلك المكان لاستجوابهم. وقد أمر بسجن عبد الله وأهل بيته بالكوفة كما سيمر علينا ذلك فيما بعد.

وبعد ان فرغ من ذلك الحشد الكبير من العلويين قال لحاجبه الربيع بن يونس:

ـ ابعث الى جعفر بن محمد من يأتينا به متعباً.

وجيء بالامام الى الربذة في اليوم التالي. فاستقبله الربيع وقال له:

ـ يا ابا عبد الله اذكر الله تعالى، فانه قد ارسل لك من لا يدفع شرّه الّا بالله، واني اتخوف عليك.

فقال الامام الصادق:

ـ لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

واغلظ المنصور القول للإمام في ذلك اللقاء واتهمه بمختلف التهم الا ان الامام استطاع بهدوئه وايمانه وأدلته ان يتخلص من قبضة المنصور ويعود الى المدينة.

وكان هناك لقاء آخر بين الامام الصادق عليه السلام والمنصور بالربذة أيضاً عندما توجه المنصور للحج عام ١٤٦هـ وذلك بعد اخماده لثورة النفس الزكية وتصفية مجموعة كبيرة من العلويين. وتحدث الامام الصادق عليه السلام عن ذلك اللقاء قائلاً:

«لما رفعت الى ابي جعفر المنصور بعد قتل محمد بن عبد الله بن الحسن نهرني وكلمني بكلام غليظ، ثم قال: يا جعفر قد علمت بفعل محمد بن عبد الله الذي تسمونه النفس الزكية وما نزل به، وانما انتظر الآن ان يتحرك منكم أحد فألحق الصغير بالكبير»[١٩٣].

ولم يأبه الامام بتهديد المنصور بل طالبه بردّ ضيعته اليه التي صادرها عيسى بن موسى مع أموال وضياع كثير من العلويين بعد اخماد ثورة النفس الزكية. وغضب المنصور من الإمام وصرخ في وجهه:

ـ اياي تكلم بهذا الكلام؟[١٩٤].

وعن محمد بن عبد الله الاسكندري قال:

كنت من ندماء المنصور وخواصه وكنت صاحب سره من بين الجميع، فدخلت عليه يوماً فرأيته مغتماً وهو يتنفس نفساً بارداً فقلت: ما هذه الفكرة يا امير المؤمنين؟

فقال لي: يا محمد لقد هلك من اولاد فاطمة مقدار مائة وقد بقي سيدهم وامامهم.

فقلت له: من ذلك؟

قال: جعفر بن محمد الصادق.

فقلت له: يا أمير المؤمنين انه رجل انحلته العبادة واشتغل بالله عن طلب الملك والخلافة!

فقال: يا محمد قد علمت انك تقول به وبامامته، ولكن الملك عقيم، وقد آليت على نفسي ان لا أُمسي عشيتي هذه، أو افرغ منه.

ثم دعا سيافاً وقال له: اذا احضرت ابا عبد الله الصادق وشغلته بالحديث ووضعت قلنسوتي عن رأسي فهي العلامة بيني وبينك فاضرب عنقه.

ثم احضر ابا عبد الله في تلك الساعة...(١٩٥).

لكن المنصور انصرف عن قتل الامام في اللحظات الاخيرة.

وروى الكليني ان الامام الصادق عليه السلام رفض مرة ان يستجيب الى دعوة المنصور العباسي بالذهاب الى العراق والمثول بين يديه، فأمر المنصور والي المدينة باحراق داره، فأحرقها عليه، فخرج الامام منها ناجياً وهو يقول: «انا ابن اعراق الثرى، أنا ابن ابراهيم خليل الله»(١٩٦).

وبعد فشل ثورة ابراهيم بن عبد الله في البصرة واستشهاده،المنصور

بترحيل العلويين الى العراق بما فيهم الامام الصادق وذلك كي ينفّس المنصور عن حقده عليهم ويتشفّى بهم ويذلّهم بهذه الطريقة. وروى الامام الصادق ذلك الحدث قائلاً:

«لما قُتل ابراهيم بن عبد الله بباخمري صرنا عن المدينة ولم يترك فيها منا محتلم، حتى قدمنا الكوفة، فمكثنا فيها شهراً نتوقع القتل، ثم خرج الينا الربيع الحاجب فقال:

ـ اين هؤلاء العلوية؟ ادخلوا على أمير المؤمنين رجلين منكم من ذوي الحجا. فدخلنا اليه أنا والحسن بن زيد. فلما صرت بين يديه قال لي:

ـ انت الذي تعلم الغيب؟

قلت:

ـ لا يعلم الغيب إلّا الله.

قال:

ـ انت الذي يجبى إليك هذا الخراج؟

قلت:

ـ إليك يجبى الخراج.

قال:

ـ أتدرون لم دعوتكم؟

قلت:

ـ لا.

قال:

ـ اردت ان اهدم رباعكم واروع قلوبكم...

ونجا الامام آخر المطاف من قبضة المنصور وعاد الى المدينة(١٩٧).

واستدعاه المنصور يوماً وعاتبه على صدوده عنه وقال:

ـ لم لا تغشانا كما يغشانا الناس؟

فأجابه الامام:

ـ ليس لنا من أمر الدنيا ما نخافه عليك، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوه منك، ولا انت في نعمة نهنئك بها، ولا في نقمة فنعزيك فيها!

فقال المنصور:

ـ تصحبنا لتصلحنا.

فقال الامام:

ـ من يريد الدنيا لا ينصحك، ومن يريد الآخرة لا يصحبك(١٩٨).

وللامام لقاءات عديدة مع المنصور تمت على اثره استدعاءات متكررة من قبل المنصور، غير اننا اكتفينا بهذا القدر كي نقدم صورة ولو جزئية عما كان يبعثه الامام من رعب في قلب المنصور، وكي نعرف انّ موقف الامام كان في كافة تلك اللقاءات والاستجوابات موقف الشجاع الذي لا يداهن ولا يتملق ولا يخاف، وموقف المجاهد المصرّ على مواصلة طريق الحق دون تردد، وموقف الثائر الذي لا يعرف الخضوع والتراجع عن المبدأ، حتى لقي الله تعالى شهيداً على يد المنصور بعد ان دسّ له السم، متخلصاً بذلك من رجل ابي مقدام كان مثل شجى يعترض حلقه.

ثورة النفس الزكية

لم تكن ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن على المنصور العباسي مجرد ردة فعل على ما لقيه العلويون وآل ابي طالب وآل الرسول ﷺ على يده من ظلم وجور وارهاب، وما تعرضوا له ابان حكمه من قمع وسجن وتشريد وقتل، ولم تكن انتفاضة على الانحراف عن الإسلام والزيغ عن مبادئه والتلاعب بمقدرات الأمة فحسب، بل كانت أيضاً دعوة لإعادة الحق الى أهله والشرعية الى اصحابها وامامة المسلمين الى آل الرسول ﷺ.

ورغم ما قيل من انّ النفس الزكية كان يدعو الى نفسه ويدعي المهدوية، لكن ذلك لا يقلل شأن ثورته ولا من صدق تحركه وشعوره بالمسؤولية تجاه ما ينال الإسلام والمسلمين ولا سيما العلويين من امتهان واذلال وحيف. ولو قال قائل: لماذا لم يدع النفس الزكية الى الامام الصادق عليه السلام باعتباره زعيم البيت الهاشمي وامام الأمة الحقيقي ولماذا دعا الى نفسه دونه؟ والحقيقة أنّ الاخبار التاريخية المنقولة عن تلك الفترة اخبار مضطربة وقد يناقض بعضها البعض الآخر، اضافة الى وجود احتمال كبير بوضع البعض منها ودسّه من قبل السلطة، علماً ان الجهاز العباسي كان يفرض رقابة صارمة على اخبار أهل البيت ويمنع تداول أخبارهم وأحاديثهم، ويعاقب بأشد العقوبات كل من يجرؤ على التحدث عنهم أو الاشارة اليهم.

إذا عرفنا ذلك نقول ربما يوجد هناك الكثير من الحقائق حول ثورة النفس الزكية وموقف الامام الصادق عليه السلام لكنها لم تصل الينا، بل وقد يكون كثير من الاخبار والتقارير التي وصلت الينا اخبار وتقارير مدسوسة وكاذبة، لاسيما فيما يتعلق بتنبؤات الامام بمصير الثورة وقد ناقشنا ذلك من قبل.

ولو سلّمنا ان النفس الزكية كان يدعو الى نفسه حقاً، الا يمكن ان يكون ذلك اسلوب حركي وتكتيك سياسي، سيما اذا عرفنا انّ سياسة الامام الصادق عليه السلام في التحرك كانت تقوم على السرية وعدم التجاهر، ولربما اراد النفس الزكية ان لا يزج بالامام في معركة مع السلطة مجهولة النتائج، او قل ربما أنّ الامام قد اشار عليه بذلك. كما اننا لا ندري لو انّ الأمور قد انصاعت للنفس الزكية وتمكن من اسقاط الحكم العباسي واقامة حكم علوي، هل سيفرض نفسه خليفة على المسلمين ام يسلّم زمام الأمور للامام الصادق؟

ورغم ما قيل عن الموقف الحيادي الذي وقفه الامام الصادق عليه السلام منها، الا انّ هناك خبر يؤكد على دعم الامام وتأييده لها، فقد روى ابو الفرج الاصفهاني انّ الامام الصادق بعث ولديه موسى بن جعفر وعبد الله للانضمام الى الثائرين، الّا انّ النفس الزكية اعفاهما من ذلك وارجعهما الى ابيهما، غير انّ الامام قال لهما بالحرف الواحد: «ارجعا فما كنت بالذي ابخل بنفسي وبكما عنه»(١٩٩).

ويمكن ان نفهم من اعفاء النفس الزكية لابني الامام الصادق من

الاشتراك في ثورته، حرصه على إبعاد الامام عن احداث ومعمعة غير مضمونة النتائج خوفاً على ما يترتب على تلك المشاركة من خطر على الامام والحركة الاسلامية ككل في حالة فشل الثورة. كما نفهم من اصرار الامام على اشتراك ولديه فيها ومؤازرته لزعيم الثوار، اضفاء الشرعية على تلك الثورة وتجاوبه معها.

وكان المنصور العباسي ـوكذلك كان ابو العباس ـ يبدي اهتماماً شديداً نحو محمد النفس الزكية، ويواصل متابعة اخباره ومواقفه من حكومته. فقد كان يعلم بمعارضته لنظامه منذ البداية ومكانته المرموقة ليس بين اوساط أهل البيت والعلويين فحسب، بل في اوساط قريش وسكان الحرمين الشريفين. وكان الذي يزيد من قلق المنصور تلك البيعة التي تمت له في مؤتمر الابواء قبل ظهور الدولة العباسية الى الوجود من قبل العلويين والعباسيين معاً، والتي كان فيها المنصور اكثر المتحمسين لبيعته والحاض على البيعة له عندما قال:

«والله لقد علمتم ما الناس الى أحد اسرع من اجابة منهم الى هذا الفتى».

الّا انّ المنصور الذي يحمل في رقبته البيعة لمحمد النفس الزكية، نراه يسعى للتخلص من وطأة تلك البيعة عن طريق التخلص من النفس الزكية! وقد خامرت فكرة تصفيته المنصور وعبد الله السفاح منذ الايام الاولى لتسلمهما السلطة، وظهر ذلك جلياً عندما وفد ابوه عبد الله بن الحسن عليهما من الحجاز على رأس مجموعة علوية. فكان ابو العباس

السفاح يسأل عبد الله عن ابنيه محمد وابراهيم ويقول له:

ـ ما خلّفهما ومنعهما ان يفدا الى أمير المؤمنين مع أهل بيتهما؟

فأجابه ابوهما عبد الله:

ـ ما كان تخلفهما لشيء يكرهه امير المؤمنين.

وعندما ادرك عمهما الحسن بن الحسن ما يدور في خلد المنصور، قال له:

ـ ان قدّر الله لمحمد وابراهيم انْ يليا في هذا الأمر شيئاً فجهدت وجهد أهل الارض معك ان يردوا ما قدر لهما، اتردونه؟

فأجاب السفاح:

ـ لا.

فقال الحسن:

ـ فانشدك الله إن كان لم يقدر لهما ان يليا هذا الامر شيئاً فاجتمعا واجتمع أهل الارض معهما على ان ينالا ما لم يقدر لهما؟ اينالانه؟

فأجاب بالنفي ايضاً(٢٠٠).

وسكت السفاح عن السؤال عن محمد واخيه ابراهيم، الا انه كان يدرك ـ وكذلك المنصور ـ انّ القضية اكبر من ذلك التفسير الذي ابداه الحسن بن الحسن، وأنّ محمداً وابراهيم ناقمان عليهم ويشكلان هاجساً مستمراً للقيادة العباسية.

وعندما عاد الوفد العلوي الى المدينة، فرّق عبد الله بن الحسن الاموال التي اهداها الخليفة العباسي بين فقراء العلويين، لكنه اعلن عن غضبه

وانزعاجه عندما شاهد فرحهم بها، وقال لهم:

ـ افرحتم؟

فأجابوه:

ـ ومالنا لا نفرح بما كان محجوباً عنا بأيدي بني مروان حتى اتى الله بقرابتنا وبني عمنا فأصاروه الينا؟

فغضب عبد الله وصرخ فيهم:

ـ افرضيتم ان تنالوا هذا من تحت ايدي قوم آخرين(٢٠١)؟

وهكذا نفهم انّ الشخصيات العلوية الواعية كعبد الله بن الحسن كانت تدرك منذ البداية بأنّ البيت العلوي احقّ بزعامة المسلمين من البيت العباسي وأنّ العباسيين ليسوا سوى اناس اغتصبوا حقّهم الطبيعي.

وكان عبد الله هذا شديد الحماس في تأييد ولده النفس الزكية بل قد يكون المحرك الرئيس له في الثورة على العباسيين.

فعندما حج المنصور عام ١٤٠هـ، جمع بني هاشم ثم راح يسأل كلاً منهم على انفراد عن محمد النفس الزكية فكان كل منهم يقول:

ـ يا امير المؤمنين، قد علم انك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم، فهو يخافك على نفسه، وهو لا يريد لك خلافاً، ولا يحب لك معصية(٢٠٢).

لكن المنصور لم يقتنع بمثل هذا الجواب، فتوجّه الى ابيه قائلاً:

ـ يا ابا محمد، محمد وابراهيم اراهما قد استوحشا من ناحيتي، واني لأحبّ أن يأنسا بي ويأتياني، فأصلهما وأزوّجهما وأخلطهما بنفسي.

ونرى ان المنصور حاول ان يستخدم دهاءه في هذه الكلمات، فجعلها كلمات هادئة تفيض بالحب والرحمة. الّا ان عبد الله كان يعلم ماذا خلفها وماذا يبيّت المنصور لولديه. لهذا اطرق طويلاً، ثم قال:

ـ وحقك يا أمير المؤمنين ما لي بهما ولا موضعهما من البلاد علم، ولقد خرجا عن يدي.

واستمر المنصور يسأل عبد الله عن ابنه في إطار من الهدوء وتمالك النفس وكتمان الغضب عسى ان يفلح في هذا الاسلوب السهل للحصول على ما يريد. وعندما عجز عن انتزاع اي اعتراف من عبد الله، ثارت ثائرته وأطلق لغضبه العنان، فزمجر فيه:

ـ اين ابنك؟

فقال عبد الله:

ـ لا أدري.

فصرخ المنصور:

ـ لتأتيني به.

وعندما وجد عبد الله اصرار المنصور وما ظهر عليه من غضب، قال له بتحدٍ واضح:

ـ لو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه.

فكان ذلك الجواب هو الورقة الاخيرة التي راهن عليها المنصور فخسر الرهان، كما كان الباب الذي اوصد العلاقة الباهتة التي كان يحاول المنصور ان يقيمها مع العلويين طمعاً في العثور على محمد واخيه

ابراهيم. ولهذا أمر بالقاء القبض على عبد الله وبني الحسن.

غير انّ سجن عبد الله واسرته لم يحقق للمنصور هدفه، لهذا عزم على اتخاذ اسلوب الحيلة للكشف عن مكان اختفاء محمد، فاشترى رقيقاً من رقيق البادية، وزوّدهم بالجمال وفرّقهم في طلبه، فكان الرجل منهم يرد عيون الماء واماكن نزول البدو كالمارّ أو كالضال متنسّماً اخباره ومتجسساً عليه. كما بعث المنصور أحد عيونه وكتب معه كتاباً على لسان الشيعة يذكرون طاعته ومسارعتهم، وبعث معه بأموال وهدايا. وقدم الرجل المدينة ودخل على عبد الله بن الحسن في سجنه فسأله عن ابنه محمد فلم يخبره عنه. لكنه ظل يتردد عليه ويلح في السؤال حتى ذكر له مكانه.

وكان للمنصور كاتب يخفي تشيّعه وولاءه لأهل البيت، فكتب الى عبد الله بن الحسن يخبره بذلك العين. فلما قدم الكتاب ارتاع لذلك، وبعث ابا هبار الى محمد يخبره بالأمر، فسار الى محمد بن عبد الله هو جالس في كهف ومعه جماعة من اصحابه وذلك العين معهم. فلما رأى العين ابا هبار خافه. فقال ابو هبار لمحمد: لي حاجة. فقام معه، فأخبره الخبر، فلما رجعا وجداه قد هرب فلم يلحقوا به[٢٠٤].

وفي اعقاب ذلك أمر المنصور قاضي المدينة عبد العزيز بن عبد المطلب بالقاء القبض على واليها زياد بن عبيد الله الحارثي لتلكؤه بالقبض على محمد وعدم جدّيته في ذلك. ثم ولّى والياً جديداً هو محمد بن خالد بن عبد الله القسري، وحثّه على القاء القبض على محمد. الا انّ

الوالي الجديد لم يتمكن هو الآخر من تحقيق رغبة الخليفة فعزله المنصور عن الولاية(٢٠٥).

فلما رأى المنصور ما قد انفق من الاموال والوقت ولم يظفر بمحمد استشار رجلاً من خاصته ويدعى ابو العلاء في امره واخيه. فقال له:

ـ ارى ان تستعمل رجلاً من ولد الزبير أو طلحة فانهم يطلبونهما بذَحْل ويخرجونهما اليك.

فرفض المنصور اقتراحه قائلاً:

ـ قاتلك الله. ما اجود ما رأيت! والله ما خفي عليّ هذا، ولكني اعاهد الله ان لا انتقم من بني عمي بعدوي وعدوهم، ولكني ابعث عليهم صعلوكاً من العرب يفعل بهم ما قلت(٢٠٦).

وعين المنصور العباسي رِباح بن عثمان بن حيان المري والياً على المدينة في رمضان سنة ١٤٤هـ. وكان رباح هذا ابن عم لمسلم بن عقبة صاحب موقعة الحرة في عهد يزيد بن معاوية والتي قَتَل فيها الكثير من ابناء المدينة المنورة واباحها لجنده عدة ايام(٢٠٧).

ويبدو ان المنصور أراد من تعيينه لابن عم مسلم بن عقبة والياً على المدينة ان يعيد الى الاذهان ما فعله مسلم بهم، وان يكون رسالته التخديرية اليهم. كان يريد ان يقول لهم من خلاله انه لن يتردد في ان يفعل بمدينة الرسول وبأهلها ما فعله يزيد بن معاوية على يد مسلم بن عقبة، وكأنّما قُدِّر لهذه المدينة المقدسة التي احتضنت الرسول ﷺ وآوت المهاجرين ونصرت الرسالة الالهية ان تدفع ضريبة ذلك كلّه

لهؤلاء الطغاة الذين لا يقلّون في عدائهم للاسلام الحقيقي وأهل بيت العصمة عن زعماء الجاهلية والمشركين.

وما ان وصل رباح الى المدينة المنورة حتى خطب في اهلها مهدداً ومتوعداً:

«يا أهل المدينة، أنا الافعى ابن الافعى عثمان بن حيان، وانا ابن عم مسلم بن عقبة المبيد خضراكم، المفني رجالكم، والله لأدعنّها بلقعاً لا ينبح فيها كلب»[٢٠٨].

ونرى هنا كيف يفتخر ابن الافعى بابن عمه مسلم لما اقترفه من اعمال نكراء في حقّ ابناء مدينة النبي، وكيف يسمح له العباسيون للتغنّي بجرائم طالت المسلمين في عهد اعدائهم الامويين!

وكانت الخطوة الاولى التي قام بها هذا الوالي ان دخل على عبد الله بن الحسن في سجنه ليقول له بلهجة تنم عن الحقد والغضب:

ـ ايها الشيخ ان المنصور والله ما استعملني لرحم قريبة، ولا يد سلفت اليه، والله لا لعبت بي كما لعبت بزياد وابن القسري (وهما الواليان اللذان سبقاه)، والله لأزهقن نفسك، أو لتأتيني بابنيك محمد وابراهيم»[٢٠٩].

وجدّ رباح في طلب محمد والبحث عنه، فعرف آخر المطاف من جواسيسه انه في شعب من شعاب جبل رضوىٰ، فعهد الى عمرو بن عثمان الجهني بالقبض عليه. فخرج اليه في فوج من الجند، وعندما علم محمد بقدومهم استعجل الهرب فهوى ولد من اولاده من فوق الجبل الى الارض فمات، فأنشد فيه ابوه:

منخرق السربال يشكو الوجى — تنكبه اطراف مور حداد
شرّده الخوف فأرزى به — كذاك من يكره حرّ الجلاد
قد كان في الموت له راحة — والموت حتم في رقاب العباد[٢١٠]

وأثارت نجاة محمد سخط رباح واججت غضبه على أهل المدينة فارتقى المنبر وأخذ يسبّ محمداً وأخاه ابراهيم ونال من أهل المدينة، مما اثار سخطهم واحتجاجهم، فقال لهم يتوعدهم:

ـ الصق الله بوجوهكم الذل والهوان، اما والله لأكتبنّ الى خليفتكم فلأعلمنه غشكم وقلة نصحكم.

فأجابوه بغضب:

ـ الناس لا تسمع منك يا ابن المحدود!

ثم رجموه بالحجارة فالتجأ الى دار مروان[٢١١].

وعندما وصلت انباء ذلك التمرد الى اذن المنصور كتب اليهم كتاباً شديد اللهجة قرأه رباح عليهم جاء فيه:

«يا أهل المدينة، فانّ واليكم كتب الي يذكر غشكم وخلافكم وسوء رأيكم واستمالتكم على بيعة امير المؤمنين. وامير المؤمنين يقسم بالله لئن لم تنزعوا ليبدلنكم بعد امنكم خوفاً، وليقطعن البر والبحر عنكم، وليبعثن عليكم رجالاً غلاظ الاكباد بعاد الارحام»[٢١٢].

ولم يجد حينذاك المنصور بداً من الذهاب الى الحجاز ثانية للاطلاع على الاوضاع عن كثب ومتابعة اخبار محمد واخيه، فاتخذ من حج عام ١٤٤هـ غطاء لتلك الزيارة. وبعث الى بني الحسن في سجنهم كلاً من

ابراهيم بن محمد بن طلحة، ومالك بن انس، طالباً منهم ان يدفعوا اليه محمداً وابراهيم. فقال لهما ابوه عبد الله:

ـ لا والله لا اردّ عليكما حرفاً. إنْ احبّ ان يأذن لي فألقاه فليفعل.

فانطلقا الرسولان فأبلغا المنصور بما قال عبد الله، فقال:

اراد ان يسحرني، لا والله لاترى عينه عيني حتى يأتيني بابنيه.

ثم سار المنصور لوجهه، فلما حجّ ورجع لم يدخل المدينة خوفاً من اهلها، ومضى الى الربذة، فخرج اليه رباح فردّه الى المدينة وأمره باشخاص بني الحسن اليه ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ـ اخو بني الحسن لامهم ـ فرجع رباح فأخذهم وسار بهم الى الربذة، وجعل القيود والسلاسل في ارجلهم واعناقهم، وأصعدهم على محامل بغير وطاء.

ولما خرج بهم رباح من المدينة وقف الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام من وراء ستر يراهم ولا يرونه وهو يبكي ودموعه تجري على لحيته وهو يدعو الله، ثم قال:

«والله لا يحفظ الله حرميه بعد هؤلاء»[(٢١٣)].

وقيل انّ محمداً واخاه اتّصلا وهما متنكران بأبيهما خلال تلك الرحلة الى الربذة واستأذناه بالخروج فقال لهما:

ـ لا تعجلا حتى يمكنكما ذلك.

ثم اكد عليهما قائلاً:

ـ ان منعكما المنصور ان تعيشا كريمين فلا يمنعكما ان تموتا كريمين.

وهي كلمة رائعة حقاً تعدّ بمثابة مبدأ للاحرار والثوار في كل زمان ومكان.

فلما وصلوا الى الربذة أُدخل محمد بن عبد الله العثماني على المنصور، فأمر بشق ثيابه عن ازاره وضربه مائة وخمسين سوطاً، فبلغت منه كل مبلغ، فأصاب سوط منها وجهه، فقال له:

ـ ويحك اكفف عن وجهي! فانّ له حرمة برسول الله صلى الله عليه وآله.

فأهاجت كلماته غضب المنصور، فقال للجلاد:

ـ الرأس، الرأس!

فضربه على رأسه نحواً من ثلاثين سوطاً وأصاب احدى عينيه فسالت، ثم أُخرج وكأنه زنجيّ من الضرب، وكان من احسن الناس ويسمى «الديباج» لحسنه.

ثم أمر المنصور بقتله، فاحتزوا رأسه وبعثوا بها الى خراسان فطافوا بها هناك مدّعين انها رأس محمد النفس الزكية لادخال اليأس الى قلوب المتعاطفين معه هناك.

وقد قال اخوه عبد الله بن الحسن (اخوه لامّه) حينما قتل:

«انا لله وانا اليه راجعون! إن كنا لنأمن به في سلطانهم ثم قد قُتل منا في سلطاننا!»(٢١٤).

ويعني بهذه العبارة انه كان يذود عن العلويين في أيام سلطان الامويين الذين ينتسب اليهم محمد بن عبد الله، بينما يُقتَل في سلطان الهاشميين (اي العباسيين) الذين ينتمي اليهم اخوه لامه عبد الله بن

الحسن.

ومضى المنصور ببني الحسن والعلويين الى الكوفة، ولاحت التفاتة من عبد الله بن الحسن فلمح المنصور على بغلة شقراء فناداه:

ـ يا ابا جعفر، ما هكذا فعلنا باسرائكم يوم بدر.

يريد بذلك عفو الرسول ﷺ عن العباس بن عبد المطلب الذي اسره المسلمون في غزوة بدر الكبرى.

ثم ان المنصور اودعهم في سجن ابن هبيرة شرقي الكوفة في طامورة تحت الارض ليصارعوا فيه الموت القاسي والظروف الصعبة التي لا تطاق. واستدعى بعد ذلك محمد بن ابراهيم بن الحسن، وكان جميلاً للغاية، فقال له:

ـ انت الديباج الاصغر؟

قال محمد بن ابراهيم:

ـ نعم.

فقال المنصور:

ـ لأقتلنك قتلة لم اقتلها احداً!

ثم بنى عليه اسطوانة وهو حي فمات فيها جوعاً وعطشاً واختناقاً.

وقيل أن المنصور أمر بقتل باقي العلويين، وقيل بل أمر بهم فسقوا السم، والمؤكد انهم ماتوا جميعاً في سجن المنصور ولم ينج منهم احد.

اعلان الثورة

اعلن محمد بن عبد الله بن الحسن ثورته في عام ١٤٥هـ، اي بعد عام من اعتقال ابيه وعمومته وابناء عمومته والحشد العلوي الكبير. ويبدو انه قد استعجل الثورة واعلنها قبل ان يحرز الشروط الموضوعية للنصر وقبل انْ يحين الوقت المناسب. وكان وراء استعجاله ذلك هو تألمه لما لحق بني الحسن والعلويين من اذى ومصائب على يد المنصور، وملاحقة العباسيين المستمرة له، وضغوط اصحابه عليه في التعجيل بالثورة وانقاذ ما يمكن انقاذه من اوضاع المسلمين والعلويين على وجه الخصوص، حتى قيل ان بعضاً من اصحابه قالوا له:

- ما تنتظر بالخروج! فوالله ما على هذه الأمة اشأم منك. اخرج ولو وحدك.

ووصلت الاخبار الى رباح ان محمد قد عزم على الثورة، فاحضر جماعة من وجوه المدينة وهددهم قائلاً:

- يا أهل المدينة، أمير المؤمنين يطلب محمداً في شرق الارض وغربها وهو بين اظهركم، واقسم بالله لئن خرج لأقتلنكم جميعاً.

ثم ارسل جماعة من جلاوزته فجاءوا بعدد من الوجوه العلوية وعلى رأسهم الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وحبسهم عنده خوفاً من التحاقهم بالثائرين. وبينما هم عنده اذ ترامت الى الآذان اصوات التكبير لتعلن عن اندلاع ثورة محمد النفس الزكية.

واقبل محمد في اصحابه نحو سجن المدينة فاقتحموه وأخرجوا من كان فيه من السجناء، ثم انطلقوا نحو دار الامارة وهو يوصيهم: «لا تقتلوا إلّا يقتلوا».

والقوا القبض على رباح ومن كان معه من زبانيته، ثم خرج محمد الى المسجد النبوي فصعد المنبر فخطب في الناس قائلاً بعد حمد الله وثنائه:

«اما بعد فانه قد كان من أمر هذا الطاغية عدو الله ابي جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التي بناها معاندة لله في ملكه وتصغيراً للكعبة الحرام، وانما اخذ الله فرعون حين قال ﴿انا ربكم الاعلى﴾، وانّ احق الناس بالقيام في هذا الدين ابناء المهاجرين والانصار المواسين. اللهم انهم قد احلّوا حرامك وحرّموا حلالك، وآمنوا من اخفت وأخافوا من آمنت. اللهم فاحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم احداً. ايها الناس، اني والله ما خرجت من بين اظهركم وأنتم عندي أهل قوة ولا شدة، ولكني اخترتكم لنفسي! والله ما جئت هذه وفي الارض مصر يُعبد الله فيه الاّ وقد أُخذ لي فيه البيعة»(٢١٥).

ويكون محمد قد وضّح في البيان الأول للثورة عوامل اندلاع هذه الثورة والتي تتلخص في: طغيان ابي جعفر المنصور وتجبّره وتفرعنه، واستصغاره للشعائر الاسلامية، وعصيانه لله، وانحرافه عن دينه من خلال تحليله لما حرّم الله وتحريمه لما حلل، واخافته للمؤمنين واحتضانه للمنحرفين عن سبيل الله.

وقيل انّ الذي دعا محمد الى القول بأنّ البيعة قد أُخذت له في سائر البلاد، هي الكتب المزورة التي كان يبعثها اليه المنصور على ألسن قواده

والشخصيات المهمة والتي يخبرونه فيها انهم مبايعوه وينتظرون خروجه.

وبايع فضلاء المدينة ووجوهها محمداً ولم يتخلف عنه سوى افراد قلائل منهم: الضحاك بن عثمان بن عبد الله بن خالد بن حزام، وعبد الله بن المنذر بن المغيرة بن عبد الله بن خالد، وابو سلمة بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر، وحبيب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير.

كما استفتى بعض أهل المدينة مالكاً في الخروج مع محمد وقالوا:

ـ انّ في اعناقنا بيعة لابي جعفر.

فقال لهم:

ـ انما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين.

وعندما علم المنصور بذلك، سعى الى اخماد تلك الثورة عن طريق الخداع وشراء مفجّرها بالمال، فبعث اليه كتاباً جاء فيه:

«... ولك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله ان اؤمنك وجميع ولدك واخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم واموالكم، واسوّغك ما اصبتَ من دم أو مال، وأُعطيك الف الف درهم وما سألت من الحوائج، وأُنزلك من البلاد حيث شئت، وأن أُطلق من في حبسي من أهل بيتك، وان اؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك أو دخل في شيء من امرك ثم لا اتبع احداً منهم بشيء كان منه ابداً. فان اردت ان تتوثق لنفسك فوجه اليّ من احببت يأخذ لك من الامان والعهد والميثاق ما تتوثق به»(٢١٦).

الا ان محمداً لم يثر من اجل المال أو الدنيا ولا من أجل ان يحظى بعفو المنصور وعهد أمانه، ولو أراد ذلك لفعل قبل ان يعيش كل تلك السنوات العجاف حياة التشرد والغربة والخوف، وقبل ان يلاقي ابوه

والبيت العلوي كل ما لحق بهم من ويلات ومحن. إن محمداً قد ثار من اجل انْ يعيد للاسلام وجهه المشرق بعد أنْ كدّره العباسيون وللرسالة المحمدية صوتها المدوي الذي اخرسوه، وللبيت العلوي حرمته وكرامته بعد ان انتهكوه وأذلّوه. ولهذا اجاب المنصور قائلاً:

«... وأنا اعرض عليك من الامان ما عرضت عليّ، فانّ الحق حقنا وانما ادعيتم هذا الأمر بنا وخرجتم له بشيعتنا وحظيتم بفضله، فانّ ابانا علي كان الوصي وكان الامام، فكيف ورثتم ولايته وولده احياء؟

ثم قد علمت انه لم يطلب الامر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا، لسنا من ابناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء، وليس يمت احد من بني هاشم بمثل الذي نمتّ به من القرابة والسابقة والفضل. وانا بنو امّ رسول الله ﷺ فاطمة بنت عمرو في الجاهلية، وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم. ان الله اختارنا واختار لنا. فوالدنا من النبيين محمد افضلهم، ومن السلف اولهم اسلاماً علي، ومن الازواج افضلهن خديجة الطاهرة واول من صلّى الى القبلة، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء العالمين وأهل الجنة، ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة، وان هاشماً ولد علياً مرتين، وان عبد المطلب ولد حسناً مرتين، وان رسول الله ﷺ ولدني مرتين من قبل حسن وحسين... ولك الله إن دخلت في طاعتي وأجبت دعوتي ان اؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته الّا حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم او معاهد، فقد علمت ما يلزمني من ذلك.

وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد، لانك اعطيتني من الامان والعهد

ما اعطيته رجالاً قبلي، فأيّ الامانات تعطيني؟ أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم؟[(٢١٧)]».

ونجد انّ محمد النفس الزكية اكّد في هذه الرسالة على أحقية اولاد علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام بالخلافة والامامة، وسخريته من امان المنصور الذي لم يعمل بأماناته وعهوده السابقة الى ابن هبيرة وعبد الله بن علي وابي مسلم. كما نجده أيضاً يمنح الأمان لابي جعفر المنصور ويعفو عنه عدا في القضايا التي تعدّى فيها حدود الله أو اغتصب حق مسلم، وهي اشارة رائعة تؤكد على مبدئية ثورته واسلامية اتجاهها وخضوع قيادتها للقوانين الإلهية التي لا يمكن تجاهلها أو تخطيها مهما كانت المبررات.

واتجه النفس الزكية لفرض سيطرته على الحجاز فاستعمل محمد بن الحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب على مكة، والقاسم بن اسحاق على اليمن، وموسى بن عبد الله على الشام.

الاستشهاد

وعندما فشل المنصور في احتواء الثورة سلمياً عقد العزم على دحرها بالاسلوب العسكري، فاستدعى عمه عيسى بن موسى وكان ولياً للعهد، وقال له: «امض ايها الرجل، فوالله ما يراد غيري وغيرك، وما هو الّا ان تشخص انت أو اشخص أنا».

وكانت سياسة المنصور هي ان يزجّ بين خصومه ويوقع بين من يريد

تصفيتهم. وكان لا يرتاح الى عمه عيسى بن موسى ولا يريد ان تؤول الخلافة اليه، بل يريدها الى ولده المهدي، لهذا قال بعد ما سيّره للحجاز: لا ابالي ايهما قتل صاحبه!(٢١٨).

ولما بلغ محمداً اقتراب الجيش العباسي ـ والذي كان يتألف في معظمه من أهل خراسان ـ من المدينة، استشار اصحابه في الخروج من المدينة أو المقام بها، فأشار بعضهم عليه بالخروج منها، واشار بعضهم بالمقام بها. واخيراً رجح الرأي الثاني، وحفروا خندقاً حول المدينة شاركهم محمد في حفره.

وعندما ادرك محمد انّ الحرب وشيكة جمع الناس فخطب فيهم قائلاً: «انّ عدو الله وعدوكم (اي عيسى بن موسى) قد نزل الاعوص، وانّ الناس بالقيام بهذا الامر لأبناء المهاجرين والانصار، الا وإنّا قد جمعناكم واخذنا عليكم الميثاق وعدوكم عدد كثير، والنصر من الله والأمر بيده، وانه قد بدا لي ان آذن لكم، فمن احب منكم ان يقيم اقام، ومن احب ان يظعن ظعن».

فخرج عالم كثير، وخرج اناس من أهل المدينة بذراريهم واهليهم الى الاعراض والجبال، وبقي محمد في شرذمة يسيرة.

وحاصر عيسى بن موسى المدينة من جميع الجهات عدا جهة واحدة تركها ليشجع الناس على التخلي عن محمد والخروج من المدينة. ثم وقف على مرتفع تسلّع ونادى أهل المدينة: يا أهل المدينة ان الله حرم دماء بعضنا على بعض فهلموا الى الامان! فمن قام تحت رايتنا فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن القى سلاحه فهو آمن ومن خرج من المدينة فهو آمن. خلّوا بيننا وبين صاحبنا فامّا لنا

وإما له.

وقد أراد بهذا الاسلوب ان يفرّق الناس عن محمد وينفرد به. واندلع القتال بين الجانبين وقاتل محمد بن عبد الله يومئذ قتالاً عظيماً وابدى شجاعة منقطعة النظير، وكانت هتافات «احد، احد» تنطلق من حناجر انصاره، وقتل بيده سبعين رجلاً من الجنود العباسيين.

وتقدم أحد قادة الجيش العباسي ويدعى حميد بن قحطبة في فوج من جنده فهدّموا جداراً دون الخندق عليه جماعة من اصحاب محمد، ثم انتهوا الى الخندق ونصبوا عليه جسراً عبروا منه الى داخل المدينة. واتاح هذا الاقتحام الفرصة لباقي الجيش العباسي لنصب الجسور على الخندق واجتيازه مع الخيول، والاشتباك مع قوات محمد القليلة والتي كانت تقلّ شيئاً فشيئاً.

وعندما ادرك محمد انّ الجيش العباسي على ابواب تسجيل النصر العسكري، اغتسل وتحنّط واستعد لاستقبال الموت بصدر رحب ونفس مطمئنة، في حين اخذت البقية الباقية من اصحابه تتفرق عنه بعدما تبين لها عقم المقاومة واقترب العباسيين من مرحلة الحسم.

وصلى محمد الظهر والعصر في ثلاثمائة من أصحابه بعدد أهل بدر، ثم اقبلوا على القتال واشتدت المعركة وهزموا اصحاب عيسى مرتين وثلاثاً، الّا انّ مجموعة من الجيش العباسي صعدوا على جبل سلّع وانحدروا منه الى المدينة، كما فتح بنو ابي عمر والغفاريون طريقاً لجنود عيسى دخلوا منه أيضاً، وجاءوا من وراء اصحاب محمد دون ان يعلموا بهم. واستمر محمد يقاتل قتالاً شبيهاً بقتال الحمزة يوم احد، حتى ضربه

رجل دون شحمة اذنه اليمنى فبرك على ركبته وجعل يذبّ عن نفسه ويقول: «ويحكم ابن نبيكم مجرّح مظلوم!»، فطعنه حميد بن قحطبة في صدره فصرعه، ثم نزل اليه فاحتز رأسه واتى به عيسى، فبعثه الى المنصور، فأمر ان يطاف به في الكوفة ثم سيّره الى الآفاق(٢١٩).

وهكذا كتب لثورة محمد ان تفشل بعد ان كادت تحقق اهدافها، وكُتب لمحمد ان يُقْتَل في ميدان الجهاد في الرابع عشر من رمضان سنة ١٤٥هـ.

وقام عيسى بن موسى بقتل كل من شك في انضمامه الى محمد وصلب جثثهم ما بين ثنية الوداع الى دار عمر بن عبد العزيز ثم أمر بعد ثلاثة أيام بالقائها في مقبرة اليهود!

وأساء الجيش الخراساني العباسي معاملة أهل المدينة وارتكبوا الكثير من اعمال القتل والنهب والتجاوز على الاعراض في ظل نوع من الحكم العسكري فرضه العباسيون عليها. كما صادر عيسى كافة اموال العلويين المنقولة وغير المنقولة سواء ساهموا في الثورة ام لم يساهموا بما فيها اموال الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام. كما صدر مرسوم من المنصور باعفاء من ساند محمداً من احفاد عمر بن الخطاب وانزال عقوبة الموت بمن ايده من آل الزبير، وقال بالحرف الواحد: «لو وجدت الفاً من آل الزبير كلهم محسن وفيهم مسيئ واحد لقتلتهم جميعاً، ولو وجدت الفاً من آل عمر كلهم مسيئ وفيهم محسن واحد لأعفيتهم جميعاً»(٢٢٠).

امضى ابراهيم هو الآخر حياته مشرداً مطارداً من قبل المنصور العباسي. وقد امضى الشطر الأول والأكبر من ذلك التشرد في مناطق الحجاز بين الجبال والوديان مرة الى جانب اخيه محمد، واخرى منفصلاً عنه حسب ما تقتضيه الظروف والاوضاع الامنية. وكان يتردد على ابيه في بعض الأحيان متنكراً للاطلاع على احواله وعلى اوضاع الساحة.

اما الشطر الثاني من تشرده فقد بدأ بعد القاء السلطة العباسية القبض على ابيه وكافة اقربائه، حيث انفصل عن اخيه محمد وخرج من بلاد الحجاز والجزيرة ليجوب فارس وكرمان واليمن والشام والموصل وحتى بغداد وغير ذلك من المدن والبلدان الاسلامية(٢٢١).

وروى ابن الاثير في الكامل(٢٢٢) ان ابراهيم كان في بغداد عندماالمنصور ببناء قنطرة الصراة العتيقة، فخرج ابراهيم مع الناس لينظر اليها، فوقعت عين المنصور عليه وكان يعرفه، الا انه ضاع منه في ذلك الازدحام، وجَدَّ المنصور في طلبه داخل بغداد وأغلق طرق الخروج منها ووضع الجواسيس والعيون عليها، وأصرّ على القاء القبض عليه. ووجد ابراهيم ان موقفه حرج للغاية ولو تأخّر في بغداد فلا بد من العثور على مخبئه واعتقاله. كما انّ طرق الخروج من بغداد مراقبة رقابة شديدة. وحينئذ انقدحت في رأسه فكرة ارتاح لها:

كان لابراهيم صديق يعتمد عليه يدعى سفيان بن حيان، فبعثه الى الخليفة المنصور لتنفيذ الخطة المحفوفة بالمخاطر، فأقبل سفيان الى

الربيع فسأله ان يدخله على المنصور، فأدخله عليه، وكان المنصور يعرف علاقته بابراهيم، فما ان رآه حتى شتمه، فقال سفيان له:

ـ يا امير المؤمنين، أنا أهل لما تقول، غير انني اتيتك تائباً ولك عندي كل ما تحب، وانا آتيك بابراهيم بن عبد الله.

ثم تابع كلامه قائلاً:

ـ اني قد بلوتهم فلم اجد فيهم خيراً، فاكتب لي جوازاً ولغلام معي يحملني على البريد الى البصرة ووجّه معي جنداً.

ولم تكد الارض تتسع للمنصور من الفرح وأدرك انّ الفريسة قد وقعت في المصيدة. لهذا اسرع الى كتابة جواز له بالخروج من بغداد والانطلاق نحو البصرة دون ان يحق لأحد اعتراضه في الطريق. كما بعث معه مجموعة من الجنود واعطاه الف دينار ليستعين بها، فقال:

ـ لا حاجة لي فيها.

وأخذ منها ثلاثمائة دينار، وأقبل والجند معه فدخل البيت الذي كان ابراهيم مختفياً فيه، وكان على ابراهيم جبّة صوف وقباء كأقبية الغلمان، فصاح به سفيان، فوثب وجعل يأمره وينهاه.

وعندما وصلوا الى البصرة، راح يتخلص من الجنود الذين معه عن طريق توزيعهم على ابواب بعض دور البصرة قائلاً لهم:

ـ لا تبرحوا حتى آتيكم!

وبلغ الخبر سفيان بن معاوية امير البصرة، فطلب سفيان بن حيان وصاحبه ـ اي ابراهيم ـ فلم يعثر لهما على خبر.

وتوجه ابراهيم الى الاهواز واختفى عند الحسن بن خُبيب الى ان انقطع عنه الطلب في البصرة فقدم اليها ونزل في دار ابي فروة، فاتخذها مركزاً لدعوته.

واخذ يفتح من تلك الدار قنوات الاتصال بمن يثق بهم من شيعة أهل البيت داعيهم لمبايعة اخيه محمد النفس الزكية، فأقبل عليه كثير من فضلاء البصرة ووجوهها، واتسعت دائرة دعوته لتضمن كثيراً من فتيان العرب وجماعة كبيرة من الفقهاء وأهل العلم حتى بلغ عدد المبايعين في المراحل الاولى اربعة آلاف شخص.

وعندما عظم نفوذه وتقوى امره انتقل الى دار اخرى تدعى دار ابي مروان ليصبح اكثر قدرة على التحرك سيما وقد مال والي البصرة سفيان بن معاوية اليه.

وفيما كان ابراهيم يواصل عمله بدأب ويستقطب الانصار والموالين، ويزداد التفاف الناس حوله، وصل اليه كتاب من اخيه يخبره فيه عن اعلانه للثورة. فوجم ابراهيم لذلك الخبر واغتم لانه كان يدرك أن الدعوة لم تنضج بعد والظروف لم تكن مساعدة على اعلان الثورة، وكان المفروض ان يكون هناك تنسيق بينهما وتشاور قبل الاقدام على خطوة خطيرة من هذا النوع.

وحاول انصاره تخفيف وطء الامر عليه فقالوا له:

ـ قد اجتمع لك امرك، فتخرج الى السجن فتكسره من الليل، فتصبح وقد اجتمع لك عالم من الناس.

ووجد ابراهيم نفسه مجبراً على الاستعجال في اعلان الثورة بالبصرة ولا مفرّ له سوى ذلك. فاعلن ثورته في اول شهر رمضان عام ١٤٥هـ، وصلى بأنصاره الصبح في الجامع، ثم قصد دار الامارة وبها سفيان متحصناً في جماعة. فطلب من ابراهيم الامان، فآمنه، فدخلوا الى الدار.

واستتبت الأمور لابراهيم في البصرة وفرض سيطرته عليها، وزحف نحوه جعفر بن سليمان بن علي واخوه محمد في ستمائة رجل، فأرسل اليهما ابراهيم رجلاً من اصحابه يدعى المضاء بن القاسم الجزري في خمسين رجلاً فهزمهما. ونادى منادي ابراهيم: «لا يُتبع مهزوم ولا يُذفَّف على جريح».

ولما ترامت انباء ثورة ابراهيم والانتصارات التي حققها، اخذ الموالون لأهل البيت النبوي يتدفقون على البصرة من كل حدب وصوب، مما ارعب المنصور فأمر رجاله بملاحقة كل من يتوجه الى البصرة والقاء القبض عليه وقتله في الحال. فأخذوا يتخذون طرقاً ملتوية وشعاباً وعرة غير مسلوكة للوصول الى البصرة. وقام المنصور بنصب رؤوس الذين تم القاء القبض عليهم وقتلهم على الطرقات لاسيما عند الكوفة لارهاب الناس وتحذيرهم من مغبة الالتحاق بابراهيم.

وعندما استقرت الاوضاع في البصرة، بعث ابراهيم الى الاهواز قائداً من قواده يدعى المغيرة على رأس مجموعة قتالية تتألف من مائتي رجل. فخرج اليه عامل المنصور عليها ويدعى محمد بن الحصين في اربعة آلاف رجل لم تكن لديهم الرغبة في القتال، فانهزم ابن الحصين

ودخل المغيرة الاهواز.

ثم بعث ابراهيم القوات الى فارس وواسط فأخضعهما، واخذ يحرز النجاح تلو النجاح والانتصار تلو الانتصار، واخذ يتطلع الى اليوم الذي يطوي فيه السجل العباسي الى الابد ويقتلع جذور الحكم العباسي الذي اخذ يترنح تحت ضربات مطرقة الثورة الابراهيمية، ويرى أخاه محمد وقد اسس الكيان العلوي ووضع الحجر الاساس لدولة علوية محمدية.

لكنّ تلك التطلعات لم تستمر طويلاً اذ اتاه نعي اخيه محمد قبل عيد الفطر بثلاثة ايام، فصعق للخبر، واستولت عليه الدهشة، وادرك ان عجلة الزمن لازالت تسير لغير صالحهم، فبكى أخاه كثيراً، وخرج بالناس يوم العيد والانكسار ظاهر على ملامح وجهه، فصلى بهم، واخبرهم بمقتل اخيه، ثم رثاه من على المنبر بأبيات شعرية حزينة. ثم القى خطبة قصيرة اكد فيها على هدف الثورة قائلاً: «اللهم انك تعلم أن محمداً انما خرج غاضباً لك ونفياً لهذه المسودة، وايثاراً لحقك، فارحمه واغفر له، واجعل الآخرة خير مرد له ومنقلب من الدنيا»(٢٢٣).

واججت شهادة محمد الغضب والحماس في قلب ابراهيم فقرر ان يزحف نحو عاصمة المنصور ليقضي على دولته سيما وأنّ التقارير وصلت اليه مؤكدة على قلة ما مع المنصور من قوات، اذ فرق معظم جيشه في مختلف الامصار: فمع المهدي بالري ثلاثون الفاً، ومع محمد بن الاشعث بافريقية اربعون الفاً، والبقية الباقية مع عيسى بن موسى في المدينة(٢٢٤).

وعندما عزم ابراهيم على المسير اشار عليه بعض اصحابه البصريين: «تقيم وترسل الجنود، فيكون اذا انهزم لك جند امددتهم بغيرهم فخيف مكانك واتقاك عدوك وجبيتَ الاموال وثبَّتّ وطأتك» الا ان انصاره من أهل الكوفة الذين انضموا اليه، عارضوا هذا الرأي وقالوا:

«ان بالكوفة أقواماً لو رأوك ماتوا دونك، وانْ لم يروك قعدت بهم اسباب شتى».

واستحسن محمد الرأي الاخير، فانطلق مع جيشه نحو الكوفة.

وعندما بلغ المنصور نبأ ثورة ابراهيم ارتعدت فارئصه لقلة ما معه من عسكر، فكتب فوراً الى عيسى بن موسى ـ الذي اخمد ثورة النفس الزكية ـ بالعودة على جناح السرعة. وكتب الى مسلم بن قتيبة فقدم عليه من الري فقال له: اعمد الى ابراهيم ولا يروّعنك جمعه. وكتب الى المهدي يأمره بانفاذ خزيمة بن حازم الى الاهواز.

وكانت اول مجابهة عسكرية بين القوات العباسية وقوات ابراهيم في مدينة الاهواز، حيث زحف نحوها خزيمة في اربعة آلاف فارس واستطاع بعد حرب ضارية ان يستولي عليها، فانسحب المغيرة الى البصرة مفضلاً الالتحاق بابراهيم.

وعندما وصل عيسى بن موسى قادماً من المدينة امره المنصور بالخروج لقتال ابراهيم بن عبد الله فوراً ودون تريّث وقال لأحد خاصته بعد خروج عيسى للقتال:

«انّ ابراهيم قد عرف وعورة جانبي، وصعوبة ناصيتي، وخشونة

قرني، وانما جرّأه على المسير الي من البصرة اجتماع هذه الكور المطلة على عسكر أمير المؤمنين وأهل السواد معه على الخلاف والمعصية. وقد رميت على كل كورة بحجرها، وكل ناحية بسهمها، ووجهت اليهم الشهم النجد الميمون المظفر عيسى بن موسى، في كثرة من العدد والعدة»(٢٢٥).

وخرج عيسى على رأس جيش عدته ١٥ الف مقاتل وعلى مقدمته حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف. وخرج المنصور مودعاً ذلك الجيش ومحاولاً ان ينفخ فيه روح العزيمة.

ولما سار ابراهيم عن البصرة خرج ليلاً متنكراً ليطلع على أوضاع جيشه الذي التحق به الكثير من اصحاب الطمع والغنائم، فسمع اصوات الطنابير فقال: ما اطمع في نصر عسكر فيه مثل هذا، ثم انشد بلوعة:

امور لو يدبّرها حليم ... اذاً لنَهى وهيَّبَ ما استطاعا
ومعصية الشقيق عليك مما ... يزيدك مرة من استماعا
وخير الأمر ما استقبلت منه ... وليس بأنْ تَتبَّعَهُ اتباعا
ولكنّ الاديم إذا تفرّى ... بِلىً وتعيّباً غلب الصناعا

فعلم قومه انه نادم على مسيره.

وكان اللقاء بين الجيشين العباسي والعلوي في منطقة باخمرى (باخمرا) التي تبعد عن الكوفة ١٦ فرسخاً، ونشب قتال ضار بين العسكرين ابلى فيه جنود ابراهيم بلاءً حسناً، فانهزم حميد بن قحطبة مع جنوده، فاعترضهم عيسى بن موسى يناشدهم الثبات، الا انّ احداً لم يصغ لقوله، ولم يبق معه الّا نفر يسير.

وبينما اخذت الهزيمة المرة تتجسد أمام عيني عيسى، وفيما كان ابراهيم يعيش أحلام النصر، وإذا بقوة عباسية يقودها جعفر ومحمد ابنا سليمان بن علي تهاجم قوات ابراهيم من الخلف، فوقع الارتباك في قوات ابراهيم. وعندما شاهدت قوات عيسى المنهزمة ذلك كرّت راجعة فوقع جنود ابراهيم في كماشة الجيش العباسي.

وثبت ابراهيم في نفر من اصحابه يبلغون ستمائة وقيل اربعمائة، واصاب ابراهيم سهم عاثر فوقع في حلقه، فهوى الى الارض وهو يقول: «وكان أمر الله قدراً مقدوراً[٢٢٦]، اردنا امراً وأراد الله غيره».

واجتمع عليه اصحابه وخاصته يحمونه ويقاتلون دونه، فقال حميد بن قحطبة لأصحابه: «شدّوا على تلك الجماعة حتى تزيلوهم عن موضعهم وتعلموا ما اجتمعوا عليه»، فشدوا عليهم فقاتلوهم أشدّ قتال حتى افرجوهم عن ابراهيم، وخلصوا اليه وحزّوا رأسه، فكان استشهاده في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ١٤٥هـ وكان عمره ٤٨ عاماً. وهو الذي اشار اليه دعبل الخزاعي في قصيدته التي القاها بين يدي الامام الرضاعليه السلام ونالت استحسانه: وقبر بباخمرى لدى الغرباتِ.

وهكذا قدم هذا العلوي الثائر الآخر نفسه قرباناً الى الله ليروي بدمه شجرة الإسلام الوارفة الظلال التي لا يمكن للاعداء مهما تأجج الحقد في صدورهم ان يميتوها ما دامت هناك دماء طاهرة تسقيها ونفوس ابية تدافع عنها[٢٢٧].

وذكر المسعودي[٢٢٨] ان عبد الله بن الحسن كان لا زال حياً مع اربعة

من آل الحسن عندما استشهد ابراهيم واخوه محمد، في حين مات كل ذلك العدد الكبير من العلويين الذين حبسهم المنصور في سجن ابن هبيرة. وامر المنصور حاجبه الربيع بن يونس ان يحمل رأس ابراهيم الى ابيه في سجنه تشفياً به وتعذيباً له. وعندما رُمي بالرأس داخل الزنزانة كان عبد الله يصلي، فقال له اخوه ادريس: اسرع في صلاتك يا ابا محمد.

وعندما انهى صلاته اخذ الرأس فوضعه في حجره وخاطبه:

«اهلاً وسهلاً يا ابا القاسم، والله لقد كنت من الذين قال الله عزّ وجل فيهم: ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به ان يوصل﴾(٢٢٩).

ثم التفت الى الربيع وقال له:

«قل لصاحبك ـ اي المنصور ـ قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك ايام، والملتقى يوم القيامة».

قال الربيع: فما رأيت المنصور قط اشد إنكساراً منه في الوقت الذي بلغته فيه هذه الرسالة.

٢ـ مواقف الامام من المهدي والهادي

توجه المنصور الى الديار المقدسة في عام ١٥٨هـ. تحت ستار الحج، لكنه كان يسعى مثل حجه السابق لتوجيه ضربة اخرى الى البيت العلوي واطفاء جذوة الحقد التي تستعر في قلبه على هذا البيت، لا سيما الامام موسى بن جعفر عليه السلام الذي كان المنصور يخطط لتصفيته والتخلص منه بعد أن قضى على الفروع العلوية الاخرى مثل آل الحسن والذين كان وجودهم يمثّل دعماً وتعزيزاً لموقع الامام الكاظم عليه السلام، اما وقد بقي الامام اشبه بالوحيد، فلماذا لا ينفرد به ويوجّه له الضربة النهائية التي تقتلع الحصن العلوي الاكبر والزعيم الهاشمي الذي تخفق له افئدة الأمة والامام المحمدي الذي يمثل تحدياً قائماً مستمراً لسلطته.

ولم تكن الأمور دائماً في قبضة الطغاة ولا الأوضاع تسير لصالحهم كل حين، فهناك التقديرات الالهية والمشيئة الربانية التي تتصدى لهم وتعترض سبيلهم وتنسف كل احلامهم ومخططاتهم. فأبى الله إلّا ان ينفّذ ارادته ولا يسمح للمنصور بتحقيق اهدافه ونواياه الخبيثة هذه المرة.

وعلى هذا الصعيد ذكر علي بن حمزة قائلاً:

سمعت ابا الحسن موسى عليه السلام يقول:

ـ لا والله، لا يرى ابو جعفر بيت الله ابداً.

فقدمت الكوفة فأخبرت اصحابنا بذلك، فلم نلبث ان خرج المنصور،

فلما بلغ الكوفة، قال لي اصحابنا في ذلك، فقلت:

ـ لا والله لا يرى بيت الله ابداً.

فلما صار الى البستان اجتمعوا اليّ أيضاً فقالوا:

ـ بقي بعد هذا شيء؟!

فقلت لهم:

ـ لا والله لا يرى بيت الله ابداً.

فلما نزلنا بئر ميمون (بالقرب من مكة) اتيت ابا الحسن فوجدته في المحراب قد سجد فأطال السجود، ثم رفع رأسه اليّ وقال:

ـ اخرج فانظر ما يقول الناس؟

فخرجت فسمعت الواعية على ابي جعفر.

فرجعت فأخبرته فقال:

ـ الله اكبر، ما كان ليرى بيت الله ابداً(٢٣٠).

وكانت وفاته في ٦ ذي الحجة من عام ١٥٨هـ وعمره ٦٤ عاماً.

وكان المفروض ان يلي عيسى بن موسى الخلافة بعد المنصور لانه كان ولياً للعهد منذ أيام السفاح حيث اوصى بالخلافة له بعد المنصور، غير ان الاخير كره ان يخلفه عيسى واراد ان تكون الخلافة لابنه محمد المهدي. وحاول انتزاع التنازل من عيسى عن ولاية العهد بالطرق السلمية ولكنه ابى ان يتنازل عن حقّه، مما اوغر صدره عليه وأخذ يخطط للانتقام منه وتصفيته جسدياً. وقد علمنا من قبل كيف كان المنصور يزجّه في المعارك والحروب عسى ان يُقتل فيها ويتخلص منه بتلك الطريقة، لهذا

كان يقول عندما بعثه الى قتال النفس الزكية: «لا ابالي ايهما قتل صاحبه»[231].

وعندما نجا عيسى من تلك المعارك، فكّر المنصور بشكل جدي في التخلص منه، فأمر ان يُسقى السم. وعندما وجد عيسى الماء في بطنه، استأذن في العودة الى بيته بالكوفة، فاذن له فمرض من ذلك واشتد مرضه، ثم عوفي بعد ذلك[232].

وقام المنصور بعزل عيسى عن ولاية الكوفة التي وليها مدة ١٣ عاماً، واستعمل بدلاً منه محمد بن سليمان بن علي واوكل اليه مهمة الاستهانة به والنيل منه وإلحاق الاهانات في محاولة لاركاعه واجباره على التنازل عن ولاية العهد. كما أمر المنصور الجنود ان يسمعوه ما يكره ويستهينوا به حتى انه شكا ذلك الى المنصور فأجابه:

ـ يا ابن اخي، اني والله اخافهم عليك وعلى نفسي، فانهم يحبون هذا الفتى ـ اي المهدي ـ فلو قدّمته بين يديك لكفوا[233].

ولم يكتف المنصور بذلك، بل انه أمر الربيع يوماً، فقام الى موسى بن عيسى بن موسى، فخنقه بحمائله وموسى يصيح:

ـ الله الله في رمي يا امير المؤمنين!

فلما رأى ذلك ابوه عيسى بن موسى، خاف على ولده، فقال للمنصور:

ـ والله يا أمير المؤمنين ما كنت اظن أن الامر يبلغ منك هذا كله! فاكفف عنه، فها أنا ذا اشهدك ان نسائي طوالق، ومماليكي احرار، وما املك في سبيل الله، تصرف ذلك في من رأيت! وهذه يدي بالبيعة

للمهدي![٢٣٤].

وقيل ان ثلاثين شخصاً من جلاوزة المنصور شهدوا امام النـاس أنّ عيسى قد خلع نفسه وبايع للمهدي دون علم من عيسى الذي سارع الى إنكار ذلك، الّا انّ احداً لم يسمع منه[٢٣٥].

وبهذه الطريقة مهد المنصور الطريق لولده المهدي، كـي يـخلفه فـي السلطة، ويحكم رقاب المسـلمين دون ان يكـون للـمسلمين رأي فـي حاكمهم الجديد، وليس عليهم سوى الاذعان والخنوع.

مجئ المهدي

تولى محمد المهدي الخلافة بعد وفاة ابيه مباشرة، ورغم ما قيل من انه حاول ان لا ينهج نهج ابيه ولا يتعامل مع الناس بلغة البطش والارهاب التي كان ابوه لا يعرف غيرها، الا انه لم يتخلص نهائياً من تلك السياسة لاسيما مع العلويين مثلما سيمر علينا ذلك، كما انه كان محباً الى اللـهو ومغرماً بالجواري ومولعاً بالصيد، ولا يتردد في شرب الخمر اعتقاداً منه انها ليست من المحرمات، كما سيتضح لنا ذلك في المناقشة التي جرت بينه وبين الامام الكاظم بهذا الشأن.

وعندما يكون زعيم المسلمين منهمكاً في اللهو والنساء والصيد، فهل بامكانه ان يهتم بامور المسلمين، وهل تتوفر لديه الفرصة لتحقيق العدل واشاعته كما يحاول البعض ان يعطي انطباعاً عن عهد المهدي. وسنكتفي بايراد بعض ما ذكره المؤرخون حول المهدي ضمن دائرة ما اشرنا اليه

اعلاه، ليتبين لنا ما هي اهتمامات هذا الحاكم العباسي الجديد وهل يمكن لحاكم بهذا المستوى ان يكون حاكماً اسلامياً أو قادراً على تلبية طموحات الامة؟

* دخل المهدي بعض دوره يوماً فإذا جارية له نصرانية، وإذا جيبها واسع، وقد انكشف عما بين ثدييها، وإذا صليب من ذهب معلّق في ذلك الموضع، فاستحسنه، فمدّ يده اليه فجذبه، فأخذه، فولولت الجارية على الصليب، فقال المهدي في ذلك

يوم نازعتها الصليب فقالت   ويح نفسي اما تُحلّ الصليبا

وأرسل الى بعض الشعراء فأجازه[٢٣٦]، وأمر به فغني فيه، وكان معجباً بهذا الصوت![٢٣٧].

* نظر المهدي الى جارية له عليها تاج فيه نرجس من ذهب وفضة فاستحسنه، فقال:

يا حبذا النرجس في التاج

فارتجّ عليه ولم يستطع تتمته، فقال:

من بالحضرة؟

فقالوا:

ـ عبد الله بن ملك.

فدعاه، فقال له:

ـ اني رأيت جارية لي فاستحسنت تاجاً عليها فقلت: يا حبذا النرجس في التاج، فهل تستطيع ان تزيد عليه؟

فقال عبد الله:

ـ نعم، ولكن دعني اخرج فافكر.

فقال له المهدي:

ـ شأنك.

فخرج وأرسل الى مؤدب لولده، فسأله اجازته، فقال المؤدب مكملاً ذلك الصدر:

على جبينٍ لاح كالعاج

ثم اتمها ابياتاً اربعة.

فأرسل عبد الله تلك الابيات الى المهدي، فبعث اليه المهدي بأربعين الف درهم، فأعطى المؤدب منها اربعة آلاف وأخذ الباقي لنفسه[(٢٣٨)].

* قال احمد بن موسى بن مضر: انشدني المهدي في جارية له تدعى «حسنة»:

أرى مـــاءً وبي عـــطش شـــديد
ولكـــــن لا ســـبيل الى الورود
امـــا يكـــفيك انكِ تمـــلكيني
وانّ النـــاس كـــلهم عـــبيدي
وانكِ لو قـــطعتِ يـــدي ورجـــلي
لقلتُ من الرضا احسنتِ زيدي[(٢٣٩)]

* وذكر علي بن محمد عن ابيه: رأيت المهدي وقد دخل البصرة من قبل سكة قريش، فرأيته يسير والبانوقة ابنته بين يديه، بينه وبين صاحب

الشرطة، عليها قباء اسود متقلدة سيفاً في هيئة الغلمان، واني لأرى في صدرها شيئاً من ثدييها.

وكانت البانوقة سمراء حسنة القد حلوة، مـاتت فـي حـياة المـهدي فأظهر عليها جزعاً لم يُسمع مثله(٢٤٠).

* خرج المهدي للصيد فعار به فرسه، فدفع الى خباء اعرابي وهـو جائع، فقال:

ـ يا اعرابي هل عندك قرى فاني ضيفك؟

فقال الاعرابي:

ـ اراك جسيماً عميماً، فان احتملت قربنا لك ما يحضرنا.

قال:

ـ هات ما عندك.

فأخرج له خبز مَلَّة فأكلها، وقال:

ـ طيبة، هات ما عندك.

فأخرج اليه لبناً في كرش فسقاه فشرب، وقال:

ـ طيب، هات ما عندك.

فأخرج له فضلة نبيذ في ركوة فشرب الاعرابي واحداً وسقاه. فـلما شرب المهدي النبيذ، قال للاعرابي:

ـ أتدري من انا؟

قال الاعرابي؟

ـ لا والله.

قال:

ـ أنا من خدم الخاصة.

قال الاعرابي:

ـ بارك الله في موضعك وحباك من كنت.

ثم شرب الاعرابي قدحاً من النبيذ وسقاه. فلما شرب المهدي، قال له:

ـ يا اعرابي، اتدري من أنا؟

قال:

ـ نعم، ذكرت انك من خدم الخاصة.

قال المهدي:

ـ لست كذلك.

فقال الاعرابي:

ـ فمن انت؟

قال:

ـ أنا أحد قواد المهدي.

قال الاعرابي:

ـ ترحبت دارك وطاب مزارك.

ثم شرب الاعرابي قدحاً وسقاه.

فلما شرب المهدي قدح النبيذ الثالث، قال:

ـ يا اعرابي اتدري من انا؟

قال:

ـ نعم زعمت انك أحد قواد المهدي.

قال المهدي:

ـ فلست كذلك.

قال:

ـ فمن انت؟

قال المهدي:

ـ أمير المؤمنين نفسه!

فأخذ الاعرابي ركوته فوكاها، فقال له المهدي:

ـ اسقنا!

قال الاعرابي:

ـ لا والله لا تشرب منها جرعة فما فوقها... سقيتك قدحاً فزعمت انك من خدم الخاصة فاحتملناها لك، ثم سقيناك آخر فزعمت انك أحد قواد المهدي فاحتملناها لك، ثم سقيناك الثالث فزعمت انك امير المؤمنين، ولا والله ما آمن ان اسقيك الرابع فتقول انك رسول الله(٢٤١)!

موقفه من العلويين

رغم ما قيل من ان المهدي اتخذ سياسة تختلف عن سياسة ابيه المنصور حيال العلويين، وانه حاول ممارسة اللين والتسامح معهم، وأعاد ما صادره ابوه من اموال بعضهم مثل اموال الامام الصادق عليه السلام التي اعادها الى ابنه الامام الكاظم عليه السلام، الا انّ تلك السياسة كانت سياسة

مؤقتة أراد من خلالها ان يثبّت موقعه، ويكسب ودّ العلويين، عسى ان يتفادى بتلك الطريقة ثورات محتملة لهم عليه، قد لا يقوى على التصدي لها، سيما وانه يفقد دهاء ابيه وحزمه.

فالمهدي في الحقيقة لا يختلف عن ابيه في ما يضمره من عداء لأهل البيت عليهم السلام، بل وكانت الرسالة الاولى التي وجهها اليه ابوه بعد موته مباشرة هي تلك الخزانة الكبيرة التي كانت مملوءة بقتلى الطالبيين بين اطفال ورجال وشباب وشيوخ، والتي اطلع عليها المهدي لأول مرة بعيد وفاة ابيه بناء على وصية منه(٢٤٢)، وسبق ان اشرنا الى ذلك في فصل سابق.

والذي يؤكد على اضطرام العداء في قلب المهدي على العلويين، تشجيعه للشعراء الذين كانوا ينالون من أهل البيت. فلو كان المهدي قد اتخذ سياسة ودية من العلويين وفتح صفحة جديدة من العلاقة معهم قائمة على الصدق والاخلاص، لما تجرأ شعراء مثل بشار بن برد ومروان بن ابي حفصة على النيل من العلويين وغمطهم حقهم. فعندما يفرغ بشار من قصيدته التي تحامل فيها على ابناء بنت محمد صلى الله عليه وآله والتي من ضمنها البيت التالي:

انّى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الاعمام

يهدي اليه المهدي سبعين الف درهم.

فلماذا هذا الكرم العباسي؟ أليس لكي يتشجّع الشعراء لذم أهل البيت ومدح العباسيين؟ أليس هذا تحريضاً ضد العلويين وثورة اعلامية عليهم؟

وموقفه من شعر ابن ابي حفصة هو الآخر دليل على موقف المهدي العدائي من آل الرسول صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ وابناء علي وفاطمة عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ.

فعندما خاطب مروان بن ابي حفصة العلويين بوقاحة:

هل تطمعون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها؟
او تدفعون مقالة عن ربكم جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الانفال آخر آية بتراثهم، فأردتم إبطالها!

تزاحف المهدي واخذه الفرح، ثم أمر له بمائة الف درهم!

ومن الشخصيات العلوية التي تحركت بشكل علني ضد المهدي العباسي هو عيسى بن زيد بن علي بن الحسن بن علي بن ابي طالب، وعلي بن العباس بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب، وقد ارادا من خلال ذلك التحرك الجهادي التأكيد على لا شرعية النظام العباسي من جهة وعلى انّه امتداد لسياسة المنصور وموقفه المعادي للعلويين اصحاب الحق الشرعي من جهة اخرى.

وقد التحق عيسى بن زيد بثورة ابراهيم بن عبد الله في البصرة وانضم الى صفوفه، ثم التحق بالكوفة بعد فشل تلك الثورة واستشهاد زعيمها ابراهيم. واتخذ من الكوفة مركزاً لنشاطه السياسي المناهض للعباسيين، لكنه كان نشاطاً سرياً محاطاً بالتكتم الشديد. وكان يتسلل بين الفينة والفينة الى الحجاز للاتصال بالعلويين هناك والتشاور مع الشخصيات الشيعية المهمة.

وكان المنصور العباسي يدرك الخطر الذي كان يشكله عيسى بن زيد

على الدولة العباسية لهذا عبّر عن مخاوفه منه عندما اوصى ابنه المهدي قائلاً:

«يا بني اني قد جمعت لك من الاموال ما لم يجمعه خليفة قبلي، وبنيت لك مدينة لم يكن في الإسلام مثلها، ولست اخاف عليك الّا رجلين: عيسى بن موسى، وعيسى بن زيد. فأما عيسى بن موسى فقد اعطاني من العهود والمواثيق ما قبلته، ووالله لو لم يكن الا ان يقول قولاً لما خفته عليك، فأخرجه من قلبك، واما عيسى بن زيد، فأنفق هذه الاموال، واقتل هؤلاء الموالي، واهدم هذه المدينة، حتى تظفر به، ثم لا الومنك»[٢٤٣].

وعلى ضوء تلك الوصية اولى المهدي العباسي قضية عيسى بن زيد اهمية كبيرة الا انه حاول ان يستميله بالاموال، فأرسل من ينقل اليه رغبة الخليفة بكسب ودّه ومنحه الاموال والجوائز، فقال عيسى: «لئن ابيتُ خائفاً ليلة واحدة احبّ اليّ من جميع ما بذل لي ومن الدنيا بأسرها»[٢٤٤].

وعندما يئس المهدي من استمالته، اصدر امراً الى والي الكوفة بضرورة مراقبة تحركاته ورصد كافة ما يقوم به من اعمال. وقد القى هذا الوالي القبض على بعض مؤيديه وبعثهم الى المهدي فزجّ بهم في السجن.

وتصاعدت نشاطات عيسى بن زيد حتى قيل انّ عدد اصحابه وصل الى عشرة آلاف شخص، مما دفع بأحد ابرز الشخصيات الكوفية ـ وهو الحسن بن صالح ـ الى الاعتراض عليه لعدم المبادرة الى اعلان الثورة

قائلاً:

ـ حتى متى تدافعنا بالخروج وقد اشتمل ديوانك على عشرة آلاف رجل؟

فأجابه عيسى بن زيد:

ـ ويحك اتكثر علي العدد، وانا بهم عارف، اما والله لو وجدت فيهم ثلاثمائة رجل اعلم انهم يريدون الله عزّ وجل، ويبذلون انفسهم له، ويصدقون للقاء عدوه في طاعته لخرجت قبل الصباح حتى أبلي عند الله عذراً في اعداء الله، واجري أمر المسلمين على سنته وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، ولكن لا اعرف موضع ثقة يفي ببيعته لله عز وجل، ويثبت عند اللقاء(٢٤٥).

وتوفي عيسى بن زيد في عهد المهدي قبل ان يتمكن من اعلان الثورة التي كان يعدّ لها، وكتم انصاره خبر وفاته. وتحدث الحسن بن صالح الكوفي عن سبب ذلك بقوله: «لا يعلم موته أحد فيبلغ السلطان فيسره ذلك، ولكن دعوه بخوفه ووجله منه وأسفه عليه حتى يموت، ولا تسروه بوفاته فيأمن مكروهه»(٢٤٦).

وكلام ابن صالح هذا يعبّر عن مدى هاجس الخوف الذي كان يعيشه المهدي من عيسى ومدى القلق الذي كان ينتابه منه.

اما الشخصية العلوية الاخرى التي برز تحركها في أيام المهدي فهو علي بن العباس، الذي اتخذ من العاصمة العباسية بغداد مركزاً لحركته الثورية وربما هي المرة الاولى التي يتحرك فيها زعيم علوي ضد

العباسيين في عاصمتهم.

ودخل علي بن العباس الى بغداد بشكل سري وبدأ فيها دعوة سرية اخذ يتجاوب معها الشيعة المتواجدون هناك، والذين كانوا لا يجاهرون بولائهم لأهل البيت ويتكتمون على ذلك خوفاً من بطش العباسيين.

وتسربت اخبار هذه الحركة الى المهدي عن طريق بعض المندسين في صفوفها، وعلم بالمكان الذي يختفي فيه، فألقى القبض عليه ودعوته لازالت في المهد، ثم دسّ اليه السم وأطلق سراحه، فتفسخ لحمه ومات بعد ثلاثة أيام من وصوله الى المدينة(٢٤٧).

مع الامام الكاظم (ع)

كان المهدي على يقين انّ الخطر الاكبر الذي يتهدده، كان يتجسد في وجود الامام موسى بن جعفر عليه السلام باعتباره خليفة الامام الصادق عليه السلام في زعامة البيت العلوي وإمامة المسلمين، ولأنّ الحركات العلوية والثورات الطالبية انما تندلع بمباركة خفية منه. ولهذا حاول جاهداً انْ يتجنب في بداية الأمر اية مواجهة معه، فضلاً عن السعي لتحييده في المعركة المستمرة القائمة بينه وبين العلويين. فهل افلح المهدي العباسي في تحقيق ذلك؟ وهل استطاع ان يتحمل وجود الامام الكاظم زعيماً اسلامياً علوياً تشخص اليه الانظار وتخفق له الافئدة، وقائداً رسالياً يأبى الخضوع للسياسة العباسية ويصرّ على نشر الإسلام بصورته النقية الأصيلة؟

وكانت هناك في الحقيقة أربع مواجهات علنية بين الامام الكاظم والمهدي اتى المؤرخون على ذكرها. ونحن لا نشك في وجود مواقف اخرى للامام الكاظم عليه السلام اسدل عليها المؤرخون أستار إما خوفاً من السلطة أو بأمر منها. وهذه المواجهات أو المواقف هي:

* كان المهدي لا يعتقد أو يحاول ان يبرر لنفسه انّ الخمر غير محرمة في القرآن، وقد رأينا من حكاية سابقة نقلناها عن تاريخ المسعودي كيف كان يكرع الكأس بعد الكأس من النبيذ، ولهذا قال للامام الكاظم عند زيارته للمدينة:

ـ ان الناس انما يعرفون النهي عنها ولا يعرفون التحريم لها!

ومن الواضح انه يريد بالناس نفسه، فقال له الامام بحزم:

ـ بل هي محرمة في كتاب الله عزّ وجل.

ولم يقتنع المهدي بذلك، فقال:

ـ في اي موضع هي محرمة في كتاب الله عزّ وجل؟

فقال له الامام:

ـ قول الله عز وجل ﴿**انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق**﴾(٢٤٨).

ثم اخذ الامام يفسّر له مصطلحات هذه الآية الشريفة:

ـ فاما قوله «ما ظهر منها» يعني الزنا المعلن، ونصب الرايات التي كانت ترفعها الفواجر للفواحش في الجاهلية. واما قوله عز وجل «وما بطن»، يعني نكح الآباء، لأنّ الناس كانوا قبل ان يبعث النبي صلى الله عليه وآله اذا كان

للرجل زوجة ومات عنها زوجها تزوجها ابنه من بعده اذا لم تكن امه، فحرم الله عزّ وجل ذلك.

واما «الاثم» فانها الخمرة بعينها، وقد قال الله تبارك وتعالى في موضع آخر: ﴿ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس﴾[٢٤٩]، فاما الاثم في كتاب الله فهي الخمر والميسرة، واثمهما كبير كما قال الله عزّ وجل.

وحينئذ لم يحر المهدي جواباً، لهذا لم يجد بداً من القول:

ـ هذه والله فتوى هاشمية![٢٥٠].

❊ اما المواجهة الثانية فكانت بين الامام والمهدي حول قضية «فدك».

وفدك في الاساس قرية بالحجاز تبعد عن المدينة مسافة يومين ثلاثة، وكانت في بادئ الامر ارضاً يهودية تسكنها طائفة من اليهود، وعندما تعاظم شأن الإسلام في العالم الهجري السابع شعر سكانها بالذعر من هذه القوة الجديدة، فأهدوا هذه الارض نصفها أو كلها الى الرسول صلى الله عليه وآله.

واصبحت فدك ملكاً خاصاً للرسول صلى الله عليه وآله لانها لم تُفتح عنوة أو على يد قوة عسكرية، وقد أهداها الرسول صلى الله عليه وآله بعد فترة الى ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام فظلت تحت تصرفها حتى وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله. الا انّ الخليفة الاول انتزعها من الزهراء مدعياً انها من الموارد العامة وليست ملكاً خاصاً للرسول.

هذه هي فدك كقضية تاريخية، لكنها في الحقيقة تحولت الى قضية سياسية فأصبحت تعني حقّ أهل البيت المغتصب وولايتهم المستلبة، فلم

تعد بعد إقصاء الامام علي عليه السلام عن خـلافة المسـلمين ـوهـو الوارث الشرعي للرسول ـ مجرد ارض زراعية أو بستان فيه عدد من الشجيرات، بل تحولت الى رمز لذلك الحق، ولافتة عريضة يرفعها العلويون تـعبيراً عما لحق بهم من ظلم وما عانوه من ويلات بـعد وفـاة الرسـول صلى الله عليه وآله ولاسيما في العصرين الاموي والعباسي.

ولهذا عندما أراد المهدي إعادة ما صادره ابوه من اموال العلويين، قرر ان يعيد فدكاً الى الامام الكاظم عليه السلام على اعتبارها حـقاً مشـروعاً مـن حقوقه. لهذا سأل الامام انْ يحدّها له، فانتهز الامام تلك الفرصة فأكد من خلال اجابته الرائعة على حقّ أئمة أهـل البـيت فـي امـامة المسـلمين وقيادتهم، فقال:

«حدّ منها جبل احد، وحدّ منها عريش مصر، وحدّ منها سيف البحر، وحدّ منها دومة الجندل».

وادرك المهدي انّ الامام يريد بفدك البلاد الاسلامية بأسرها وليست تلك الارض الزراعية القريبة من المدينة، وعلم انّ الامام يطالبه بحقّه في حكم هذه البلاد بشكل غير مباشر، لهذا قال المهدي متعجباً:

ـ كل هذا؟

فأجابه الامام.

ـ نعم هذا كله[٢٥١].

* اما المواجهة الثالثة بين الامام عليه السلام والمهدي فكانت عندماالاخير تخريب الدور المحيطة بالمسجد الحرام. ورفض الناس ان يبيعوا بيوتهم،

الا أنّ المهدي كان مصراً على ذلك، لهذا استفتى فقهاء عصره فقالوا: لا يجوز ادخال مكان مغصوب الى المسجد الحرام. واقترح عليه علي بن يقطين الذي كان يشايع أهل البيت، ان يستفتي الامام موسى بن جعفر عليه السلام.

وعندما بعث اليه مستفتياً، اجابه الامام قائلاً:

«إنّ كانت الكعبة هي النازلة بالناس فالناس اولى ببنائها، وإن كان الناس هم النازلون بفناء الكعبة فالكعبة اولى بفنائها».

وهكذا اكد الامام في هذه الفتوى على حرمة الكعبة ومكانتها وضرورة اهتمام الناس بها وتكريمها واعمارها في كافة الاحوال. وعندئذ لم يجد الناس بدأً من اخلاء بيوتهم المحاذية للمسجد الحرام لتوسيع هذا المسجد عملاً منهم بفتوى الامام الكاظم وقناعتهم انّ فتواه منطبقة تماماً مع المنطق الاسلامي ولا سبيل لهم الى الاغضاء عنها، فوافقوا على التعويضات(٢٥٢).

* اما المواجهة الرابعة والاخيرة فكانت مواجهة عنيفة وصارمة، فلم يعد يحتمل المهدي وجود الامام الكاظم عليه السلام بعد أن ذاع صيته في الآفاق واصبح كعبة آمال العلماء وطلّاب العلم، وبعد أن تعاظمت نشاطاته ذات المغزى السياسي، سيما وان جواسيس المهدي كانوا يكتبون انّ الناس اخذوا ينضمون اليه سراً جماعات جماعات، والاموال تجبى اليه من كل مكان، مما ادخل الى قلبه الفزع، وادرك انّ اباه كان على حقّ في ضربه للعلويين وتصفيته للامام الصادق عليه السلام. لهذا بعث الى

واليه على المدينة بالقاء القبض عليه وحمله الى بغداد.

وروى ابو خالد الزبالي في هذا الشأن قائلاً:

قدم ابو الحسن (الامام الكاظم عليه السلام) زبالة ومعه جماعة من اصحاب المهدي بعثهم في اشخاصه اليه، فأمرني بشراء حوائج له، ونظر الي وانا مغموم فقال:

ـ يا ابا خالد، مالي اراك مغموماً؟

قلت:

ـ هوذا تصير الى هذا الطاغية (اي المهدي) ولا آمنك منه.

قال:

ـ ليس علي منه بأس. اذا كان يوم كذا فانتظرني في اول الليل(٢٥٣).

وزجّ المهدي بالامام الكاظم عليه السلام في السجن كي يقطع عليه نشاطاته الفكرية والسياسية، واتصالاته بالكوادر التي كان يرعاها ويوجهها، وانفتاحه على الأمة واهتماماته الدائبة بها.

ولم يكن السجن بالنسبة للامام بالأمر الذي يستطيع ان ينال من عزمه وصموده وتصميمه على مواصلة النهج الذي سار فيه آباؤه من قبل، كما ان السجن ليس غريباً على الساعين الى الله والمنطلقين نحوه.

وقرر المهدي آخر المطاف ان يطلق سراح الامام شعوراً منه انه لا يستطيع بهذه الطريقة انْ يحقق اهدافه، لانّ ذلك سيؤجج نار الغضب عليه ويزيد من التصاق الأمة بامامها وانجذابها اليه، ويعري النظام العباسي امام الجماهير كنظام ارهابي غير اسلامي وقيل ان المهدي ارسل ليلاً الى

وزيره الفضل بن الربيع فجاء اليه مذعوراً، فقال له: عليّ الآن بموسى بن جعفر، فجاءه به، فعانقه وأجلسه الى جانبه وقال: يا ابا الحسن رأيت علي بن ابي طالب عليه السلام في النوم فقرأ عليّ ﴿فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا ارحامكم﴾[٢٥٤].

ثم اطلق المهدي سراح الامام وسمح له بالعودة الى المدينة[٢٥٥].

ونحن لا نستبعد ان يرى المهدي مثل ذلك التهديد في منامه، ولكن هناك احتمال أيضاً ان يكون المهدي قد بحث عن ذريعة يطلق بها سراح الامام، بعد ادراكه ان سجنه ليس في صالحه فضلاً عن عدم عثوره على وثيقة واضحة يدين بها الامام، لهذا افتعل مثل هذا المنام والذي أراد به أن يجني فوائد اخرى منها رؤيته للامام علي عليه السلام في المنام وهذه مكرمة عظيمة، وتأكيده على انتسابه والعلويين الى نسب واحد، وهذا يعني أن لا ميزة للعلويين يمتازون بها على العباسيين. كما أراد بهذه الطريقة ان يكسب ودّ باقي العلويين على اعتبار انه اطلق سراح الامام الكاظم عليه السلام إحتراماً للامام علي عليه السلام واطاعة لامره!

ونعود مرة اخرى الى حديث ابي خالد الزبالي الذي اوردنا شطراً منه والذي بشره الامام انْ لا ضير عليه وان ينتظر خروجه في اليوم الفلاني.

قال ابو خالد:

فما كانت لي همة الّا احصاء الايام، حتى اذا كان ذلك اليوم، وافيتُ اول المَيل (ميل الشمس) فلم ار احداً حتى كادت الشمس تجب (تغيب)، فشككت، ونظرت بعد الى شخص قد اقبل فانتظرته فإذا هو ابو الحسن

موسى على بغلة قد تقدم. فنظر اليّ فقال:

ـ لا تشكنّ.

فقلت:

قد كان ذلك.

ثم قال:

ـ انّ لي عودة ولا اتخلص منهم[٢٥٦].

موت المهدي

توفي المهدي العباسي في عام ١٦٩هـ وأُختلف في سبب وفاته فقيل انه خرج كعادته للصيد فاقتحم به الفرس خربة فدُقَّ ظهره في باب الخربة فمات لساعته. وقيل بعثت جارية من جواري المهدي الى ضرة لها طعاماً فيه سم وهو قاعد في البستان، فدعا به فأكل منه ففرقت الجارية ان تقول انه مسموم.

وقيل انّ جاريته «حسنة» قد عمدت الى كمثراتين كبيرتين جعلتهما في صينية وسمت واحدة منهما وهي أحسنهما وأنضجهما في أسفلها وردت القمع فيها ووضعتها في أعلى الصينية، وأرسلت بهما الى جارية اخرى للمهدي كان يتخطاها، تريد قتلها. ومرت الوصيفة الحاملة للكمثري من امام المهدي، فمدّ يده الى الكمثري المسمومة واكلها. فلما وصلت الى جوفه اخذ يصرخ، فلما سمعت حسنة الخبر، لطمت خدها واخذت تبكي وتقول: اردت ان انفرد بك فقتلتك! ورجعت حسنة وعلى قبتها المسوح، فقال ابو العتاهية في ذلك:

رُحْنَ في الوشيّ وأصبحن عليهن المسوح

كلّ نطّاح من الدهر له يوم نَطوح

لستَ بالباقي ولو عمَّرت ما عمَّر نوح

فعلى نفسك نُحْ إن كنت لابدّ تنوح[٢٥٧]

وقال علي بن يقطين: كنا مع المهدي بماسبذان، فقال لي يوماً: اصبحت جائعاً فأتني بأرغفة ولحم بارد، ففعلت، فأكل ثم دخل البهو ونام، وكنا نحن في الرواق، فانتبهنا لبكائه، فبادرنا اليه مسرعين، قال:

وقف علي رجل لو كان في الف رجل ما خفي عليّ صوته ولا صورته، فقال:

كأني بهذا القصر قد باد اهله وأوحش منه رَبْعُه ومنازله
وصار عميد القوم من بعد بهجةٍ ومُلكٍ، الى قبر عليه جنادله
فلم يبق الّا ذكره وحديثه تنادي عليه مُعوِلاتٍ حلائله

فما أتت على المهدي بعد رؤياه الا عشرة أيام حتى توفي[٢٥٨].

الهادي واللهو

وتقلّد موسى الهادي بن المهدي السلطة بعد وفاة ابيه وذلك في الثالث والعشرين من المحرم عام ١٦٩هـ وهو ابن اربع وعشرين سنة[٢٥٩]. وكان شاباً نزقاً طائشاً يميل الى اللعب واللهو، فضلاً عن قساوة قلبه، وشراسة اخلاقه، وشدة بطشه[٢٦٠].

ولم يكن لديه ادنى اهتمام بشؤون المسلمين واصلاح امورهم، حيث كان يقضي معظم وقته في شرب الخمر ومعاشرة النساء، ومنادمة الندماء، والخوض في أحاديث فارغة والاصغاء للغناء الرخيص، وسماع الاشعار الماجنة. وكان المهدي قد ادرك انه اخطأ في انتخابه ولياً للعهد، لهذا فكر

ان يصرف ولاية العهد عنه، الّا أنّ موته المفاجئ حال دون ذلك.

كان اهتمام الهادي بالخمر وولعه بها يفوق كل اهتمام وولع آخر، ولهذا كان يعاقرها دائماً ويتلذذ بسماع الاغاني على ايقاع اقداحها، ويهمه سماع اخبارها وما يقال فيها، وهذا ما يتضح من الحكاية التالية:

ادخل الفضل بن الربيع عليه يوماً رجلاً يدعى ابن دأب وكان من احظى الناس عنده. فوجده منبطحاً على فراشه وانّ عينيه حمراوان من السهر وشرب الليل.

فقال له الهادي:

ـ حدثني بحديث في الشراب!

فقال له:

خرج رجال من كنانة ينتجعون الخمر في الشام، فمات اخ لأحدهم، فجلسوا عند قبره يشربون، فقال احدهم:

لا تُصَرِّد هامةً من شَربها   اسقه الخمر وإنْ كان قَبَر

أسقِ اوصالاً وهاماً وصدىً   قاشعاً يقشع قشعَ المبتكر

كان حُرّاً فهوى فيمن هوى   كل عود وفنون منكسر

فما كان من الهادي الا ان كتب له باربعين الف درهم(٢٦١).

وكان الهادي مولعاً بالغناء ومحباً للمغنين ومقرباً لهم الى درجة كبيرة، حتى انه كان يقضي معهم لياليه طارباً على اصواتهم وألحانهم، غائصاً في نشوة الطرب والسكر. وكان يغدق عليهم بالاموال والصلات والخلع حتى قال اسحاق الموصلي، المغني العباسي المعروف: لو ظلّ الهادي حياً

لشيدنا جدران بيوتنا من الذهب.

وروى ابراهيم بن اسحاق الموصلي وكان مغنياً كأبيه: كنا يوماً عند موسى الهادي وعنده ابن جامع، ومعاذ بن الطبيب. وكان معاذ حاذقاً بالأغاني عارفاً بأقدمها، فقال الهادي:

ـ من أطربني منكم فله حكمه.

فغناه ابن جامع غناء فلم يحركه، وفهمتُ غرضه في الاغاني، فقال:

ـ هات يا ابراهيم.

فغنيته:

سليمى اجمعت بينا فأين تقولها اينا؟

فطرب حتى قام من مجلسه ورفع صوته وقال:

ـ اعد!

فعدتُ.

فقال:

ـ هذا غرضي فاحتكم، اي فاطلب!

فقلت:

ـ يا امير المؤمنين، حائط (بستان) عبد الملك وعينه الخرارة.

فدارت عيناه في رأسه حتى صارتا كأنهما جمرتان، ثم قال:

ـ يابن اللخناء، اردت ان تسمع العامة انك اطربتني واني حكمتك فأقطعتك. اما والله لولا بادرة جهلك التي غلبت على صحيح عقلك، لضربت الذي فيه عيناك.

ثم اطرق هنيهة فرأيت ملك الموت بيني وبينه ينتظر امره، ثم دعا ابراهيم الحراني، فقال له:

ـ خذ بيد هذا الجاهل فأدخله بيت المال فليأخذ من ما شاء[٢٦٢].

وكان حب الهادي للغناء وجنونه ببعض الالحان يدفعانه لتبذير اموال المسلمين بهذه الصورة على هذا المطرب أو ذاك، وكأنّ ثروة المسلمين ملكاً خاصاً له ينفقها على من يشاء من هؤلاء المنحرفين وعلى ما يشاء من نزواته وشهواته. بل لو افترضنا انها ملكه أيضاً، فهل يحق له ان يبددها بهذه الصورة، ام انّ للانفاق مسالكه واصوله؟.

وضمن هذا الاطار روى حكم الوادي قائلاً:

كان الهادي يشتهي من الغناء الوسط الذي يقل ترجيعه ولا يبلغ ان يستخف به حداً.

واضاف هذا النديم: فبينما نحن ليلة عنده، وعنده ابن جامع، والموصلي، والزبير بن دحمان، والغنوي، إذ دعا بثلاث بدور[٢٦٣]، وأمر بهن فوضعن في وسط المجلس، ثم ضمّ بعضهن الى بعض، وقال:

ـ من غناني صوتاً في طريقي الذي اشتهيه، فهنّ له كلهن.

وكان الهادي اذا كره شيئاً، لم يوقف عليه، وأعرض عنه. فغناه ابن جامع، فأعرض عنه، وغنّى القوم كلهم، فأقبل يعرض، حتى تغنيتُ فوافقت ما يشتهي، فصاح:

ـ احسنت، احسنت، اسقوني.

فشرب وطرب. فقمت فجلست على البدور، وعلمت اني قد حويتها...

وشرب حتى بلغ حاجته على الصوت ونهض، فقال:

ـ مروا ثلاثة من الفراشين يحملونها معه[٢٦٤].

وكان في مجلس الهادي جارية ماجنة تسقيه الخمر مع جلسائه، وقد دفعها ولع المهدي بها واحتضانه لها الى العبث بجلسائه وندمائه والاستهانة بهم والنيل منهم حتى انها كانت تخاطب بعضهم: يا جلفي[٢٦٥].

ثورة فخ

رغم ان الهادي العباسي لم يحكم سوى ١٣ شهراً، لكنه عامل العلويين معاملة في غاية القسوة والحقد، وآل على نفسه كجده المنصور ان يجتث جذورهم ولا يبقي منهم صغيراً أو كبيراً. اضف الى هذا كله انه لم يكن يخفي عداءه لأهل البيت بل كان يعبّر عن ذلك العداء بشكل صريح ويتهدد أهل البيت ويتوعدهم امام حاشيته وندمائه.

ولكي ينفّذ الهادي خطّته في القضاء على العلويين ولّى على المدينة رجلاً يدعى عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكان يغلي حقداً على أهل البيت، ووجد فيه الهادي الرجل القادر على تنفيذ مخططه الجهنمي.

وبدأ الوالي الجديد وتطبيقاً لسياسة الهادي يضطهد العلويين ومن يميل اليه، ويوجّه اليهم الاهانات كي يحطّ من قدرهم وينزل من شأنهم، وفرض عليهم نوعاً من الاقامة الجبرية داخل المدينة وعدم الاختلاط

بغيرهم، واوجب عليهم ان يعلنوا عن تواجدهم في المدينة من خلال الحضور بين يديه كل يوم.

وكانت اجراءات قاسية وشديدة لا تطاق ولم يكن لها اي مبرر، الا انّ الوالي العباسي كان يشدد على تلك الاجراءات ويصر عليها لانها تنفيذ لاوامر الخليفة من جهة وتنفيس عن الحقد الذي يضطرم في قلبه مع الطالبيين من جهة اخرى.

ولم يكتف بتلك القيود الثقيلة والاهانات المتكررة، بل خطا خطوة فضيعة الى الامام فاتّهم الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن، ومسلم بن جندب، وعمر بن سلام يشرب الخمر، فجلد الحسن ثمانين سوطاً وابن جندب ١٥ سوطاً وعمر بن سلام ٧ أسواط. ثم جعل في اعناقهم حبالاً وطيف بهم في شوارع المدينة وظهورهم مكشوفة!![٢٦٦].

ويتضح من هذا التصرف انّ العباسيين كانوا يهدفون إذلال العلويين واسقاطهم في أعين الناس من خلال اتهام أحد المنتمين اليهم بشرب الخمر، كما يريدون اثارتهم أيضاً وتحريضهم بهذه الطريقة الاستفزازية على القيام بردة فعل معاكسة كي يتخذوا منها ذريعة لتوجيه الضربة التي كان يريدها الهادي لهم.

ولا ندري لماذا لا تطال عقوبة شرب الخمر الهادي نفسه وبطانته والبيت العباسي الذي كان يتجاهر بذلك العمل المحرم في الاسلام؟

على اي حال فقد شعر البيت العلوي انّ الوالي العباسي تمادى في اضطهاده لهم وامتهانهم، وأنّ تلك الممارسة الوقحة والاهانة المتعمدة لا

تعني شخصاً واحداً منهم وانما تعني العلويين بأسرهم، لهذا انطلق الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب نحو والي المدينة واعترض عليه على سوء فعله ونفى عن العلويين تهمة شرب الخمر.

ولم تنفع تلك الخطوة في ردع الوالي العباسي عن غيّه، بل عهد الى مولى من الانصار يدعى ابو بكر بن عيسى الحائك مهمة تفقد العلويين في كل يوم والتأكد من عدم تغيّب احدهم.

وحدث ان غاب الحسن بن محمد يوماً، فطلب الحائك من الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله ان يُحضراه على الفور وهددهما بالسجن. فغضب يحيى لذلك وحدثت مشادة بين الاثنين.

واستدعى والي المدينة الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله فأخذ يوبخهما وينال من العلويين. وحاول الحسين تهدئة الوضع فقال بنبرة هادئة:

ـ انت مغضب يا ابا حفص؟!

فاستشاط غضباً وقال:

ـ اتهزأ بي وتخاطبني بكنيتي؟

فقال الحسين ولا زال محتفظاً بهدوئه:

ـ قد كان ابو بكر وعمر ـ وهما خير منك ـ يخاطبان بالكنى فلا ينكران ذلك، وانت تكره الكنية وتريد المخاطبة بالولاية؟

فتأجج غضبه وقال:

ـ آخر قولك شرّ من اوله.

فأجابه الحسين:

ـ معاذ الله، يأبى الله لي ذلك ومن أنا منه.

فقال الوالي بحنق:

ـ أفأنا ادخلتك اليّ لتفاخرني وتؤذيني؟

وصاح يحيى بن عبد الله بغضب:

ـ فما تريد منا؟

فأجاب الوالي:

ـ اريد أن تأتياني بالحسن بن محمد!

فقال يحيى:

ـ لا تقدر عليه، هو في بعض ما يكون في الناس، فابعث الى آل عمر بن الخطاب فاجمعهم كما جمعتنا ثم اعرضهم رجلاً رجلاً، فان لم تجد فيهم من قد غاب اكثر من غيبة الحسن عنك فقد انصفتنا.

وأعطى الوالي للحسين بن علي مهلة يوم وليلة حتى يحضر الحسن اليه، وأقسم ان يحرق دار الحسين ويضربه الف سوط ان لم يأت به اليه، كما اقسم ان يقتل الحسن اذا وقعت عينه عليه.

وخرج الحسين بن علي من عند الوالي ونار الثورة تضطرم في نفسه، وبعث الى الحسن من يخبره بما عزم عليه الوالي ويقترح عليه الهروب وطلب النجاة، الا ان الحسن كان يدرك انه إنْ لم يسلّم نـفسه الى والي المدينة عمر بن عبد العزيز العمري فانه سينتقم من الحسين بن علي، لهذا

قال له:

ـ لا والله يا بن عمي، بل اجئ معك الساعة حتى اضع يدي في يده.

فقال الحسين:

ـ ما كان الله ليطلع عليّ وأنا مقبل الى محمد صلى الله عليه وآله، وهو خصمي وحجيجي في دمك، ولكن اقيك بنفسي لعل الله يقيني من النار(٢٦٧).

وكان الحسين بن علي من رجال بني هاشم وساداتهم وفضلائهم، ويتّسم بالورع والتقوى والعلم والكرم، وكسب بهذه الصفات محبةالمدينة وتقديرهم له. ومن كرمه انه باع داراً له بأربعين الف دينار، فوزّعها كلها على فقراء المدينة في نفس اليوم(٢٦٩).

امه هي زينب بنت عبد الله بن الحسن، شقيقة محمد النفس الزكية، وشاهدت عن كثب ما جرى على ابيها واخوتها وآل الحسن على يد المنصور العباسي، لهذا كانت تندبهم وتبكي عليهم حتى يغشى عليها(٢٧٠).

وشهدت دار الحسين في تلك الليلة اجتماع الشخصيات العلوية التي ادركت انّ هناك مؤامرة خطيرة تتهدد البيت العلوي والاسلام، وأنّ السلطة العباسية مصممة على توجيه ضربة قاصمة لهم، ولا بد من اتخاذ ما يلزم لمواجهة هذه المؤامرة، ومجابهة ذلك المخطط المشؤوم ولو كان ثمن تلك المجابهة غالياً. وما قيمة الحياة اذا كان يلفّها الذل ويحيط بها الامتهان؟ وهل يمكن للبيت العلوي ان يرضى بالذل ويقبل بالامتهان وتاريخه حافل بالعزّ والمفاخر والثورات لاسيما ثورة كربلاء التي فجّرها

سبط الرسول ﷺ وابو الاحرار الامام الحسين عليه السلام، والتي اصبحت مناراً خالداً يستضيئ بنوره الاباة والشامخون في كل حين؟

وتقرر في ذلك الاجتماع ان تنطلق ثورة علوية في فجر تلك الليلة، فالوضع خطير متفاقم، والظروف صعبة حرجة، ولابد من الاسراع بالثورة التي كانت فكرتها تراود الحسين بن علي منذ فترة طويلة.

وقبيل فجر يوم من أيام ذي القعدة عام ١٦٩هـ، خرج يحيى بن عبد الله في مجموعة من العلويين وانصارهم الى دار مروان ـ وكانت دار الامارة ـ لالقاء القبض على الوالي عمر بن عبد العزيز، فلم يجدوه فيها، وكان قد اخفى نفسه بعدما علم باجتماع العلويين.

وتقدم العلويون جميعاً الى مسجد المدينة واخذت هتافات «احد، احد» المنطلقة من حناجرهم تدوي في فضاء المسجد النبوي الشريف. وبعد أن رُفع الأذان وأُقيمت الصلاة، ارتقى الحسين بن علي المنبر، فخطب في الناس خطاباً اكّد فيه على نهج ثورته والمتمثل في العمل بسنة رسول الله ﷺ، فقال لهم:

«... أنا ابن رسول الله، على منبر رسول الله، وفي حرم رسول الله، ادعوكم الى سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله. ايها الناس اتطلبون آثار رسول الله في الحجر والعود، وتتمسحون بذلك وتضيّعون بضعة منه؟...»(٢٧١).

وعندما اقبل الناس يبايعونه قال لهم:

«ابايعكم على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وعلى ان يُطاع الله ولا يعصى، وادعوكم الى الرضا من آل محمد، وعلى ان يعمل فيكم بكتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، والعدل في الرعية، والقسم بالسوية، وعلى ان تقيموا معنا،

وتجاهدوا عدونا، فانْ نحن لكم وفيتم لنا، وانْ نحن لم نف لكم، فلا بيعة لنا عليكم» (٢٧٢).

ونفهم من نصّ البيعة ان الحسين بن علي (رض)، لم يكن يدعو الى نفسه، وانما الى «الرضا من آل محمد»، حيث تؤكد الاحداث انه يريد به الامام موسى بن جعفر عليه السلام كما سنرى فيما بعد، لكنه كتم اسمه خوفاً عليه، لانّ مصير الثورة لا زال مجهولاً، سيما وانها قد اتسمت بالعجلة التي فرضتها الظروف.

وزحف نحو المسجد النبوي الشريف فوج من الجنود العباسيين بقيادة خالد البربري، واقتحموا أحد ابواب المسجد وهو باب جبرائيل، وقد شهروا سيوفهم ظانين انهم سيرعبون الثائرين بهذه الطريقة. واتجه البربري نحو الحسين وهو يصرخ: «قتلني الله إن لم اقتلك»، واعترضه يحيى بن عبد الله فضربه بالسيف على انفه فقطعه، وسال دمه على وجهه، ثم ضربه ادريس بن عبد الله بن الحسن فقتله. مما بعث الرعب في قلوب الجنود العباسيين فلاذوا جميعهم بالفرار (٢٧٣).

وتزامنت ثورة الحسين مع قدوم مبارك التركي الى المدينة وكان يتولى إمارة الحج لذلك العام، وشعر بخطورة الموقف، فضلاً عن عدم رغبته في التدخل بتلك الاحداث. ولم يجد امامه من حيلة سوى ان يبعث الى الحسين قائلاً: اني والله ما احب أن تبتلي بي ولا ابتلي بك، فابعث الليلة الى نفر من اصحابك ولو عشرة يبيّتون عسكري حتى انهزم.

ونفّذ الحسين الخطة، فوجّه عشرة من اصحابه الى جنود مبارك، فتظاهروا بالهجوم عليهم وهم يصرخون ويهتفون، فانسحب مبارك من

المدينة حاثاً الخطى نحو مكة المكرمة[٢٧٤].

وعندما استتبت الاوضاع في المدينة، استعدّ حسين وأصحابه للانطلاق نحو مكة واخضاعها، فخرج في الرابع والعشرين من ذي الحجة في ثلاثمائة من أهل بيته ومواليه، مستخلفاً على المدينة رجلاً يعتمد عليه يدعى دينار الخزاعي[٢٧٥].

وما أن علم الهادي العباسي بثورة الحسين، حتى بعث بكتاب الى محمد بن سليمان يوعز اليه باخمادها دون ابطاء. وعسكر محمد بن سليمان في منطقة ذي طوى القريبة من مكة والتحق به موسى بن عيسى والعباس بن محمد بن سليمان في اصحابهما.

وقاد ميمنة ذلك الجيش العباسي الذي بلغ عدد افراده اربعة آلاف فارس، محمد بن سليمان، فيما كان العباس بن محمد وموسى بن عيسى على الميسرة، ومعاذ بن مسلم على القلب. واقترب الجيش العباسي من الفئة العلوية القليلة في منطقة فخ التي تبعد فرسخاً واحداً عن مكة[٢٧٦].

وانطلق النداء من الجيش العلوي الصغير مدوياً: يا معشر الناس، هذا الحسين بن رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمه يدعوكم الى كتاب الله وسنة رسول الله[٢٧٧].

وكان الجيش العباسي المغرور بكثرة عدده، قد نفخ الشيطان في رأسه، فلم يسمع ذلك النداء المقدس، بل حمل على الثلّة المؤمنة من جميع الجهات. وواجهت عصابة الايمان تلك الجموع الهائلة ـ التي باعت دينها وضميرها للسلطان ـ بقلوب ملؤها الايمان، ونفوس متلهفة للقاء الله، وسيوف تنقضّ كالصواعق على رؤوس العتاة الحاقدين على سلالة

الرسول.

ولكن ماذا بامكان ثلاثمائة ان يفعلوا أمام أربعة آلاف أو اكثر؟ فأخذ الجنود العلويون يتساقطون صرعى في ميدان الجهاد واحداً بعد الآخر رافضين الاستسلام ومصممين على الشهادة، ما دام فيها عزّة الدنيا وكرامة الآخرة، متأسين في ذلك بجدهم ابي عبد الله الحسين بن علي بن ابي طالب، وسقط الحسين بن علي شهيداً على تراب فخ بالضبط كما سقط من قبل الحسين بن علي شهيداً على تراب كربلاء، مؤكداً وحدة الثورة، ووحدة الصرخة، ووحدة الصمود، ووحدة الشهادة.

ولم تنطفئ فورة الحقد العباسي بمقتل اكثر من مائة علوي، بل احتزوا رؤسهم أيضاً بالضبط كما فعل الامويون بقتلى واقعة كربلاء، وتركوا جثثهم في العراء دون ان توارى حتى اكلتها الحيوانات الضارية والطيور الجارحة!(٢٧٨) فيما وقع البعض اسيراً بيد القوات العباسية، وأقدم الجيش العباسي على قتل الاسرى العلويين، فقتلوا سليمان بن عبد الله بن الحسن، وعبد الله بن اسحاق بن ابراهيم، والحسن بن محمد بن عبد الله(٢٧٩). كما حُمِل ستة من الاسرى الى بغداد، أمر الهادي بقتل اثنين منهم وألقى الأربعة الباقين في السجن.

ونجا بعض اصحاب الحسين عندما اختلطوا بالحجاج الوافدين على مكة، فلم يتمكن العباسيون من تمييزهم.

ولم يكتف العباسيون بذلك، بل احرقوا دور الحسين واهله وصادروا اموالهم وضياعهم وبساتينهم.

وحملت رؤوس قتلى الفخ وزعيمهم الحسين بن علي الى الهادي بن

المهدي، لكي يزداد تشفياً بهم ويؤكد من خلال ذلك مدى حقده على البيت العلوي الذي لا ذنب له سوى الانتماء الى علي عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله واصراره على تطبيق الإسلام الأصيل.

وعندما بصر الهادي الرؤوس قال متمثلاً بشعر الشميذر الحارثي:

بني عمنا لا تنطقوا الشعر بعدما ... دفنتم بصحراء الغميم القوافيا
فلسنا كمن كنتم تصيبون نيله ... فنقبل ضيماً أو نحكم قاضيا
ولكنّ حكم السيف فينا مسلّط ... بني عمنا اذا ما اصبح السيف راضيا
وقد ساءني ما جرّت الحرب بيننا ... بني عمنا لو كان امراً مدانيا
فإن قلتم إنا ظلمنا فلم نكن ... ظلمنا ولكنْ قد اسأنا التقاضيا(٢٨٠)

ويحاول الهادي في هذه الابيات ان يذرف دموع التماسيح ويخفّف من وطأة الجريمة النكراء التي ارتكبها بحق ابناء عمه كما يدعي وهل كان جزاء بني العم ان يقتّلوا بهذه الصورة الرهيبة وتُحزّ رؤوسهم وتُحمل اليه كي تقرّ عيونه ويرقص قلبه؟!

وكانت وقعة فخ لطخة عار في جبين الدولة العباسية اذ تجسّد فيها الحقد الاسود، والجريمة المهولة، والاستبداد المقيت، والفرعونية المتجبرة. وكانت وسام شرف على كتف البيت العلوي يضاف الى اوسمة الشرف والكرامة التي تقلدها هذا البيت طوال مسيرته الحافلة بالجهاد والتضحية والثورة على الانحراف والطغيان والنفاق.

كما كانت «فخ» مأساة دامية وضربة عنيفة موجّهة الى آل ابي طالب حتى انّ الامام محمد الجواد عليه السلام قال: «لم يكن لنا بعد الطف مصرع اعظم من فخ»(٢٨١).

وأثار شاعر أهل البيت دعبل الخزاعي في قصيدته التي القاها بين يدي الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام الى هذه الواقعة في البيت التالي:

فلأبكين على الحسين ... بِعَوْلةٍ وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة ... الذي اثووه ليس له كفن
تُركوا بفخ غُدوةً ... في غير منزلة الوطن
كانوا كراماً قُتّلوا ... لا طائشين ولا جُبُن
غسلوا المذلة عنهم ... غسل الثياب من الدرن
هُدِي العباد بجدهم ... فلهم على الناس المنن(٢٨٢)

وقيل أن محمد بن سليمان الذي اشترك في قتل ثوار فخ، استبد به الندم على فعلته وكان يردد وهو يحتضر البيت التالي:

الا ليت امي لم تلدني ولم أكن
لقيت حسيناً يوم فخّ ولا الحسن (٢٨٣)

موقف الامام من الثورة

سبق ان قلنا ان الائمة عليهم السلام كانوا يؤيدون معظم الثورات العلوية التي تفجرت ضد السلاطين العباسيين، نظراً لما كانت تحمله هذه الثورات من مبادئ واضحة وأهداف محددة تتمثل في احياء الإسلام وتطبيقه على كافة الاصعدة وفي جميع الشؤون.

ورأينا كيف ان أول كلمة قالها ثائر فخ للمسلمين هي: «انا ابن رسول الله، على منبر رسول الله، وفي حرم رسول الله، ادعوكم الى سنة رسول

الله»[٢٨٤] كما كانت بيعته: «ابايعكم على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى ان يطاع الله ولا يعصى»[٢٨٥].

بعد هذا هل يمكن للامام الكاظم عليه السلام انْ لا يؤيّد هذه الثورة أو لا يدعمها وهي ترفع الشعارات الاسلامية وتدعو الى كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وآله وهداية الناس نحو طاعة الله وصرفهم عن معاصيه؟

اضف الى ذلك ان زعيم ثورة فخ لم يكن يدعو الى نفسه، بل كان يدعو الى الرضا من آل محمد كما مرّ، ولم يكن يريد بذلك سوى الامام الكاظم عليه السلام، ولهذا حاول الامام جاهداً أن لا يقدم للسلطة العباسية ما يدل على دعمه للثورة واسناده لها، خاصة وانه كان يدرك بالامكانات القليلة التي كان يملكها الثوار انها لن تحرز نصراً على الصعيد العسكري، لكنها على اي حال كان لابد منها لايقاظ الامة، والدفاع عن حرمةالبيت وما لحق بهم من امتهان واذلال، وتحذير السلطة العباسية من مغبة تكرار مثل ذلك التعامل المشين مع العلويين، فضلاً عن أنّ الثورة ارادت ان تؤكد من خلال المبادئ التي طرحتها على انحراف السلطة العباسية ولا اسلاميتها رغم ما تتقنع به من اقنعة اسلامية، لتحث الأمة وتحركها من اجل العمل على مواجهة هذه السلطة وإسقاطها واقامة حكم اسلامي يعمل بكتاب الله وسنة رسوله.

انطلاقاً من ذلك ندرك ان الامام الكاظم عليه السلام كان يقف خلف ثورة فخ، وقد تجلى ذلك الوقوف عند قوله له حين ودعه: يا ابن عم انك مقتول فأجد الضراب، فانّ القوم فسّاق، يظهرون ايماناً ويسرون شركاً، وانا لله وانا اليه راجعون، احتسبكم عند الله من عصبة[٢٨٦].

كما أنّ الامام الكاظم عليه السلام قال فيه بعد استشهاده:

«إنا لله وإنا اليه راجعون، مضى والله مسلماً صالحاً صواماً آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، ما كان في أهل بيته مثله»[٢٨٧].

وهذه الشهادة القيّمة من فم الامام تؤكد على سلامة ايمان الحسين بن علي، وصواب موقفه، ومبدئية ثورته، وحسن منقلبه. ويمكن ان تعكس أيضاً تأييد الامام لثورته ودعمه له.

ولم يخف على الهادي العباسي ذلك الدعم، فقد قال فيه:

«والله ما خرج حسين الّا عن امره ولا اتّبع الّا محبته لأنه صاحب الوصية في أهل هذا البيت».

ثم قال يتهدد الامام:

«قتلني الله إنْ ابقيت عليه».

وقيل انّ ابا يوسف القاضي حاول ان يثني الهادي عن عزمه، فقال له:

ـ يا أمير المؤمنين، اقول أم أسكت؟

فقال الهادي وكأنه ادرك ماذا يريد ان يقول له:

ـ قتلني الله إن عفوت عن موسى بن جعفر، ولولا سمعت من المهدي فيما اخبر به المنصور بما كان به جعفر (الصادق) من الفضل المبرز عن اهله في دينه وعلمه وفضله، وما بلغني عن السفاح فيه من تقريظه وتفضيله لنبشت قبره وأحرقته بالنار إحراقاً!!

فقال ابو يوسف:

ـ نسائي طوالق، وأعتق جميع ما أملك من الرقيق، وأتصدق بجميع ما أملك من المال، وأحبس دوابي، وعليّ المشي الى بيت الله الحرام إن كان

مذهب موسى بن جعفر الخروج.

إلّا ذلك الكلام وإنْ هدّأ غضب الهادي ظاهرياً، الّا انه قرر ان ينتقم من الامام الكاظم عليه السلام كما انتقم جدّه المنصور من الامام الصادق عليه السلام.

وكتب علي بن يقطين ـ وكان يخفي ولاءه للامام ـ الى الامام يخبره بالأمر ويحذره مما بيّت الهادي له. فلما وصله الكتاب اطلع أهل بيته وشيعته عليه وقال لهم:

ـ ما تشيرون في هذا؟

فقالوا:

ـ نشير عليك اصلحك الله علينا وعليك أن تباعد شخصك عن هذا الجبار، وتغيّب نفسك دونه، فانه لا يؤمن شره وعاديته وغضمه، سيما وقد توعدك وايانا معك.

فتبسم الامام موسى عليه السلام ثم تمثّل البيت التالي:

زعمت سخينة ان ستغلب ربَّها فليغلبنّ مغالب الغلّاب

ثم اقبل على من حضره من مواليه وأهل بيته فقال:

ـ ليفرغ روعكم، انه لا يرد أول كتاب من العراق الّا بموت موسى بن المهدي وهلاكه.

فقالوا له:

ـ وما ذلك اصلحك الله؟

فقال الامام عليه السلام:

ـ وحرمة هذا القبر ـ اي قبر الرسول (ص) ـ قد مات في يومه هذا،

والله ﴿انه لحق مثل ما انكم تنطقون﴾[٢٨٨]، سأُخبركم بذلك:

«بينما أنا جالس في مصلاي بعد فراغي من ورودي وقد تنومت عيناي إذ سنح جدي رسول الله صلى الله عليه وآله في منامي، فشكوت اليه موسى بن المهدي، وذكرت ما جرى منه في أهل بيته، وانا مشفق من غوائله، فقال لي: لتطب نفسك يا موسى، فما جعل الله لموسى عليك سبيلاً، فبينما هو يحدثني اذ اخذ بيدي وقال لي: قد اهلك الله آنفاً عدوك فليحسن لله شكرك».

ثم استقبل الامام القبلة ورفع يديه الى السماء يدعو: شكراً لله جلت عظمته...

وبعد أن انتهى من دعائه اقبل على اصحابه فقال: سمعت من ابي ـ جعفر بن محمد ـ عن ابيه علي بن الحسين، عن ابيه، عن جده امير المؤمنين عليه السلام انه قد سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: اعترفوا بنعمة ربكم عزّ وجل وتوبوا اليه من جميع ذنوبكم، فان الله يحب الشاكرين من عباده.

ثم قام اصحاب الامام الى الصلاة وتفرق القوم، فما اجتمعوا الا لقراءة الكتاب الوارد بموت موسى الهادي والبيعة لهارون الرشيد[٢٨٩].

هلاك الهادي

استدعى الهادي ليلاً هرثمة بن اعين، فحضر بين يديه وقد استبد به الذعر لأنه خشي ان يكون قد حانت نوبة الانتقام منه على عادة الخلفاء العباسيين. الّا انه ما انْ مثل بين يديه حتى امره بالذهاب فوراً الى هارون

وقتْله في الحال، لأنّ يحيى البرمكي كان يسعى لأخذ البيعة له واحلاله محل الهادي.

وحاول هرثمة ان يثنيه عن عزمه ويبيّن له خطورة مثل هذه الخطوة الحمقاء على اعتبار انّ هارون أخاه وولي عهده، ولا يشكل مع صغر سنّه اي خطورة عليه.

الّا انّ الهادي اصرّ على رأيه وهدده بالقتل ان لم ينفّذ ما أمره به. ولم يكتف بذلك، بل امره أيضاً بالذهاب الى السجن العباسي وقتل كافة السجناء من آل علي، ثم الانطلاق على رأس جيش الى الكوفة واحراق بيوتها على اهلها، لانهم كلهم اعداء لبني العباس، وانصار لآل ابي طالب.

وعاد هرثمة الى بيته في غاية القلق والاضطراب، وفكّر في امتطاء جواده والانطلاق الى بلد مجهول في ذلك الليل الدامس. الا انه كان متعباً فغلبه النعاس ونام.

ولم يستيقظ الّا على صوت أحد غلمانه وهو يقول له: انهض فالخليفة يدعوك!

وادرك حينئذ ان منيته قد حانت، وارتعدت فرائصه من شدة الخوف ثم اخذ يجر رجليه جراً قاصداً قصر الخليفة. وفيما وقف متردداً عند الباب وقلبه يدق بعنف حتى سمع صوتاً نسائياً يقول:

ـ هرثمة تباً لك ادخل!

كان ذلك الصوت صوت الخيزران ام الهادي.

ولم يكد هرثمة يصدق ما يسمع، فلماذا تكلمه الخيزران؟

وقبل ان يفكر في سبب ذلك، واصلت كلامها قائلة:

ـ احضرتك لأمر خطير!

وبعد أن دخل هرثمة وقد ازدادت حيرته قالت له:

ـ لقد توفي الهادي، وها انّ الله انقذك والمسلمين من يده.

ثم ازاحت الستار فرأى الهادي وقد اغمض عينيه الى الابد.

فشعر بأنّ الارض لا تكاد تسعه من الفرح، لكنه كتم فرحه حياءً وتأدباً، ونظر الى الخيزران نظرة استفهام ودهشة. فأخبرته انها سمعت من خلف الستار ما اصدره اليه الهادي من أمر في قتل هارون، وكانت تحب هارون كثيراً، لهذا ذهبت اليه مستعطفة باكية تطلب منه ان ينصرف عن هذا الامر الخطير، الا انه لم يأبه لها، ولم يعمل برأيها كعادته في كل مرة.

وتستمر الخيزران في حديثها قائلة: ثم هجع ساعة، لكنه لم يلبث ان انتفض من نومه وهو يسعل سعالاً شديداً وقد ضاق عليه نفسه. وناولته جرعة من الماء، غير ان الماء قد وضع حداً لحياته[٢٩٠].

وأورد بعض المؤرخين انّ الخيزران، امرت جواريها بخنق الهادي وهو نائم خوفاً منه على هارون الرشيد الذي كانت تحبه كثيراً[٢٩١].

٣ ـ المواجهة بين الامام الكاظم عليه السلام وهارون

هارون المترف

اعتلى هارون الرشيد العرش العباسي صبيحة الليلة التي مات فيها اخوه الهادي وذلك في ١٨ ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ، وكان يبلغ من العمر ٢١ عاماً، واستمر عهده ٢٣ عاماً[٢٩٢].

وقلّد يحيى بن خالد البرمكي الوزارة وقال له: «لقد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وامض الأمور على ماترى». ودفع اليه خاتمه.

وكانت امه الخيزران هي الناظرة في الامور، وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن رأيها[٢٩٣].

وحاول هارون وبايحاء من وزيره ومربيه يحيى البرمكي ان يحافظ على الستار الديني الذي تستّر به باقي الخلفاء العباسيين، في حين انصرف ما وراء ذلك الستار الى اشباع غريزة الشباب غير المهذّبة لديه بأنواع اللذائذ واطلاق العنان للشهوات الجامحة.

فكان خليفة المسلمين يسهر الليالي بين المغنين والمطربات فيسكر على اقداح الراح ويغفو على ايقاع الموسيقى ويطرب على الاصوات

الناعمة.

وأخذ شعراء البلاط يغنون للخمرة التي كان يعشقها، فيقولون دون حياء أو خجل:

فان قالوا حرام قل حرام ولكن اللذاذة في الحرام

أو:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر
ولا تسقني سراً اذا امكن الجهر

أو:

لا تلمني فانّ اللوم اغراء
وداوني بالتي كانت هي الداء(٢٩٤)

وهكذا اباح الخليفة لنفسه ولحاشيته والشلّة المعشعشة في بلاطه تحليل ما حرم الله تعالى، بل واعطى الضوء الاخضر للشعراء المتحللين لكي يعلنوا بكل صراحة وصلافة أنّ اللذة في الحرام!

وحدّث ابراهيم الموصلي قائلاً:

جمع الرشيد ذات يوم المغنين، فلم يبق أحد من الرؤساء الاّ حضر وكنت فيهم، وحضر معنا مسكين المدني ويعرف بأبي صدقة، وكان يوقع بالقضيب، مطبوعاً حاذقاً، فاقترح الرشيد ـ وقد عمل فيه النبيذ ـ صوتاً فأمر صاحب الستارة ابن جامع ان يغنيه، ففعل فلم يطرب عليه، ثم فعل مثل ذلك بجماعة ممن حضر، فلم يحرك منه احد، فقال صاحب الستارة لمسكين المدني: يأمرك أمير المؤمنين ان كنت تحسن هذا الصوت فغنّه.

فاندفع فغنّاه، فأمسكنا جميعاً متعجبين من جرأة مثله على الغناء بحضرتنا في صوت قد قصرنا فيه عن مراد الخليفة. فلما فرغ منه سمعت الرشيد يقول: يا مسكين اعده، فأعاده بقوة ونشاط، فقال الرشيد: احسنت وأجملت، ثم أمر له بأربعة آلاف دينار[٢٩٥].

فالخليفة لم يكن يبحث عن مشاكل المسلمين ولم يكن يعنيه ان يجد حلاً لتلك المشاكل، انما كان يبحث عن اللحن الذي يحركه ويطربه، ويجمع اشهر المغنين لكي يجد بينهم من يجيد ذلك اللحن!

كما حدّث اسحاق بن ابراهيم الموصلي قائلاً:

بينما أنا ذات ليلة عند الرشيد اغنيه، اذ طرب لغنائي وقال: لا تبرح، ولم ازل اغنيه حتى نام[٢٩٦].

ويغفو الرشيد على الغناء، في حين يقضّ الجوع والخوف والضرائب الثقيلة مضاجع اكثر ابناء الامة.

ولم يكن الرشيد ليقتصر على سماع اغاني الرجال، بل كانت تغني له النساء أيضاً، وقد حضرت المطربات عنده يوماً فغنته، فطرب غاية الطرب، فأمر بمال فنثر عليهن، فحصلت كل واحدة على ثلاثة آلاف درهم[٢٩٧].

وكان الرشيد مغرماً بجمع الجواري وقضاء اوقات ممتعة بينهن، حتى قيل ان عدد جواريه قد بلغ اربعة آلاف جارية. وقد ماتت احداهن وتدعى «هيلانة» فتأثر لذلك تأثراً بالغاً، ورثاها بأبيات من الشعر، كما امر الشعراء برثائها، فأهدى لبعضهم اربعين الف دينار لرثائهم لها!

هذا في وقت يلفظ الابرار والمجاهدون انفاسهم في طواميره دون ان يذكرهم احد، وفي وقت كان بامكان هذه الاموال التي تبذّر على مثل هذه التفاهات انْ تملأ كثيراً من البطون الفارغة وتدخل البهجة الى قلوب الكثيرين ممن لم يعرفوا بهجة الحياة طوال حياتهم.

بالغ الرشيد في البذخ والاسراف وتمادى في حياة الترف وفاق من سبقه من الخلفاء في الركون الى الدنيا والانغماس في لذائذها والانخداع ببهارجها، والاهتمام بالسفاسف.

دخل عليه ابن السماك يوماً فوجد بين يديه حمامة تلتقط حباً، فقال له: صفها وأوجز، فقال: كأنما تنظر من ياقوتتين، وتلتقط بدرتين، وتطأ على عقيقتين!

وكأنما لم يعد للمسلمين في عصر الرشيد من قضايا تحظى بالاهتمام سوى حمامة الخليفة وما تمتاز به من صفات.

وبلغ من اسراف الرشيد وبذخه ان مسبحته قد أُشتريت بعشرة ملايين دينار(٢٩٨)!

ولم يكن الاسراف والبذخ ليقتصر على الرشيد فحسب بل امتد الى كافة افراد اسرته وعائلته ايضاً. فكانت زوجته زبيدة بنت جعفر لا تستطيع ان تقوم لكثرة ما عليها من المجوهرات والحلل(٢٩٩). كما انها اشترت في أحد الأيام غلاماً بثلاثمائة الف درهم لأنه كان يحسن العزف على العود، وانفقت خمسين الف دينار على هذا الغلام(٣٠٠). واهدت لعازف يدعى «ابن جامع» مبلغ ثلاثمائة الف درهم لأنه ترنم بثلاثة ابيات

شعرية في مدح زوجها الرشيد، وأمر له هارون هو الآخر بثلاثمائة الف دينار!

ولم تقتصر هداياها وصلاتها على المغنين والعازفين، بل امتدت حتى الى فقهاء البلاط ايضاً. فأهدت لابي يوسف القاضي بحقّ فضة فيه حقان من فضة، في كل حق لون من الطيب، وجام ذهب فيه دراهم، وجام فضة فيه دنانير، وغلمان وتخوت من ثياب، وحمار، وبغل، لأنه افتى فتوى توافق مرادها!

وصادف وصول تلك الهدايا اليه مع حضور جماعة عنده، فقال له احدهم: قال رسول الله ﷺ: «من اهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها». فقال ابو يوسف: تأولت الخبر على ظاهره، والاستحسان قد منع من امضائه، ذاك اذا كان هدايا الناس التمر واللبن، لا في هذا الوقت وهدايا الناس العين والورق وغيره[٣٠١].

ومن هذا نفهم أنّ الدين كان ألعوبة بيد العائلة المالكة وفقهائها، والفتاوى كانت مطّاطة الى حد بعيد بحيث يمكن أنْ تُصغَّر وتكبَّر كلما اقتضى المراد العباسي وبما ينسجم مع ذوق السلطان أو الملكة. ولماذا لا يصنع ابو يوسف وغيره من الفتاوى والاحكام ما يناسب ذوق الاسر الحاكمة ما دام ذلك يدرّ عليه مثل هذه الهدايا النفيسة التي لم يشاهدها حتى في منامه؟!

وعُرِف عن زبيدة انها كانت مغرمة بالحلي والذهب، فقد خرج الرشيد منها يوماً يضحك، فسئل عن ذلك فقال:

دخلت اليوم على هذه المرأة فأقلت عندها، فما استيقظت الا على صوت ذهب يصبّ، وقالوا هذه ثلاثمائة الف دينار قدمت من مصر، فقالت زبيدة: هبها لي يا بن عم، فقلتُ: هي لكِ. فما خرجت من عندها حتى عربدت عليّ وقالت: ايّ خير رأيت منك[٣٠٢]؟!

وكان للخيزران -ام الرشيد- نفوذ عجيب وسطوة كبرى، وكان يحيى البرمكي لا يقوم بأمر الّا بعد انْ يأخذ رأيها فيه ولا يجرؤ على اتخاذ اي موقف قبل ان يحيطها علماً بذلك. كما كانت اموال المسلمين تنهمر عليها، حتى قيل ان غلّتها كانت تبلغ ١٦٠ مليون درهم[٣٠٣]!

والواقع إن تلك الاموال انما كانت هي الاموال التي تجبى الى بيت المال على شكل زكاة وجزية وخراج وضرائب اخرى شرعية وغير شرعية، فكانت تذهب الى جيوب الخليفة ونسائه وامّه واولاده وبطانته، وتُصرف على ملذاتهم وشهواتهم وحفلاتهم بدون حساب أو شعور بالمسؤولية، بدلاً عن ان تُصرف لدفع الفقر عن الأمة واعمار البلاد وانعاشها اقتصادياً واجتماعياً.

وكيف يمكن ان يفكر هارون أو الخلفاء العباسيون بهذا المستوى، وهم يعتقدون انّ كافة اموال المسلمين -بل وحتى دماءهم- ملكاً شخصياً له، وله كامل الحق في التصرف بها انّى شاء وكيف شاء، وليس لأحد الحق في الاعتراض عليه أو استهجان ما كان يقوم به من ممارسات!

كان الرشيد والعائلة الحاكمة يعيشون في ذروة الترف والرخاء ويتفننون في طريقة اللبس والأكل والشرب والنوم والتنزه والسماع،

وينفقون الاموال الطائلة التي ينتزعونها من افواه الشعب الجائع على لذاتهم، حتى انهم كانوا يجلبون لحوم الطيور ولو بعد مكانها، ويستوردون الفواكه لاستعمالهم الخاص من اقصى البلدان، ويعتلون الاسرّة الذهبية المرصعة بالجواهر، ويجلسون على الافرشة المنسوجة بالذهب والمكللة بالدر والياقوت[٣٠٤].

نجد كل هذا في وقت كانت تُصبّ فيه ألوان العذاب على رؤوس أبناء الأمة وتلهب اظهرها سياط الولاة وعمال الدولة لانتزاع الاموال منهم تحت شتى العناوين والمسميات. فبلغت اموال محمد بن سليمان والي البصرة -على سبيل المثال- ما يزيد عن ٥٠ مليون درهم عدا الضياع والدور والمستغلات[٣٠٥]، وسليمان بن جعفر العباسي ٦٠ مليون دينار ما خلا المتاع والدواب[٣٠٦].

ونجد كل هذا أيضاً في وقت كان يؤجج فيه المتملقون وباعة الضمير من غرور الخليفة وتجبره وعبثه بمقدسات الامة، سيما وقد كان يحب المديح ولاسيما من شاعر فصيح، ويشتريه بالثمن الغالي.

فدخل عليه مروان بن ابي حفصة فأنشد فيه قصيدة مطلعها:

وسُدَّت بهارون الثغور فأُحكمت   به من أمور المسلمين المرائر

فأعطاه خمسة آلاف دينار، وكساه، وأمر له بعشرة من رقيق الروم، وحمله على برذون من خاص مراكبه[٣٠٧].

ودخل عليه معن بن زائدة يوماً وكان الرشيد قد غضب عليه، فمشى فقارب الخطو، فقال له هارون:

ـ كبرت والله يا معن.

فقال:

ـ في طاعتك يا امير المؤمنين.

قال:

ـ وان فيك على ذلك لبقية.

قال:

ـ هي لك يا امير المؤمنين.

قال الرشيد:

ـ وانك لجلد.

قال معن:

ـ على اعدائك يا امير المؤمنين.

وبهذه الكلمات التي تفوح منها رائحة التملق والتذلل والانسحاق، استطاع معن ان يحصل على رضا هارون.

وعندما سمع زاهد أهل البصرة عبد الرحمن بن زيد بتلك المحاورة، علّق على كلمات معن قائلاً: ويح هذا! ما ترك لربه شيئا[٣٠٨].

لهذا لا نستغرب حينما نجد صلاة الرشيد مجرد ممارسة خالية من الروح والحياة، وحركات يؤديها لكي لا يقال انّ خليفة المسلمين لا يصلي، ونشهد ذلك بوضوح في ما دار بينه وبين ابن ابي مريم اثناء صلاة الصبح. وكان ابن ابي مريم مضحاكاً للرشيد، محداثاً، فكيهاً، وكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته، وبلغ من خاصته به أنْ بوّأه منزلاً في

قصره وخلطه بحرمه وبطانته ومواليه وغلمانه.

ومضى ابن ابي مريم هذا نحو الرشيد يوماً فإذا يصلي الصبح، فانتهى اليه وهو يقرأ: ﴿وما لي لا اعبد الذي فطرني﴾، فقال ابن ابي مريم: «لا ادري والله»، فما تمالك الرشيد ان ضحك في صلاته، ثم التفت اليه وهو كالغاضب فقال: «يابن ابي مريم في الصلاة ايضاً؟»، فقال: «والله ما فعلت، انما سمعت منك كلاماً غمني حين قلت: وما لي لا اعبد الذي فطرني، فقلت: لا ادري والله»، فعاد الرشيد فضحك[٣٠٩].

سياسة العداء لأهل البيت عليهم السلام

توارث السلاطين العباسيون العداء لأهل البيت عليهم السلام، بل ويزداد الخليفة اللاحق في حقده على ابناء الرسول صلى الله عليه وآله عن الخليفة السابق، وهذا نابع بطبيعة الحال من المصالح الدنيوية وبريق الحكم والانشدادات المادية التي تغري المرء بالوثوب على أقرب المقربين وتصفية كل من يحتمل انه يشكل خطراً عليه.

وكان هارون الرشيد يغلي حقداً على العلويين حتى انه اقسم عند توليه السلطان انه سيقتلهم مع اتباعهم وانصارهم(٣١٠). وانتهج في بادئ الأمر سياسة اعلامية مضادة لهم، فكان يقدم الأموال الطائلة للشعراء والخطباء والفقهاء الذين يهجونهم أو ينالون منهم أو يزاحمونهم. وقد رأينا كيف اعطى ٥ آلاف دينار وهدايا اخرى لمروان بن ابي حفصة لقصيدته التي مدحه بها ونال فيها من آل علي عليه السلام، كما سمح لشاعر آخر يدعى منصور النمري ان يأخذ ما يشاء من بيت المال لانه هجا العلويين.

ولم تكن سياسة هارون المعادية للعلويين سياسة متحفظة أو خفية، وانما كانت واضحة وعلنية ولا يجد ضرورة في التستر عليها بعد انْ ادرك الناس العداء العباسي للعلويين ومشاهدتهم للمجازر التي ارتكبها الخلفاء

الذين سبقوه بحقهم، فضلاً عن انّ الدولة العباسية اصبحت من القوة بحيث لم تعد هناك ضرورة للتحفظ أو تصنّع التودد للعلويين.

ولكـــي يـــتجنّب اي خـــطورة مـــحتملة يـــمكن ان تـــنجم عـن العلويين،باخراج من كان مقيماً منهم في مدينة بغداد ونفيه الى المـدينة المنورة(٣١١). وعندما وجد في قبر الامام الحسين عليه السلام مركزاً لاستقطاب مــجيئ أهــل البــيت وشـيعتهم وعـاملاً مـهماً مـن عـوامـل تـوثّبهم ومقاومتهم،بتهديمه مع البيوت المجاورة له، وقطع شجرة السدر التي كانت عنده، وكان الرسول صلى الله عليه وآله قد قال من قبل: لعن الله قاطع السدرة(٣١٢).

وتجسّد الحادثة التالية الموقف الدمـوي الذي اتـخذه الرشـيد ازاء العلويين، وهي حادثة تهزّ حتى الضمير الميت، وتحرك حتى المشـاعر التي دبّ اليها الجفاف، وتروي فضلاً عن الارهاب العباسي، مدى الظلم الذي حاق بالبيت العلوي والمصائب التي لقوها على ايدي من يدّعون الخلافة والاسلام:

روى عبيد الله البزّاز النيسابوري قائلاً:

كان بيني وبين حميد بن قحطبة الطائي الطوسي معاملة، فرحلت اليه في بعض الايام، فبلغه خبر قدومي، فاستحضرني للوقت وعـليّ ثـياب السفر لم اغيرها، وذلك في شهر رمضان وقت صلاة الظهر.

فلما دخلت اليه رأيته في بيت يجري فيه الماء فسلمت عليه وجلست فأتي بطست وابريق فغسل يديه، ثم امرني فـغسلت يـدي وأُحـضرت المائدة وذهب عني اني صائم واني في شهر رمضان، ثم ذكرت فأمسكت

يدي، فقال لي حميد:

ـ مالك لا تأكل؟

فقلت:

ـ ايها الامير، هذا شهر رمضان، ولست بمريض ولا بي علة توجب الافطار. ولعل الامير له عذر في ذلك أو علة توجب الافطار.

فقال:

ـ ما بي علة توجب الافطار واني لصحيح البدن.

ثم دمعت عيناه وبكى.

فقلت له بعدما فرغ من طعامه:

ـ ما يبكيك ايها الامير؟

فقال:

ـ انفذ اليّ هارون الرشيد وقت كونه بطوس في بعض الليل ان اجب، فلما دخلت عليه رأيت بين يديه شمعة تتقد وسيفاً اخضر مسلولاً وبين يديه خادم واقف، فلما قمت بين يديه، رفع رأسه الي فقال:

ـ كيف طاعتك لامير المؤمنين؟

فقلت:

ـ بالنفس والمال.

فأطرق ثم اذن لي في الانصراف.

فلم البث في منزلي حتى عاد الرسول اليّ وقال:

ـ اجب امير المؤمنين.

فقلت في نفسي: أنا لله، اخاف ان يكون قد عزم على قتلي، وإنه لما رآني استحيا مني.

فعدت الى بين يديه، فرفع رأسه الي وقال:

ـ كيف طاعتك لامير المؤمنين؟

فقلت:

ـ بالنفس والمال والأهل والولد.

فتبسم ضاحكاً، ثم اذن لي في الانصراف.

فلما دخلت منزلي، لم البث ان عاد الرسول الي فقال:

ـ اجب امير المؤمنين.

فحضرت بين يديه وهو على حاله، فرفع رأسه اليّ فقال:

ـ كيف طاعتك لامير المؤمنين؟

فقلت:

ـ بالنفس والمال والأهل والولد والدين!

فضحك، ثم قال لي:

ـ خذ هذا السيف وامتثل ما يأمرك به هذا الخادم.

فتناول الخادم السيف وناولنيه، وجاء بي الى بيت بابه مغلق فـفتحه، فاذا فيه بئر في وسطه، وثلاثة بيوت مغلقة. ففتح باب بيت منها فإذا فيه عشرون نفساً عليهم الشعور والذوائب شيوخ وكهول وشـبّان مـقيدون، فقال لي:

ـ ان أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء!

وكانوا كلهم علوية من ولد علي وفاطمة. فجعل يخرج اليّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه، حتى اتيت على آخرهم، ثم رمى بأجسادهم ورؤوسهم في تلك البئر.

ثم فتح باب بيت آخر فإذا فيه أيضاً عشرون نفساً من العلوية من ولد علي وفاطمة مقيدون، فقال لي:

ـ ان أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء!

فجعل يخرج الي واحداً بعد واحد فأضرب عنقه ويرمي به في تلك البئر، حتى اتيت على آخرهم.

ثم فتح باب البيت الثالث فإذا فيه مثلهم عشرون نفساً من ولد علي وفاطمة مقيدون عليهم الشعور والذوائب، فقال لي:

ـ ان أمير المؤمنين يأمرك ان تقتل هؤلاء ايضاً.

فجعل يخرج اليّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه فيرمي به في تلك البئر، حتى اتيت على تسعة عشر نفساً منهم، وبقي شيخ منهم فقال لي:

ـ تباً لك يا مشؤوم! اي عذر لك يوم القيامة اذا قدمت على جدنا رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد قتلت من اولاده ستين نفساً، قد ولدهم علي وفاطمة؟!

فارتعشت يدي وارتعدت فرائصي. فنظر الي الخادم مغضباً وزبرني. فأتيت على ذلك الشيخ أيضاً فقتلته، ورمى به تلك البئر.

فاذا كان فعلي هذا وقد قتلت ستين نفساً من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله فما ينفعني صومي وصلاتي وانا لا اشك اني مخلد في النار؟(٣١٣).

ونفهم من هذه الحادثة انّ هارون لم يقنع من جلاوزته ان يفدوه بالنفس والمال والأهل والولد، بل كان يطمح الى ان يفدوه بدينهم لانه يعلم أنهم اذا كان لهم دين، فانه سيمنعهم من تنفيذ ما يوكل اليهم من مهمات تتعارض تماماً مع الدين. ولهذا اصرّ بهذا الاسلوب الذكي والحرب النفسية ان ينتزع دين هذا الرجل ويحوله الى آلة صماء تنفّذ له تلك المذبحة الرهيبة في ليلة واحدة.

وكان العلويون قد ادركوا انّ ظروفاً قاسية ستمر بهم في عهد الرشيد، وأنه عقد العزم على ابادتهم، وذلك منذ أن ولّى على المدينة رجلاً من آل الزبير يدعى بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير. واراد بهذه التولية انْ يوجّه رسالة تحذير مفتوحة الى العلويين الذين لا زالوا يتذكرون ما قام به عبد الله بن الزبير من اضطهاد لهم حينما بايع لنفسه بالخلافة في الحجاز في العصر الاموي(٣١٤). وكان بكار بن عبد الله شديد البغض لآل ابي طالب(٣١٥)، وهذه الميزة هي التي دفعت الرشيد لاختياره والياً على المدينة.

ومع الايام الاولى من ولايته، اخذ يطبّق سياسته المعادية للعلويين، فأخذ يضطهدهم، ويضيّق عليهم، وينال منهم ما استطاع الى ذلك سبيلاً. ولم يكتف بذلك بل قبض في شهر رمضان على محمد بن يحيى بن عبد الله وكبّله بالاغلال وزجّ به في السجن فظل قابعاً فيه حتى وفاته. كما القى القبض على الحسين بن عبد الله بن اسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب، وضربه ضرباً مبرحاً حتى لفظ انفاسه تحت الضرب.

كما انه بعث بالعباس بن محمد بن عبد الله بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهما السلام الى بغداد لكي يعاقب على يد الرشيد بشكل مباشر. وسعى الرشيد للنيل من العلويين امامه الآ انه كان يحاوره ويناظره، فثار غضب الرشيد عليه ونال من امه!

وحينئذ عيّره العباس بامه الخيزران قائلاً: تلك امك التي تواردها النخاسون!

وكانت جارية اشتراها المهدي، فأمر الرشيد بضرب العباس بعمود من حديد حتى الموت[٣١٦].

كما استقدم الرشيد عبد الله بن الحسن المعروف بـ «ابن الافطس»، وكان ممن قاتل مع الحسين بن علي في فخ، فعهد به الى أحد خاصته بأن يحبسه في داره. وبعث عبد الله من سجنه برسالة الى الرشيد يشتمه فيها وينال منه. ويبدو انه أراد بذلك ان يحرض الرشيد على قتله بعد ان سئم حياة السجن القاسية. وأمر الرشيد جعفر البرمكي ان يحبسه في قصره. وأقدم جعفر على قتله في عيد النيروز وجعل رأس هذا العلوي البرئ من ضمن الهدايا التي قدّمها للرشيد بمناسبة هذا العيد!![٣١٧].

ثورة ادريس

انجب عبد الله بن الحسن بن الحسن أربعة أولاد ثوار قام كل منهم بدور مشرف في التصدي للسلطة العباسية ومجابهة انحرافها واستبدادها. وقد تحدثنا من قبل عن اثنين من هؤلاء الاخوة وهما محمد النفس

الزكية ثائر المدينة وابراهيم ثائر البصرة. واما الاخوان الآخران فهما ادريس ويحيى حيث ثارا في أيام هارون الرشيد في جناحي الدولة العباسية الشرقي والغربي.

وكان ادريس بن عبد الله ممن اشترك في معركة فخ الى جانب الحسين بن علي. وعندما فشلت ثورته انسحب من ساحة المعركة وانضم الى قافلة حجاج مصر والمغرب مع مولى له يدعى راشد. ومكث مدة في مصر الى ان خرج البريد فصحبه الى افريقية بمساعدة صاحب البريد الذي كان يضمر الولاء لأهل البيت. وعندما وصل الى المغرب الاقصى عرّف بنفسه فالتف أهاليها حوله وكان اكثرهم من البربر وناقمين على النظام العباسي. وتمكن ادريس بهؤلاء ان يفتح بلاد المغرب وتلمسان واقامة دولة مستقلة في عام ١٧٢ هـ، اي بعد عامين من تولي الرشيد للسلطة.

وعندما وصلت انباء الثورة الادريسية الى اسماع هارون الرشيد شعر بالقلق لأنّها ستشكل على الامد القريب تهديداً للنفوذ العباسي في شمال افريقية، وعلى الامد البعيد تهديداً للوجود العباسي ككل. ومما ضاعف من قلق الرشيد انّ ظهور هذه الدولة العلوية قد جاء في اعقاب ظهور دولة اموية بالاندلس اسسها عبد الرحمن الداخل في عام ١٣٨هـ.

ولم يكن بامكان الرشيد ان يقضي على هذه الدولة الجديدة عن طريق القوة لتعذر ارسال جيش الى هذه البلاد البعيدة ولضعف احتمال تحقيق نصر عسكري على قوات البربر المعروفة بصلابتها وشجاعتها. ولهذا فكر

في طريق آخر للقضاء على هذا العلوي الذي راح نفوذه يزداد يوماً بعد آخر.

وتشاور الرشيد مع بعض المقربين منه في هذا الامر الذي كان قد سلب الهدوء من حياته، وتعهد له وزيره يحيى البرمكي بأنْ يضع حداً لادريس بن عبد الله. فبعث الى بلاد المغرب رجلاً يدعى سليمان بن جرير الجزري على قول أو الشماخ على قول آخر، نجح في الفوز بثقة ادريس فقربه اليه وجعله في جملة خاصة اصحابه، فقام في أحد الايام بانتهاز فرصة سنحت له فدسّ له السم وقتله.

ونفهم من ذلك انّ الرشيد كان بامكانه ان يتحمل وجود دولة اموية منافسة كانت تتعاظم يوماً بعد آخر، لكنه لم يتحمل ظهور دولة علوية حتى مع بدايتها الضعيفة، وهذا ما ينبئ عن مدى العداء الذي يكنّه البيت العباسي للبيت العلوي.

وبعد مقتل ادريس، تولى مولاه راشد ـ الذي رافقه في رحلة الخروج الى بلاد المغرب ـ أمر الدعوة وقيادة البربر حتى كبر ابن ادريس ويدعى ادريس أيضاً، فولي أمر المغاربة احسن ولاية. ونمت الدولة الادريسية واتسع نفوذها الى درجة كبيرة مما جعلها عامل قلق مستمر لهارون الرشيد(٣١٨).

ثورة يحيى

كان يحيى بن عبد الله شخصية علوية مرموقة تمتاز بالورع، وتتلمذ

علـى الامـام الصـادق عليه السلام، وروى الاحـاديث النـبوية، وحـظي باحترام المذاهب الاخرى مثل مالك بن انس الذي كان يـقوم له حـينما يدخل عليه ويجلسه بجانبه[٣١٩].

وساهم هو الآخر كأخيه ادريس في ثورة فخ، ثم توارى عن الانظار بعد فشلها، فعاش متنكراً متنقلاً من بلد لآخر، الى انْ حلّ في بلاد الديلم. وعندما عرف اهلها به هرعوا اليه وانضووا تحت رايته العلوية، كما اخذ انصار العلويين يفدون عليه من كافة الاقطار، فبايعوه وعظم امره واخذ يشكل خطراً كبيراً على الدولة العباسية في جناحها الشرقي، فـي وقت كان يشكل فيه اخوه ادريس الخطر العظيم الآخر في الجناح الغربي.

وفزع الرشيد عند سماعه بأخبار يحيى، فأبدى المه وحزنه، وامـتنع عن شرب النبيذ[٣٢٠]، وكتب الى الفضل بن يحيى البرمكي: أن يحيى بن عبد الله قذاة في عيني، فاعطه ما تشاء واكفني امره!

وولى الرشيد الفضل على الري، وجرجان، وطبرستان وبعض البـلاد الاخرى وأمده بجيش قوامه ٥٠ الف مقاتل، ووضع بين يديه الكثير من الاموال، وفوض اليه الكثير من الصلاحيات من اجل اخماد حركة يحيى والقضاء على خطره.

وقرر الفضل ان يتغلب عليه بالمكر والحيلة، فأخذ يوزع الاموال على الناس لشرائهم وتفريقهم عن يحيى، فأخذ اصحابه يـتفرقون عـنه، امـا إقـبالاً عـلى الامـوال، أو خـوفاً مـن الجـيش العـباسي الذي يـقوده الفضل،بسبب التناحرات التي اخذ يؤججها المـندسون العـباسيون فـي

صفوف اصحابه بشتى الطرق والاساليب.

وعندما ادرك الفضل الوضع المتزعزع الذي بات عليه يحيى، اتخذ خطوة اخرى على صعيد المواجهة، فكتب الى يحيى يستميله ويرغبه في الاستسلام ويحذره من مغبة الاستمرار في التمرد على الرشيد. كما كتب الى صاحب الديلم يحذره أيضاً من مغبة دعمه ليحيى ويدعوه الى اقناعه بالاستسلام.

وزادت هاتان الرسالتان من تأزم الوضع الذي يعيشه يحيى حيث خشي صاحب الديلم من التهديد العباسي فتخلى عن مساندة الثائر العلوي، وتشتت عدد آخر من مناصريه، الّا انه قال رغم ذلك:

«اللهم اشكر لك اخافتي قلوب الظالمين، اللهم ان تقضي لنا النصر عليهم، فانما نريد اعزاز دينك، وان تقض لهم النصر فانما تختار لأوليائك وابناء اوليائك كريم المآب وسني الثواب»[٣٢١].

وعندما تفاقمت الأزمة التي كان يحيى يمر بها وادرك ان الاوضاع ليست لصالحه، وانّ مصيره لن يكون بأفضل من مصير اخويه محمد وابراهيم، اتخذ قراراً في الاستجابة للدعوة التي وجهها اليه الفضل، الّا انه اشترط عليه شروطاً من بينها ان يكتب الرشيد له ولانصاره عهد أمان غليظ في نسختين تكون إحداهما مع يحيى، وان يشهد على ذلك العهد قاضي القضاة العباسي والفقهاء.

ووافق الرشيد على شروط يحيى وكتب له عهد امان موثق، مرفقاً بالهدايا والاموال. وانتهت تلك الحركة العلوية العارمة بهذا الشكل الذي

يثير الأسى، ودخل يحيى بغداد في مطلع ١٧٦هـ، ليعيش تحت مراقبة عدوه اللدود الذي كان بانتظار مثل ذلك اليوم، والذي اخذ يخطط للقضاء على هذا الزعيم العلوي.

ومرت فترة قصيرة عاشها يحيى حراً طليقاً، الّا ان تلك الحرية كانت مجرد هدوء يسبق عاصفة الغضب العباسي، وبحث الرشيد عن ذريعة لكي يزجّ به في غياهب السجن، فاستدعاه يوماً وقال له:

ـ يا يحيى اتق الله وعرفني اصحابك السبعين لئلا ينقض امانك؟

فقال يحيى: يا أمير المؤمنين أنا رجل من السبعين، فما الذي نفعني من الامان؟ افتريد ان ادفع إليك قوماً تقتلهم معي؟ لا يحل لي ذلك.

وكان الرشيد قد منح الامان لسبعين من اصحاب يحيى حسب ما اشترطه يحيى عليه دون ان يعرف الرشيد بأسمائهم.

ولكي يوقع الرشيد يحيى في مصيدته ويبرر للخطوة التالية التي يريد اتخاذها، أمر رجلاً يدعى فضالة ان يكتب رسالة بخطه الى يحيى ينبئه فيها ان جماعة من اصحاب الرشيد وقواده موالون له. وبعث الرشيد تلك الرسالة مع رسول الى يحيى. وعلم يحيى بالحيلة وادرك انها مؤامرة عليه، فألقى القبض على الرسول وسلّمه الى السلطة العباسية.

ولكن الرشيد لم يكن يقر له قرار ما لم يلحق يحيى بأخويه، سيما بعدما ظهر اخوه ادريس في افريقية واعلن قيام دولة علوية هناك. لكنه كان يبحث عن المبرر والذريعة. وعلم المتملقون والعائشون على الفتات العباسي بما يخالج الرشيد من مشاعر، فتقدم احدهم اليه، وكان من آل

الزبير ويدعى عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله الزبير، وقال له انّ يحيى قد دعاه الى البيعة له.

فقال يحيى للرشيد: اتصدق هذا عليّ وتستنصحه؟ وهو ابن عبد الله بن الزبير الذي ادخل اباك وولده الشعب واضرم عليهم النار حتى تخلصهم ابو عبد الله الجدلي صاحب علي عليه السلام، وهو الذي بقي اربعين يوماً لا يصلي على النبي صلى الله عليه وآله في خطبته حتى التاث عليه الناس.

وبعد جدال طويل مع عبد الله بن مصعب، قال يحيى موجهاً كلامه للرشيد:

ـ مع ذلك هو الخارج مع اخي على ابيك وقال في ذلك ابياتاً منها:

انّا لنأمل ان ترتد إلْفَتُنا	بعد التدابر والبغضاء والإحَن
حتى يُثاب على الاحسان محسننا	ويأمن الخائف المأخوذ بالدمن
وتنقضي دولة احكام قادتها	فينا كأحكام قوم عابدي الوثن
فطالما قد بروا بالجور اعظمنا	بري الصناع قداح النبع بالسفن
قوموا ببيعتكم ننهض بطاعتنا	ان الخلافة فيكم يا بني الحسن
الست اكرمهم عوداً اذا انتسبوا	يوماً وأطهرهم ثوباً من الدرن
واعظم الناس عند الناس منزلة	وأبعد الناس من عيب ومن وهن

فعندما سمع الرشيد ذلك تغير وجهه والتفت نحو ابن مصعب وعيناه تلمعان غضباً. فأخذ يحلف انه لم يقل هذا الشعر.

فقال يحيى:

ـ والله ما قاله غيره، وما حلفت بالله كاذباً ولا صادقاً قبل هذا، وإنّ الله

اذا مجّده العبد في يمينه استحيا ان يعاقبه. فدعني احلّفه بيمين ما حلف بها أحد قط كاذباً الا عوجل.

فقال الرشيد:

ـ حلّفه.

قال يحيى لابن مصعب:

ـ قل برئت من حول الله وقوته، واعتصمت بحولي وقوتي، وتقلدت الحول والقوة من دون الله استكباراً على الله واستغناء عنه، واستعلاء عليه إن كنت قلت هذا الشعر.

فامتنع عبد الله منه، فغضب الرشيد وقال للفضل بن الربيع:

ـ هنا شيء، ما له لا يحلف ان كان صادقاً؟

فرفس الفضل عبد الله برجله وصاح به:

ـ احلف ويحك!

فحلف ووجهه متغير وهو يرعد.

فضربه يحيى بن كتفيه ثم قال:

ـ يا بن مصعب، قطعت والله عمرك، والله لا تفلح بعدها.

فما برح ابن مصعب من موضعه حتى اصابه الجذام فتقطّع ومات في اليوم الثالث، فحضر الفضل جنازته ومشى معها، ولما وضعوه في لحده وجعلوا اللبن فوقه، انخسف القبر به وخرجت منه غبرة عظيمة.

فصاح الفضل: التراب التراب !

فجعل يطرح وهو يهوي، فدعا بأحمال شوك وطرحها فهوت. فأمر

حينئذ بالقبر، فسقّف بخشب وأصلحه، وانصرف منكسراً.

فكان الرشيد بعد ذلك يقول للفضل: رأيت يا عباسي ما اسرع ما أُديل يحيى من ابن مصعب!

غير انّ الرشيد لم يتعظ بهذه الحادثة ولم تغيّر من موقفه حيال يحيى، بل ظل مصراً على رأيه في القضاء عليه والتخلص منه.

لهذا أمر بأن يزجّ به في السجن، ثم جمع فقهاء البلاط وفيهم محمد بن الحسن صاحب ابي يوسف، والحسن بن زياد اللؤلؤي، وابو البختري، وطلب منهم ان ينقضوا عهد الامان الذي اعطاه ليحيى من قبل، كي يتمكن من تنفيذ الخطوة الاخيرة.

وقدّم مسرور جلّاد الرشيد العهد لمحمد بن الحسن ليبدي رأيه فيه، فنظر فيه ملياً ثم قال:

ـ هذا امان مؤكد لا حيلة فيه.

فصاح عليه مسرور:

ـ هاته.

فدفعه الى الحسن بن زياد، فقال بصوت ضعيف:

ـ هو امان!

فاستلبه ابو البختري وقال:

ـ هذا باطل منتقض، قد شقّ العصا، وسفك الدم، فاقتله ودمه في عنقي!!

وكان هذا ما يريده الرشيد بالضبط، لهذا قال له مسرور:

ـ شقّه!

فأخذ ابو البختري سكيناً وجعل يشقّه ويده ترتعد، حتى صيّره سيوراً!

ووهب الرشيد لأبي البختري مليون وستمائة الف، وولّاه قضاء القضاة، وصرف الآخرين، ومنع محمد بن الحسن عن الفتيا مدة طويلة.

وبهذه الطريقة اللا شرعية واللا قانونية مهّد الرشيد الطريق للقيام بخطوته التالية والمتمثلة في تصفية يحيى بن عبد الله جسدياً. وقبل ان يقدم على هذه الخطوة حاول ان يتشّفى به ويشبع نهم الحقد المتّقد في نفسه عليه وعلى العلويين، فدخل عليه في سجنه ليلة فأمر جلّاديه ان يضربوه امام عينيه مائة عصا!

فأخذوه وانهالوا عليه ضرباً ويحيى يناشده الله والرحم والقرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله ويقول:

ـ بقرابتي منك.

فيقول الرشيد وهو يتلذذ برؤيته في تلك الحالة:

ـ ما بيني وبينك قرابة!

ثم أمر بتقليل ما كانوا يقدمون اليه من طعام الى النصف.

وعاود الرشيد بعد ليال نفس تلك الممارسة: ضُرب يحيى مائة عصا وقلل طعامه الى النصف.

وكرر هذا العمل الارهابي في ليلة ثالثة.

ولم يكتف بضربه وتجويعه، ولم ينتظر ان يموت يحيى تحت سياط الضرب والجوع وظروف السجن الخانقة، بل دسّ اليه السم أيضاً، حسبما

ذهب الى ذلك الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد.

وهكذا كانت نهاية هذا الثائر العلوي الشهادة أيضاً على يد الرشيد العباسي ليلتحق بركب الشهداء من اخوته وابناء عمومته والمجاهدين العلويين الذين ابوا الركون للظلم والاستسلام للطغاة(٣٢٢).

هاجس الامام الكاظم

كان الرشيد قد اقسم على اجتثاث الجذور العلوية لما كان يعلمه من سعيهم لاقامة نظام حكم اسلامي سليم واعادة الإسلام الى حياة الأمة مثلما كان عليه في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله، وازاحة كل ما يقف بوجه هذا الهدف من عقبات اهمها السلطة العباسية التي اتخذت من الإسلام ستاراً لتمرير اهدافها وتنفيذ مخططاتها.

وكان الرشيد يدرك أيضاً أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام هم الذين يقودون ذلك التحرك ويعدّون لتأسيس دولة اسلامية على غرار دولة الرسول محمد صلى الله عليه وآله والامام علي عليه السلام، وانهم يتحركون بحذر شديد ويسعون بصمت لتحقيق ذلك الهدف والوصول الى هذه النتيجة، وهم يقفون أيضاً خلف كافة الثورات والانتفاضات العلوية، ويحاولون من خلالها الاطاحة بالنظام العباسي أو اضعافه على الاقل، فضلاً عن تأجيج روح المقاومة لدى الأمة وابقائها في حالة مواجهة دائمة مع هذا النظام.

والرشيد على علم أيضاً أنّ الامام موسى بن جعفر عليه السلام هو الذي يقود في عهده التحرك الاسلامي ويتزعم التيار الثوري العلوي، لكنه

كآبائه عليهم السلام ينتهج الاسلوب السري في ذلك التحرك ويحاول قدر الامكان ان لا يترك ايّ بصمات يمكن للنظام العباسي ان يدينه من خلالها، وذلك حفظاً على تلك الحركة الاسلامية العظيمة، والحركات عادة ما تبقى وتنمو ببقاء قياداتها وزعمائها ومؤسسيها.

ولذلك لم يكن ليهدئ من روع الرشيد ويقلّص من حجم القلق الذي كان ينتابه، قضاؤه على يحيى وادريس ابني عبد الله بن الحسن ولا على الشخصيات العلوية الاخرى، ما دام زعيم البيت العلوي، والامام الحقيقي للمسلمين على قيد الحياة، يوجّه التحرك، ويقود التيار، ويسدد خطى الثائرين.

وكان الرشيد ورغم اعتقاده الراسخ بالدور الريادي والقيادي للامام الكاظم عليه السلام، الّا انه كان يبحث عن اوراق الادانة وبصمات الاتهام التي يتمكن بها من القاء القبض عليه، والتعامل معه بنفس ما تعامل به المنصور مع ابيه الصادق عليه السلام، وبنفس ما تعامل به هو مع الشخصيات العلوية الاخرى. ولهذا وضع الامام الكاظم تحت المراقبة الشديدة علّه يستطيع ان يعثر على ما يمكن ان يتخذه مبرراً لتوجيه ضربته القاصمة.

كما انّ الرشيد حذا حذو الخلفاء الذين سبقوه في السعي لتحجيم الامام الكاظم عليه السلام وتقليص تأثيره الفكري والعقائدي على الأمة من خلال عملية المراقبة الشديدة عليه وعلى الكوادر التي كان يؤهلها، ولهذا كان الرواة لا يسندون الحديث اليه بصريح اسمه، بل بكناه وألقابه مثل ابي ابراهيم، وابي الحسن، والعبد الصالح، والعالم وامثالها، وهذا ما ادى

الى قلة ما وصلنا من أحاديث عنه عليه السلام، وأيضاً من خلال احتضان الفقهاء والمحدثين من غير العلويين، كما هو الحال مع مالك بن انس.

ونرى ذلك واضحاً عندما خرج الرشيد الى الحجاز بحجة الحج سنة ١٧٤هـ، فقدم الى المدينة المنورة، فبعث الى مالك بن انس فأتاه، ثم احضر فقهاء الحجاز والعراق والشام واليمن، وكانوا قد قدموا جميعهم للحج في ذلك العام، وطلب من مالك ان يقرأ عليهم جميعاً وبحضوره كتاب «الموطأ»، فلما اتم مالك قراءته، قال هارون لاولئك الفقهاء: هل انكرتم شيئاً من هذا العلم؟[٣٢٣].

وهذا الحدث يوضح بما لا يقبل الشك اصرار الرشيد على طرح مالك كفقيه اوحد للدولة العباسية، والتعتيم على فقه أهل البيت عليهم السلام المتمثل آنذاك في فقه الامام موسى بن جعفر عليه السلام.

تحريم التعاون مع الظلمة

السلطان الجائر اذا لم يجد من يتعاون معه من الأمة ولم يلق من ينفّذ له قراراته وأوامره الجائرة، فلن يتمكن من الاستمرار في السلطة ولن ينجح في تحقيق ما يصبو لتحقيقه من أهداف قائمة على الظلم والاستبداد.

وانطلاقاً من ذلك اكّد الإسلام على حرمة التعاون مع السلطان الجائر، ومنع المسلمين من تقديم اي نوع من المساعدة له، لأنّ في ذلك تثبيتاً لنظامه، وترسيخاً لظلمه، واعانة له على الامة:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما اقترب عبد من سلطان جائر الّا تباعد عن الله»(٣٢٤).

وقال الامام الصادق عليه السلام: «من مشى الى ظالم ليعينه وهو يعلم انه ظالم فقد خرج عن الاسلام»(٣٢٥).

كما قال عليه السلام ايضاً: من مدح سلطاناً جائراً وتخفّف وتضعضع له طمعاً فيه كان قرينه في النار(٣٢٦).

وكان موقف الامام الكاظم عليه السلام من الرشيد يمثل موقف الإسلام من الظلم، وموقف المسلم الرسالي من الحاكم الظالم، وموقف الامامة الاسلامية من الزعامة الدنيوية المنحرفة.

ونقل الامام عليه السلام هذا الموقف الى اصحابه والكوادر التي كان يعبئها، وأصرّ عليها في وجوب الحذر الشديد من التعاون مع الحكومة المستبدة، لأنّ هذا التعاون ولو كان على مستوى بسيط سينعكس على شكل اضرار كبيرة تحيق بالأمة والاسلام، ويتبلور على هيئة مقومات تضفي مصداقية على الظلم والجور والانحراف.

وضمن هذا الإطار، استدعى الامام أحد الموالين له ويدعى «صفوان بن مهران» المعروف بالجمال، وقال له بدون مقدمات:

ـ يا صفوان كل شيء منك حسن جميل، الّا شيئاً واحداً!

وانتاب صفوان القلق، وقال متسائلاً:

ـ جعلت فداك، اي شيء هو؟

فقال الامام:

ـ اكراؤك جمالك لهارون الرشيد!

فقال صفوان:

ـ والله ما اكريته اشراً ولا بطراً ولا لصيد ولهو، ولكني اكريته لطريق مكة، ولا اتولاها بنفسي، وانما ابعث معها غلماني.

فقال له الامام:

ـ يا صفوان الست تحبّ بقاءهم الى أن يخرج كراك منهم؟!

فأجابه:

ـ نعم يابن رسول الله.

فقال الامام مبلوراً موقف الإسلام من الظلمة:

ـ فمن أحب بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم ورد النار(٣٢٧).

ومن هذا نرى مدى حساسية الامام تجاه التعاون مع السلطان الجائر، ومدى الاهمية التي يوليها لهذا الموضوع بحيث لا يسمح في اسداء الدعم له حتى ولو كان على صعيد اكراء الجمال للقوافل التي يبعثها للحج. وهذا ما يؤكد على مدى تشدد الامام عليه السلام في موقفه من السلطة الحاكمة التي لا تنهج الاسلام، وعلى نهجه الثوري الذي لا يعرف التساوم والمهادنة مع انظمة الجور.

ونشهد موقف الامام الصلب هذا في تقريعه لزياد بن ابي سلمة واستنكاره لتعامله مع السلطان، فقال هل متسائلاً:

ـ يا زياد انك لتعمل عمل السلطان؟

فأجابه زياد:

ـ اجل.

فتساءل الامام مستنكراً:

ـ ولم؟

فقال:

ـ أنا رجل لي مروّة، وعليّ عيال، وليس وراء ظهري شيء!

فقال له الامام مبيناً موقفه من الظالم في اوضح صورة:

ـ يا زياد لأن اسقط من حالق، فانقطع قطعة قطعة، احب اليّ من ان اتولى لأحد منهم عملاً أو اطأ بساط رجل منهم.

الا إن الامام استثنى بعض ألوان العمل في مؤسسات مثل هؤلاء السلاطين قائلاً:

ـ الّا لتفريج كربة عن مؤمن، أو فك اسره، أو قضاء دينه.

وهو ما يعبَّر عنه بالمصطلح الحديث باختراق الجهاز الحاكم والتسلل اليه بهدف مراقبة تحركات هذا الجهاز والوقوف على مخططاته وما يعدّه من مشاريع لضرب الحركة الاسلامية، وبالتالي انقاذ المؤمنين الحركيين من الوقوع في شباك هذا الجهاز أو تخليص من وقع منهم في مصيدته.

ثم عاد الامام بعد هذا الاستدراك المهم الى التأكيد على العقوبة التي تنتظر المتعاون مع سلاطين الجور قائلاً:

ـ يا زياد إنّ أهون ما يصنع الله بمن تولى لهم عملاً ان يُضرب عليه سرادق من نار الى أن يفرغ الله من حساب الخلائق(٣٢٨).

وسمح الامام الكاظم عليه السلام لعلي بن يقطين بالعمل في الجهاز العباسي

لأنه كان يهمه الحصول بواسطته على ما يبيّت هذا الجهاز للاسلام وللبيت العلوي والعناصر الاسلامية الثورية، فضلاً عن انه أراد اتخاذه عوناً للمجاهدين ويداً لهم، ومفرجاً لكروبهم. ورفض الامام بحزم عرضاً تقدم به علي في الاستقالة من عمله كوزير في جهاز الرشيد وقال له: «لا تفعل فان لنا بك أنساً ولاخوانك بك عزاً، وعسى ان يجبر الله بك كسراً، ويكسر بك ثائرة المخالفين عن اوليائه. يا علي كفارة اعمالكم الاحسان الى اخوانكم. اضمن لي واحدة اضمن لك ثلاثاً: اضمن لي ان لا تلقى احداً من اوليائنا الّا قضيت حاجته وأكرمته، واضمن لك ان لا يظلك سقف سجن ابداً، ولا ينالك حد سيف ابداً، ولا يدخل الفقر بيتك ابداً. يا علي من سرّ مؤمناً، فبالله بدأ وبالنبي ثنى، وبنا ثلّث»(٣٢٩).

القرار الصائب

وكان يقطين -ابو علي- من الموالين لأهل البيت عليهم السلام في العصر الاموي، وتعرض للمطاردة من قبل الخليفة الاموي مروان الثاني، فهرب من الكوفة وأقام بالمدينة. وعاد الى مدينته الكوفة بعد سقوط الدولة الاموية وظهور الدولة العباسية، وتولى مناصب مهمة في هذه الدولة استطاع من خلالها أن يفيد أهل البيت والموالين لهم ويمد لهم يد العون ويساعدهم بالاموال ويقضي حوائجهم.

وسُعي كثيراً عليه لدى السلطة العباسية واتُّهم بموالاته للامام الصادق عليه السلام لكنه كان يتخلص من تلك السعايات بحسن تدبيره وتسديد الامام

الصادق عليه السلام.

اما ولده علي فقد ولد بالكوفة عام ١٢٤هـ وترعرع فيها، وانبرى لطلب العلم والادب، وكان على نهج ابيه في الولاء لأهل البيت عليهم السلام، الّا انه حاول ما يستطيع كتمان ذلك الولاء، وسعى جاهداً لخدمة العلويين والموالين لهم، وتقديم اخبار الجهاز العباسي للامام الكاظم عليه السلام بشكل سريّ منتظم، فضلاً عن تقديم الاموال التي كانت تغذي الحركة الاسلامية التي يتزعمها الامام وتدعم الاسر الفقيرة المعوزة(٣٣٠).

وفي اطار الاموال التي كان يقدمها ابن يقطين للامام الكاظم عليه السلام كدعم للتيار الاسلامي والقيادة الاسلامية، بعث اليه اموالاً وثياباً في جملتها مدرعة(٣٣١) خزّ سوداء من لباس الملوك مثقلة بالذهب، كان الرشيد العباسي قد اهداها له.

وربما أراد الرشيد انْ يختبر علي بن يقطين بتلك المدرعة ويرى ماذا يفعل بها، سيما بعد الوشايات المتكررة التي كانت تخبره عن ولاء علي للامام الكاظم عليه السلام ومدّه بالاموال.

فلما وصلت تلك الاموال الى الامام ادرك بنظره الثاقب وبعد رؤيته انّ هناك مكيدة تُحاك لعلي، لهذا ردّ المدرعة اليه وكتب اليه: احتفظ بها، ولا تخرجها عن يدك، فسيكون لك بها شأن تحتاج اليها معه!

وكان هناك غلام لعلي بن يقطين، سعى به الى الرشيد وقال له انه يقول بامامة موسى بن جعفر، ويحمل اليه خمس ماله في كل سنة، وانه قد بعث اليه مؤخراً ضمن ما بعث المدرعة التي اهداها اليه الخليفة.

ووجد الرشيد في قضية المدرعة ما يمكن ان يكشف له عن حقيقة

الاتهامات التي يوجهها خصوم ابن يقطين وحسّاده اليه، ويضع حداً لسوء الظن به الذي بات يخالجه منذ فترة بسبب تلك الاتهامات والوشايات. ولهذا بعث من يحضره على وجه السرعة. فلما مثل بين يديه، قال له الرشيد بلهجة غاضبة:

ـ ما فعلت بالمدرعة التي كسوتك بها؟

وهنا ادرك الحكمة من إعادة الامام الكاظم عليه السلام لها إليه، فقال بهدوء:

ـ هي عندي في سفط مختوم، فيه طيب، وقد احتفظت بها، وقلما اصبحت الّا وفتحت السفط، فنظرت اليها تبركاً بها، وقبلتها، ورددتها الى موضعها، وكلما امسيت صنعت مثل ذلك.

ولم يصدق الرشيد قوله، فطلب اليه ان يبعث من يأتي بها فوراً. فاستدعى علي بعض خدمه، وقال له:

ـ امض الى البيت الفلاني من الدار، فخذ مفتاحه من خازنتي، فافتحه، وافتح الصندوق الفلاني، وجئني بالسفط الذي فيه بختمه.

فذهب الغلام ولم يلبث ان جاءه بالسفط مختوماً فوضعه بين يدي الرشيد. وعندما فتح الرشيد السفط وجد المدرعة بحالها، مطوية، مدفونة في الطيب.

وحينئذ تبددت كافة عوامل القلق التي كانت تنتابه وادرك كذب ما كان يتحدث به الوشاة عن علي، وعظم في عينه مرة اخرى. فالتفت اليه وقال له:

ـ ارددها الى مكانها، وانصرف راشداً فلن اصدّق عليك بعدها

ساعياً.

وأمر ان يتبع بجائزة سنية، وتقدم بضرب الساعي الف سوط فضرب نحواً من خمسمائة سوط فمات في ذلك(٣٣٢).

وعلى صعيد توجيه الامام لعلي بن يقطين واتحافه الدائم بالوصايا والارشادات التي تجعله في منأى عن خطر الرشيد وزبانيته، كتب اليه انْ يتوضأ كما يتوضأ الرشيد قائلاً:

ـ الذي آمرك به أن تتمضمض ثلاثاً، وتستنشق ثلاثاً، وتغسل وجهك ثلاثاً، وتخلل شعر لحيتك ثلاثاً، وتغسل يديك ثلاثاً، وتمسح ظاهر أُذنيك وباطنهما، وتغسل رجليك ثلاثاً، ولا تخالف ذلك الى غيره.

فامتثل علي بن يقطين أمر الامام وعمل به.

ولما كان الرشيد لا يفتأ يراقب علياً بدافع من شكوكه المتواصلة في كل المقربين منه، وبتأثير السعايات المتكررة، قرر ان يطلع على وضوئه دون ان يعلم، ليرى هل يتوضأ على طريقة موسى بن جعفر عليه السلام ام على طريقة الجهاز العباسي. فراقبه يوماً من دون ان يدري فوجده يتوضأ على طريقتهم، فحينئذ رفع الرشيد صوته قائلاً:

ـ كذب من زعم انك رافضي!

ولم تكد تمضي غير فترة قصيرة حتى ورد كتاب عليه من الامام موسى بن جعفر عليه السلام يقول:

ـ توضأ من الآن كما أمر الله: اغسل وجهك مرة فريضة، والاخرى اسباغاً، واغسل يديك من المرفقين كذلك، وامسح مقدم رأسك، وظاهر قدميك، من فضل نداوة وضوئك، فقد زال ما يُخاف عليك(٣٣٣).

نفاد الصبر

كان الجواسيس يكتبون باستمرار لهارون الرشيد حول نشاطات الامام موسى بن جعفر عليه السلام ويوغرون صدره عليه ويأججون عداءه له، وكان واضحاً لديه تزعّم الامام للتيار الاسلامي المناهض للخلافة العباسية والساعي لتشكيل دولة اسلامية وفق المعايير الالهية والمبادئ القرآنية. ولهذا قرر أن يضع حداً لتلك النشاطات، والقضاء على تلك الحركة التي تنطلق بصمت وحذر، من خلال القاء القبض على زعيمها ومحركها الامام موسى بن جعفر عليه السلام.

وقرر ان ينفذ خطته تلك في موسم الحج لعام ١٧٩هـ عندما توجه للديار المقدسة، فلم يعد يتحمل وجود الامام حراً يرعى تلك الحركة، ويوجّه الكوادر الثورية، ويسدّد المسيرة الاسلامية على مختلف الاصعدة.

الاسباب المباشرة للاعتقال

وذكرت أسباب مباشرة وعديدة دفعت بالرشيد الى اعتقال الامام وزجّه في السجن منها:

انّ الرشيد عندما سافر الى الحجاز عام ١٧٩هـ، تقدم نحو قبر سول الله صلى الله عليه وآله ومعه الناس من كافة الاقطار، فقال مسلّماً على صاحب القبر:

ـ السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يابن عمّ.

مفتخراً بذلك على غيره، ومؤكداً على انه اقرب الناس الى الرسول ﷺ وأولى به منهم، ومشيراً بشكل غير مباشر الى احقيته في خلافته، ضارباً بهذا الادعاء الباطل حقّ أئمة أهل البيت في القرابة من الرسول ﷺ وولاية المسلمين وإمامتهم.

وكان ذلك الموقف في غاية الخطورة، ولا يمكن للامام الكاظم عليه السلام ان يدعه يمر دون جواب، وكان الواجب الشرعي يملي عليه اتخاذ موقف مضادّ يؤكد من خلاله على احقية أئمة أهل البيت عليهم السلام في القرابة من الرسول، فتقدم الى الضريح الطاهر وقال:

ـ السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا ابه.

فتغير وجه الرشيد، وتبين الغيظ فيه(٣٣٤).

والواقع أنّ تلك المجابهة قد تلقى فيها الرشيد صفعة قوية امام حشود العلماء والفقهاء والشخصيات القادمة من مختلف اقطار العالم الاسلامي، مما دفعته الى اتخاذ قراره باعتقال الامام عليه السلام ووضع حدٍ لنشاطه المتنامي ضد الحكم العباسي.

وقال البعض أن السبب المباشر في القاء القبض على الامام كان مبعثه الوزير يحيى بن خالد البرمكي. فقد كان هذا الوزير يحسد جعفر بن محمد بن الأشعث المقرّب من الرشيد ويخاف ان تؤول الوزارة اليه، لاسيما وقد وضع الرشيد ابنه محمد بن زبيدة تحت اشرافه وتكفله، فساء ذلك يحيى كثيراً وقال: إن افضت الخلافة اليه زالت دولتي ودولة ولدي، وتحول الامر الى جعفر بن محمد بن الاشعث وولده.

وكان يحيى على علم بميول جعفر بن محمد الى مذهب أهل البيت واعتقاده بامامة الامام الكاظم عليه السلام، ولهذا حاول التقرب منه وأظهر له على انه على مذهب أهل البيت عليهم السلام أيضاً لكنه يكتم ذلك خوفاً من الرشيد، وراح ينتزع بتلك الطريقة الكثير من المعلومات منه وعلاقته بالامام، ويرفعها الى الرشيد لكي يتخلص منه اولاً ويزيح عقبة كأداء من طريقه قد تسلب النعمة التي يرفل فيها مع اولاده، وليحفر بئراً للامام الكاظم يوقعه فيها باعتباره إمام ابن الاشعث وموجهه.

وتنفيذاً لمخططه في الايقاع بالامام قال يوماً لبعض ثقاته:

ـ اتعرفون لي رجلاً من آل ابي طالب ليس بواسع الحال يعرفني ما احتاج اليه.

فدلّوه على علي بن اسماعيل بن جعفر (ابن اخ الامام)، وكان الامام يأنس اليه ويصله. فحمل اليه يحيى بن خالد البرمكي مالاً وكتب اليه ان يقدم عليه. فأحسّ الامام بذلك فدعاه، وقال له:

ـ الى اين يابن اخي؟

فقال علي بن اسماعيل:

ـ الى بغداد.

قال الامام:

ـ وما تصنع؟

فقال:

ـ عليّ دين، وأنا مُمْلِق.

فقال له الامام:

ـ فأنا اقضي دينك.

فلم يلتفت الى ذلك. فقال له الامام وقد ادرك الهدف من سفره:

ـ انظر يابن اخي، لا تؤتم اولادي.

ثم أمر له بثلاثمائة دينار وأربعة آلاف درهم.

فلما قام علي بن اسماعيل من بين يديه، قال الامام عليه السلام لمن حضره:

ـ والله ليسعَّين في دمي، ويؤتمنّ اولادي.

فخرج علي بن اسماعيل حتى اتى الى يحيى بن خالد، فتعرف منه خبر الامام ورفعه الى الرشيد، وزاد عليه وقال:

ان الاموال تُحمل اليه من المشرق والمغرب، وانّ له بيوت اموال، وانه اشترى ضيعة بثلاثين الف دينار[٣٣٥]...

وقيل أن محمد بن اسماعيل سعى بعمه الى الرشيد حين قدومه الى الحجاز فقال:

ـ اما علمت ان في الارض خليفتين يجبى اليهما الخراج؟

فقال الرشيد:

ـ ويلك، أنا ومن؟

فقال:

ـ موسى بن جعفر.

ثم اظهر اسرار الامام كافة[٣٣٦].

ولعلّ المراد به اسماعيل الذي ذهب اليه اغلب المؤرخين وليس

محمد بن اسماعيل.

الامام في السجن

وأصدر الرشيد امره الجائر بالقبض على الامام وهو لما يزال بالمدينة، فألقى جلاوزته القبض عليه وهو قائم يصلي عند رأس النبي ﷺ قاطعين عليه صلاته، فقيدوه وهو ينظر الى قبر رسول الله ﷺ ويقول: «اشكو إليك يا رسول الله ما القى». واستدعوا بغلتين على كل واحدة قبة فوضعوه في احداهما، وخرجوا بهما، ومع كل واحدة خيل ورجال. فأخذوا واحدة على طريق البصرة والاخرى على طريق الكوفة ليعموا على الناس أمره.

وكان الامام في التي على طريق البصرة، حيث أمر الرشيد الموكلين به بتسليمه الى عيسى بن جعفر بن المنصور وكان الوالي على البصرة، فحبسه عنده سنة كاملة. وكتب الى الرشيد طالباً منه إرسال من يأخذه منه قائلاً: «خذه مني وسلّمه الى من شئت، والاّ خليت سبيله. فقد اجتهدت ان آخذ عليه حجة فما اقدر على ذلك، حتى انني لأتسمع عليه اذا دعا لعله يدعو عليّ أو عليك، فما اسمعه يدعو الاّ لنفسه، يسأل الرحمة والمغفرة»(٣٣٧).

فوجّه الرشيد من يتسلمه من والي البصرة، وصير به الى بغداد، فسُلِّم الى الفضل بن الربيع ليقتله، فأبى، فأمر بتسليمه الى الفضل بن يحيى، فوسّع عليه واكرمه. وبلغ الرشيد ذلك فوجّه اليه مسرور الخادم ليتعرف

حاله فوجد الأمر على ما بلغ الرشيد. فأمر بضرب الفضل مائة سوط وطلب من الناس ان يلعنوه، فلعنه الناس من كل جانب. وتدخل ابوه يحيى بن خالد لدى الرشيد وقال: ان الفضل حدث وانا اكفيك ما تريد. فقال الرشيد: الا ان الفضل قد تاب وأناب الى طاعتي فتولوه![٣٣٨].

وسلّم يحيى بن خالد الامام الكاظم عليه السلام الى السندي بن شاهك الذي زجّه في سجنه المخيف المرعب ليلاقي فيه الامام الأهوال وانواع المضايقات والتعذيب الجسدي والنفسي، الا انّ الامام لم يكن ممّن يزعزع السجن من ايمانهم، ولا ممن ينال التعذيب من صمودهم، بل وجد فيه فرصة ذهبية للتقرب الى الله والتفرغ اليه والاقبال عليه، ولهذا انشغل فيه بالعبادة، فكان يحيى الليل كله صلاةً، وقراءةً للقرآن، ودعاءً واجتهاداً، ويصوم النهار في اكثر الأيام، ولا يصرف وجهه عن المحراب[٣٣٩]. وكان يقول في السجن: «**اللهم انك تعلم اني كنت اسألك ان تفرغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت، فلك الحمد**»[٣٤٠].

ورغم السنوات الطويلة التي امضاها الامام في السجن واتخاذه معبداً ومحراباً انصرف فيه الى العبادة والدعاء والسجود الطويل، الا انه كان يتصل بشيعته وقاعدته الثورية عبر مختلف الطرق لاسيما وقد كان له موالون ومناصرون مندسون في الجهاز العباسي، ولم يكن غائباً عن اوضاع الساحة الاسلامية والشارع الاسلامي، كما انّ القاعدة الجماهيرية الاسلامية لم تكن بعيدة عن توجيهاته وارشاداته التي كانت تصل اليها بشتى السبل.

وقد بعث الامام يوماً من سجنه رسالة الى هارون يقول له فيها:

«انه لن ينقضي عني يوم من البلاء حتى ينقضي عنك يوم من الرخاء، حتى نقضي جميعاً الى يوم ليس له انقضاء، وهناك يخسر المبطلون»(٣٤١).

وهي رسالة تحذيرية شديدة اللهجة الى رئيس السلطة العباسية تعبّر عن ايمان الامام بالله تعالى وبالنهج الذي سلكه في مواجهة هذه السلطة، واعتقاده الراسخ بالفوز الذي ينتظره عند الله تعالى، والخسارة التي تنتظر القيادة العباسية المنحرفة.

منطق الحق

حينما حُمل الامام موسى بن جعفر عليه السلام الى هارون الرشيد، جرت بينهما مناظرة طويلة، كانت اشبه بالمحاكمة، أراد الرشيد من خلالها إفحام الامام موسى بن جعفر عليه السلام وادانته، وتبرير ما كان يريد ان يوجّه له من عقوبة. الّا أنّ الامام عليه السلام اجاب على كافة ما وجهه اليه الرشيد من استجوابات بشكل صريح وقاطع بحيث اجبره على القبول والتسليم بكل ما قاله، ولم يتمكن الرشيد من تسجيل نقطة ضعف عليه، ولا تثبيت تهمة ادانة، الّا انّ الرشيد لم يكن يتحرى الحقيقة، أو يحاور من اجل الوصول الى الرأي الصائب، أو يناقش كي يقتنع، وانما كان يناقش ليدين، ويناظر ليتّهم، وعندما لا يفلح في ذلك، يضطر الى الانسحاب من المعركة الكلامية، لكنه يبقى مصراً على قراره الجائر بتصفية الامام.

ومن تلك الاستجوابات التي وجهها الرشيد للامام قوله:

اخبرني لم فَضِّلتم علينا ونحن وأنتم من شجرة واحدة، وبنو عبد المطلب ونحن وأنتم واحد، إنا بنو العباس وأنتم ولد أبي طالب، وهما عما رسول الله ﷺ وقرابتهما منه سواء؟

فأجابه الامام: نحن اقرب.

فقال الرشيد: وكيف؟

فقال الامام: لأنّ عبد الله وأبا طالب لأب وام، وأبوكم العباس ليس هو من ام عبد الله، ولا من ام ابي طالب.

فقال الرشيد: فلم ادعيتم انكم ورثتم النبي ﷺ، والعم يحجب ابن العم، وقُبض رسول الله ﷺ وقد توفي ابو طالب قبله، والعباس عمه حي؟

فقال الامام: إنّ في قول علي بن ابي طالب عليه السلام إذ ليس مع ولد الصلب ذكراً كان أو انثى لأحد يسهم الّا للأبوين والزوج والزوجة، ولم يثبت للعم مع ولد الصلب ميراث، ولم ينطق به الكتاب، الّا أنّ تيماً وعدياً وبني امية قالوا: العم والد، رأياً منهم، بلا حقيقة، ولا اثر عن النبي ﷺ...

وطرح الرشيد سؤالاً آخر على الامام قائلاً:

لم جوزتم للعامة والخاصة ان ينسبوكم الى رسول الله ويقولون لكم: يا بني رسول الله، وأنتم بنو علي، وانما ينسب المرء الى ابيه، وفاطمة انما هي وعاء، والنبي جدكم من قبل امكم؟

فأجابه الامام عليه السلام:

لو انّ النبي ﷺ نُشر فخطب إليك كريمتك هل كنت تجيبه؟

فقال الرشيد: سبحان الله ولم لا أُجيبه؟! بل افتخر على العرب والعجم وقريش بذلك.

فقال له الامام: لكنه لا يخطب اليّ ولا ازوّجه!

فقال الرشيد: ولم؟

فأجابه: لأنه ولدني ولم يلدك!

وعندما وضع الامام الرشيد في الزاوية الحرجة، اضطر الرشيد الى التساؤل: كيف قلتم انّا ذرية النبي، والنبي لم يعقب، وانما العقب للذكر لا للانثى، وانتم ولد الابنة، ولا يكون لها عقب؟

فقرأ الامام الآية التالية: ﴿ومن ذريته داود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى﴾(٣٤٢).

ثم سأل الامام الرشيد: من ابو عيسى؟

فأجاب: ليس لعيسى أب.

فقال الامام: انما أُلحق بذراري الانبياء عن طريق مريم، وكذلك أُلحقنا بذراري النبي صلى الله عليه وآله من قبل امنا فاطمة.

ثم قرأ الامام بعد ذلك الآية التالية: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾(٣٤٣)، وعقّب عليها قائلاً:

ولم يدّع أحد انّ النبي صلى الله عليه وآله ادخل تحت الكساء عند مباهلة النصارى الّا علي بن ابي طالب وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فكان تأويل قوله عزّ وجل: ابناءنا الحسن والحسين، ونساءنا فاطمة، وأنفسنا علي بن

ابي طالب(٣٤٤).

ونرى من مجمل هذه الاسئلة أو الاستجوابات التي وجهها هارون الرشيد للامام موسى بن جعفر عليه السلام انها تتركز حول محور واحد وهو مدى مصداقية احقية أئمة أهل البيت عليهم السلام في الانتماء الى الرسول محمد صلى الله عليه وآله وخلافته ووراثته، وهي تعبّر في الواقع عن عقدة النقص التي كان يعاني منها الرشيد وباقي الخلفاء العباسيين، واقرارهم مع ذواتهم في انهم لا يمتلكون القرابة من الرسول كما يمتلكها العلويون ولا تتوفر لديهم الشرعية التي تتوفر لهم. وكانت عقدة النقص هذه تضغط عليهم باستمرار ويحاولون التغلب عليها من خلال المحاولات المتكررة لقلب الحقائق، وخلط الاوراق، وتزوير التاريخ، وكذلك من خلال التعامل الدموي مع البيت العلوي والشخصيات العلوية المطالبة بحق أهل البيت في تولي امور المسلمين وتطبيق احكام الإسلام، في محاولة يائسة لاخماد هتاف الحقيقة المنطلق من حناجرهم.

وكان الامام موسى بن جعفر عليه السلام، أحد تلك القيادات العلوية، والزعامات الاسلامية، والشخصيات الثائرة التي دفعت ضريبة الاصرار على قول الحق، وجلاء الحقيقة، والكشف عن الزيف، والخداع، والنفاق.. فكانت الضريبة غالية جداً... لكنها لابد منها لكي يظل الحق ساطعاً متوهجاً، ولكي يتلاشى سراب الباطل، ويميز الناس بين طريق الخير وطريق الشر.

ولم يطق الرشيد العباسي وجود الامام الكاظم عليه السلام حتى وهو سجين، رازح في الاغلال، يعاني صنوف العذاب والألم والضيق، ويكابد عناء الغربة عن الوطن والبعد عن الاهل والانعزال عن المريدين والاتباع.

كان يشعر أنّ موسى بن جعفر عليه السلام يطارده في كل حين وينغّص عليه صفو حياته، ويعكّر عليه جمال لياليه الحمراء الساهرة، وينتزع منه جلابيب غروره وخيلائه، ويهوى عليه بسيف كرامته وورعه.

كان على علم انّ موسى عليه السلام أحقّ منه بالخلافة وأولى بالامامة، وأجدر بقيادة المسلمين، بل واين هو من موسى وهل يقاس الثرى بالثريا؟ كان يعلم انه إمام الاجسام وأن موسى عليه السلام امام القلوب.. واين امام الاجسام من امام القلوب؟ وكان على بصيرة انه انما يحكم الناس ليتحكم فيهم، وأنّ موسى لو حكم الناس لهداهم الى الله وأنقذهم من ظلمات الباطل.

ولهذا لا يمكن له ان يتحمل وجوده على مقربة منه ولو بين جدران الزنزانة الصماء، ولا يطيق سماع صوت تهجده وتبتله الذي يخترق اسيجة سجن السندي بن شاهك، ليدوي في سماء بغداد ويهزّ عرش الغرور والتجبر وكرسي الاهواء والملذات.

وصدر الامر من الرشيد بتنفيذ حكم الاعدام بالامام وخنق ذلك الصوت الهادر الذي يقضّ عليه مضاجعه ويحول ايامه الى ليال سوداء حالكة، وحبس اشعة الشمس عن الوصول الى افكار وعقول الجماهير،

واخماد تلك الانفاس المقدسة التي تفيض بالطهر والحبّ والحنان...

وانبرى يحيى بن خالد البرمكي والسندي بن شاهك لتنفيذ ذلك المرسوم الجائر، وتطوّع ابن شاهك لوضع السم في حبّات الرطب وقدمها للامام، كي يقضي عليه بهذه الطريقة الجبانة. وما انْ تناول الامام عشر رطبات منها، حتى عزف عن باقي الطبق بعد انْ شعر انّ السمّ اخذ يعمل عمله فيه.

الّا انّ ابن شاهك كان يرغب في ان يتناول الامام كافة الرطب المسموم، فقال للامام بخبث:

ـ تزداد؟

فقال له الامام:

ـ حسبك قد بلغت ما يحتاج اليه فيما أُمرت به.

وعندما طرقت اسماع الناس انباء تسربت من داخل السجن العباسي مفادها انّ السلطة قد دست السم الى الامام، حدثت اضطرابات وقلاقل، وارتفعت اصوات الاحتجاج والتذمر. ولكي تحول السلطة العباسية دون تفاقم الاوضاع وارتباكها، احضرت القضاة والعدول وأخرجت الامام اليهم، وقالت:

ـ انّ الناس يقولون انّ ابا الحسن موسى في ضنك وضر، وها هو ذا لا علّة به ولا مرض ولا ضر!

الّا أن الامام عليه السلام فوّت الفرصة على السلطة العباسية، فالتفت الى القضاة والعدول وقال:

ـ اشهدوا عَليَّ اني مقتول بالسم منذ ثلاثة ايام. اشهدوا اني صحيح الظاهر لكني مسموم، وسأحمر في آخر هذا اليوم حمرة شديدة منكرة، وأصفر غداً صفرة شديدة، وأبيض بعد غد وأمضي الى رحمة الله ورضوانه(٣٤٥).

وكان كما قال، فتوفي عليه السلام في الخامس والعشرين من رجب في سنة ١٨٣هـ، وصعدت روحه الطاهرة الى الله تعالى محلقة في سماء رضوانه، مستبشرة بلقائه، فرحةً بما اعد الله لها من نعيم وفردوس، شاكية اليه ما لقيته على أيدي الطغاة من ارهاب وظلم وتعذيب.

وغاب جسم الامام عليه السلام عن الدنيا وعن الأمة التي كانت ترى فيه الامام والمرشد والدليل، لكنّ روحه ظلت خالدة في قلوبهم وعقولهم، وتعاليمه حية مشعّة لا تفارق سلوكهم وتحركهم، وأهدافه المباركة متألقة ماثلةً أمام أعينهم وتشغل عليهم تفكيرهم، وتدفعهم لمزيد من الاصرار على مواصلة الدرب، وحث الخطى رغم كافة ما في ذلك الدرب من مقاصل وسجون وسياط.

ولم يفلح العباسيون في خنق صوت الامام لانه صوت الاسلام، ولا في حجب اشعة شمسه لأنها اشعة القرآن والرسالة، ولا في اخماد انفاسه لانها انفاس الايمان والصدق والفضيلة. وسيبقى هذا الصوت مدوياً، والشمس ساطعة، والانفاس حيّة على مرّ الازمان رغم انف الجبابرة والطواغيت.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

الهوامش

١ ـ معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج ١، ص ٥٠٩، طبعة دار احياء التراث العربي.

٢ ـ الميزان في تفسير القرآن، ج ٩، ص ٢١٠ ـ ٢١١، دار الكتب الاسلامية طهران، ١٣٩٤.

٣ ـ سورة التوبة، الآية ١٩.

٤ ـ العقد الفريد، ابن عبد ربه، ج ١، ص ٣٨، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٥ ـ تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص ٢٠٥، المطبعة التجارية، القاهرة، ١٩٥٢.

٦ ـ المختصر في اخبار البشر، ابو الفداء، ج ٧، ص ٧٧، القاهرة.

٧ ـ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٠.

٨ ـ التاريخ الكبير، ابن عساكر، ج ٧، ص ٤٠٨، دمشق.

٩ ـ ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ٢، ص ٤٣٨، مطبعة مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٤٨.

١٠ ـ نفس المصدر.

١١ ـ تولى ابو العباس السفاح الخلافة قبل اخيه المنصور رغم انه اصغر سناً منه لأن امه عربية.

١٢ـ مذاهب ابتدعتها السياسة في الاسلام، عبد الواحد الانصاري، ص ٢١٧، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٣.

١٣ـ الكامل في التاريخ، ابن الاثير، حوادث سنة ١٣٢هـ.

١٤ـ نفس المصدر، حوادث سنة ١٣٠هـ.

٥١ـ شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ج ٣، ص ٧٢٧، بيروت.

١٦ـ الامام الصادق والمذاهب الاربعة، اسد حيدر، المجلد ٢، ص ٣١١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٠هـ.

١٧ـ الكامل في التاريخ، ابن الاثير، ج ٥، ص ٤١٣، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥.

١٨ـ تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري، ج ٦، ص ٨٨ـ ٩٥، المطبعة التجارية بالقاهرة.

١٩ـ كتاب البلدان، اليعقوبي، ص ٢٣٧.

٢٠ـ الوزراء والكتاب، الجهشياري، ص ٨٤.

٢١ـ الامامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، ج ٢، ص ١٤٥، ط ١٩٦٩.

٢٢ـ نفس المصدر.

٢٣ـ تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٠٣ح مروج الذهب، المسعودي، ج ٣، ص ٢٧١، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٦٤م.

٢٤ـ مروج الذهب، ج ٣، ص ١٨٤.

٢٥ـ ذكر الشهرستاني ان ابا مسلم ارسل الى الامام الصادق يقول له: «اني قد اظهرت الكلمة ودعوت الناس عن موالاة بني امية الى موالاة أهل البيت،

فان رغبت فيه فلا مزيد عليك»، فكتب اليه الامام: «ما انت من رجالي ولا الزمان زماني»، الملل والنحل، ج ١، ص ١٥١.

٢٦ـ الكامل، حوادث سنة ١٣٢هـ.

٢٧ـ العقد الفريد، ج ٣، ص ٢٩٣، ابن ابي الحديد، ج ٢، ص ٣٠٩.

٢٨ـ ابن ابي الحديد، ج ٣، ص ٦٩٧، اليعقوبي، ج ٣، ص ٦٤.

٢٩ـ مؤرخ العراق ابن الفوطي للعلامة الشيبي، نقلناه عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة، اسد حيدر، المجلد ١، ص ٤٨.

٣٠ـ ص ١١٧.

٣١ـ الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج ٢، ص ٣٥٩.

٣٢ـ مقاتل الطالبيين، ابو الفرج الاصفهاني، ص ٢٧٧ فما بعد.

٣٣ـ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ج ١، ص ٣٩.

٣٤ـ شرح الهمزية، ابن حجر، ص ٣١٨.

٣٥ـ تاريخ بغداد، ج ١، ص ٤٨.

٣٦ـ نفس المصدر.

٣٧ـ الامام الصادق والمذاهب الاربعة، المجلد ٢، ص ٤٨١.

٣٨ـ تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص ١٠٤.

٣٩ـ تاريخ بغداد، ج ١، ص ٢١٥.

٤٠ـ تاريخ الخلفاء، ص ١٠٥.

٤١ـ الامامة والسياسة، ج ٢، ص ١٧٢ـ ١٧٤.

٤٢ـ الأزج: البيت يُبنى طولاً (المنجد).

٤٣ـ تاريخ الطبري، ج٦، ص ٣٤٤؛ الدكان: شيء كالمصطبة يُقعد عليه (المنجد).

٤٤ـ الكامل، ج٥، حوادث سنة ١٣٢هـ.

٤٥ـ تهذيب التاريخ، ابن عساكر، ج٦، ص ٣٢٣، نقلناه عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج١، ص ١٢٦.

٤٦ـ مذاهب ابتدعتها السياسة، ص ٨٩.

٤٧ـ الامام الصادق، ج١، ص ٥٧٠.

٤٨ـ مقدمة فتح الباري، نقلناه عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج١، ص ٥٦٦.

٤٩ـ الصارم المسلول، ابن تيمية، ص ٥٧٥، نقلناه عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج١، ص ٥٦٦.

٥٠ـ الاختلاف في اللفظ، ابن قتيبة، ص ٤٧، نقلناه عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج١، ص ٥٧٠.

٥١ـ ﴿**يا ايها الرسول بلغ ما انزل إليك من ربك...**﴾؛ يراجع كتاب الغدير للعلامة الأميني.

٥٢ـ تاريخ بغداد، ج٥، ص ٢٤٤.

٥٣ـ ميدان الاجتهاد، نقلناه عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج١، ص ١٧١ـ١٧٣.

٥٤ـ نقلاً عن الامام الصادق، ج١، ص ١٧١.

٥٥ـ المصدر رقم ٥٣.

٥٦ـ الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج ١، ص ١٧٣.

٥٧ـ نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٣١.

٥٨ـ الكامل، حوادث سنة ٣١٠.

٥٩ـ علي وبنوه، طه حسين، من ٩٨ـ ٩٩.

٦٠ـ للاطلاع على تفاصيل هذا الموضوع، راجع كتاب «عبد الله بن سبأ» للعلامة السيد مرتضى العسكري.

٦١ـ ولد المختار في عام الهجرة، وجاء به ابوه يوم ولادته الى الامام علي عليه السلام فباركه وقال: «كيّس كيس»، ولهذا لُقّب بالكيس وسمي اتباعه بـ «الكيسانية». وكان المختار قد بعث برأس ابن زياد الى الامام السجاد عليه السلام، فخر ساجداً وقال: «الحمد لله الذي ادركني ثاري من اعدائي، وجزى الله المختار خيراً». (ابن الاثير، حوادث سنة ٦٧هـ). كما ان الامام الصادق عليه السلام قال رداً على المتقولين عليه: «سبحان الله اخبرني ابي انّ مهر امي كان مما بعث به اليه المختار. أو لم يبنِ دورنا، وقتل قاتلينا، وطلب بدمائنا فرحمه الله»... (رجال الكشي، ص ١٢٦، طبعة جامعة مشهد). وقُتِل آخر المطاف على يد مصعب بن الزبير.

٦٢ـ مذاهب ابتدعتها السياسة في الاسلام، ص ٣٩.

٦٣ـ المصدر السابق، ص ٤٥.

٦٤ـ الشيعة والخوارج، ص ٢٣٤، نقلناه عن مذاهب ابتدعتها السياسة، ص ١٢٣.

٦٥ـ شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ج ١، ص ٢٦.

٦٦ـ مروج الذهب، ج٣، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

٦٧ـ نفس المصدر، ص ١٧٦.

٦٨ـ الطبري، ج٩، ص ٢٩٨.

٦٩ـ مقاتل الطالبيين، ص ٣١٩.

٧٠ـ الطبري، ج٦، ص ٢٤٧.

٧١ـ مذاهب ابتدعتها السياسة، ص ٢٤.

٧٢ـ الولاة والقضاة، الكندي، ص ١٩٨.

٧٣ـ تحذير الخواص للسيوطي، نقلناه عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج١، ص ٢٦٨.

٧٤ـ الاغاني، ابو الفرج الاصفهاني، ج١٢، ص ٥.

٧٥ـ البداية والنهاية، ابن كثير، ج٨، ص ١٢٠.

٧٦ـ شيخ المضيرة، ابو رية، ص ١٧٧، نقلاً عن مذاهب ابتدعتها السياسة.

٧٧ـ الطبري، ج٦، ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤.

٧٨ـ مروج الذهب، ج٣، ص ٢٦٠.

٧٩ـ اضواء على السنة المحمدية، محمود ابو رية، ص ١١٩.

٨٠ـ كلمة فارسية يراد بها الناقد أو المميز بين الرديئ والجيد (المنجد).

٨١ـ كلمة فارسية تعني الماعز.

٨٢ـ مروج الذهب، ج٣، ص ٣٣٧.

٨٣ـ ابن كثير، ج١٠، ص ١٥٣، نقلناه عن الامام الصادق، ج٢، ص ٢٣٢.

٨٤ـ تاريخ بغداد، ج٩، ص ٢٩٢.

٨٥ـ مناقب ابي حنيفة، ج١، ص ٢٩ فما بعد.

٨٦ـ جامع اسانيد ابي حنيفة، ج١، ص ٢٢٢.

٨٧ـ مناقب ابي حنيفة، ج١، ص ٢٧.

٨٨ـ الكامل، ج٢، ص ٣٦.

٨٩ـ تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص ٦٥؛ مقاتل الطالبيين، ص ١٣٥.

٩٠ـ الديباج المذهب، ابن فرحون، ص ٢٥.

٩١ـ الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج٢، ص ٥٦٥.

٩٢ـ تاريخ بغداد، ج١٣، ص ١٤٤.

٩٣ـ تاريخ الطبري، حوادث سنة ١٩٣.

٩٤ـ حديث الاربعاء، طه حسين، ج٢، ص ٢٣، دار المعارف، القاهرة.

٩٥ـ الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج١، ص ١٤٥.

٩٦ـ الكامل، ج٧، ص ٣٨، نقلناه عن الامام الصادق، ج٢، ص ٢٢٨.

٩٧ـ الرعد، الآية ١٧.

٩٨ـ قرية بين مكة والمدينة تبعد عن الجحفة ٢٣ ميلاً، وفيها قبر السيدة آمنة بنت وهب.

٩٩ـ المحاسن، البرقي، ج٢، ص ٣١٤؛ حلية الابرار في فضائل محمد وآله الاطهار، هاشم البحراني، ج٢، ص ٢٢٧، المطبعة العلمية بقم؛ بحار الانوار، العلامة المجلسي، ج ٤٨، ص ٢.

١٠٠ـ مناقب آل ابي طالب، ابن شهر آشوب، ج٤، ص ٣٢٣، المطبعة العلمية بقم؛ سير الأئمة، السيد محسن الامين، ج٢، ص ٨٠، دار التعارف

للمطبوعات.
١٠١ـ الاصول من الكافي، الكليني، ج ١، ص ٤٧٧، دار الكتب الاسلامية.
١٠٢ـ المصدر السابق، ص ٤٧٦ـ ٤٧٧.
١٠٣ـ مناقب، ج ٤، ص ٣٢٣؛ سير الائمة، ص ٨١.
١٠٤ـ مناقب، ص ٣٢٣.
١٠٥ـ كشف الغمة في معرفة الائمة، ابو الفتح الأربلي، ج ٢، ص ٢٥٣.
١٠٦ـ الامام موسى الكاظم عليه السلام، علي محمد دخيل، ص ٨٧.
١٠٧ـ عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق، ج ١، ص ٤٢، منشورات الاعلمي، طهران، ١٩٧٠.
١٠٨ـ المصدر السابق، ص ٤٨.
١٠٩ـ المصدر السابق، ص ٥٢.
١١٠ـ المصدر السابق، ص ٥٣.
١١١ـ الارشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ المفيد، ج ٢، ص ٢٠٧.
١١٢ـ حلية الابرار، ج ٢، ص ٢٨٨.
١١٣ـ نفس المصدر، ص ٢٨٩؛ الارشاد، ص ٢٠٨.
١١٤ـ غديرة تعني ذؤابة.
١١٥ـ حلية الابرار، ص ٢٨٩.
١١٦ـ الارشاد، ص ٢١١.
١١٧ـ مناقب آل ابي طالب، ج ٤، ص ٣٢٠.
١١٨ـ المصدر السابق.

١١٩ ـ بحار الانوار، ج ٤٨، ص ٢١، الحديث ٣٢، المكتبة الاسلامية، طهران، ١٣٩٦هـ.

١٢٠ ـ بحار الانوار، ج ٤٨، ص ٦٧.

١٢١ ـ حلية الابرار، ج٢، ص ٢٩٠. (ملاحظة: ذكرت اغلب المصادر ان ام الامام الكاظم وام عبد الله الافطح ليست واحدة).

١٢٢ ـ بحار الانوار، ج ٤٨، ص ٦٧.

١٢٣ ـ حلية الابرار، ج٢، ص ٢٣٣.

١٢٤ ـ نفس المصدر، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

١٢٥ ـ ينابيع المودة، البلخي القندوزي، ج٢، ص ٣٢.

١٢٦ ـ الارشاد، ص ٢٢٦.

١٢٧ ـ الفصول المهمة، ابن الصباغ، ص ٢٤٤.

١٢٨ ـ الارشاد، المفيد، ج٢، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧، طهران.

١٢٩ ـ نفس المصدر، ص ٢٢٧.

١٣٠ ـ مناقب آل ابي طالب، ج٤، ص ٣١٤.

١٣١ ـ اعصرت المرأة = ادركت، فهي معصر.

١٣٢ ـ المصدر السابق، ص ٣١٠ ـ ٣١١.

١٣٣ ـ المصدر السابق، ص ٣١٤.

١٣٤ ـ حلية الابرار، ج٢، ص ٢٧٤.

١٣٥ ـ الارشاد، ج٢، ص ٢١٧.

١٣٦ ـ مناقب آل ابي طالب، ج٤، ص ٣١١؛ بحار الانوار، ج٤٨، ص١١٤.

١٣٧ ـ اعيان الشيعة، محسن الامين، ج ٤، ق ٢، ص ٩٤.

١٣٨ ـ حياة الامام موسى بن جعفر، باقر شريف القرشي، ج ١، ص ٢٥٦.

١٣٩ ـ الخصال، الصدوق، باب الثلاثة، حديث ١٣٧.

١٤٠ ـ سير الائمة، ج ٢، ص ٥.

١٤١ ـ العين = الدينار والدرهم، الورق، الدراهم المضروبة.

١٤٢ ـ مناقب آل ابي طالب، ج ٢، ص ٣١٨؛ بحار الانوار، ج ٤٨، ص ١٠٨.

١٤٣ ـ البحار، ج٤٨، ص ١٠٢.

١٤٤ ـ سير الائمة، ج ٢، ص ٨٦.

١٤٥ ـ حلية الابرار، ج ٢، ص ٢٥٩.

١٤٦ ـ سير الائمة، ج ٢، ص ٤٤.

١٤٧ ـ الارشاد، ج ٢؛ البحار، ج٤٨، ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

١٤٨ ـ البحار، ج ٤٨، ص ١١٥.

١٤٩ ـ سير الائمة، ج ٢، ص ٨٥.

١٥٠ ـ سير الائمة، ج ٢، ص ٨٣.

١٥١ ـ الصواعق المحرقة، ابن حجر، ص ٢٠٣، مصر.

١٥٢ ـ كشف الغمة، ج ٢، ص ٢٥٣.

١٥٣ ـ تاريخ بغداد، ج ٣، ص ٢٧.

١٥٤ ـ العناق: الانثى من ولد المعز قبل استكمالها الحول.

١٥٥ ـ الكافي، الكليني، ج ٥، ص ١٢٣؛ بحار الانوار، ج٤٨، ص١١٧.

١٥٦ ـ الارشاد، ج ٢، ص ٢٢٣.

١٥٧، ١٥٨ـ الارشاد، ج ٢، ص ٢٢٣؛ حلية الابرار، ج ٢، ص ٢٥٣.

١٥٩ـ حلية الابرار، ج ٢، ص ٢٨١.

١٦٠ـ الكمه: العمى.

١٦١ـ الكنيع: الأشلّ

١٦٢ـ حلية الابرار، ج ٢، ص ٢٨١.

١٦٣ـ الوافي، باب سجدة الشكر، نقلناه عن حلية الابرار، ج ٢، ص ٢٨٢.

١٦٤ـ حلية الابرار، ج ٢، ص ٢٨٢.

١٦٥ـ حلية الابرار، ج ٢، ص ٢٥٣.

١٦٦ـ حلية الابرار، ج ٢، ص ٢٥٤.

١٦٧ـ حلية الابرار، ج ٢، ص ٢٥١؛ قارن: بحار الانوار، ج ٤٨، ص ١٠٧.

١٦٨ـ حلية الابرار، ج ٢، ص ٢٥٠.

١٦٩ـ الكامل، ج ٥، ص ١٤٧٩، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥.

١٧٠ـ المصدر السابق.

١٧١ـ تاريخ بغداد، ج ١٠، ص ٢٠٨، نقلناه عن الامام الصادق، ج ٢، ص ٥٣٣.

١٧٢ـ راجع: مقاتل الطالبيين، ص ١٦٧؛ الكامل، ج ٥، ص ٣٧٠ـ ٣٧٣.

١٧٣ـ الدول العربية، فلهوزن، ترجمة د. عبد الهادي ابي ريدة، ص ٤٧٤، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

١٧٤ـ الملل والنحل، الشهرستاني، ج ١، ص ٢٤١، نقلناه عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج ١، ص ٤٨.

١٧٥ـ الكامل، ج ٥، حوادث سنة ١٣٦.

١٧٦ـ راجع رسالته الى المنصور كما اوردها الخطيب في تاريخه، ج ١٠، ص ٢١٨.

١٧٧ـ الكامل، ج ٥، ص ٤٧٤ـ٤٧٦؛ الامامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، ج ٢، ص ١٦١ـ ١٦٢.

١٧٨ـ الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج ١، ص ٤١.

١٧٩ـ الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج ٢، ص ٤٣٦.

١٨٠ـ مقاتل الطالبيين، ج ٤، ص ٣٦٦.

١٨١ـ نفس المصدر.

١٨٢ـ تاريخ الطبري، ج ١٠، ص ٢٠٠، أحداث سنة ١٤٥، مكتبة الاسدي، طهران.

١٨٣ـ الامامة والسياسة، ج ٢، ص ١٧٨ـ ١٧٩.

١٨٤ـ التهذيب، ج ٢، ص ١٠٤، نقلناه عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج ١، ص ٥٣.

١٨٥ـ مناقب ابي حنيفة، ج ١، ص ١٧٣؛ جامع اسانيد ابي حنيفة، ج ١، ص ٢٢٢؛ تذكرة الحفاظ، الذهبي، ج ١، ص ١٥٧، نقلاً عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج ١، ص ٥٣.

١٨٦ـ التحفة الاثني عشرية، ص ٨، نقلناه عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج ١، ص ٥٨.

١٨٧ـ مطالب السؤل، ج ٢، ص ٥٥، نقلناه عن الامام الصادق والمذاهب

الاربعة، ج ١، ص ٥٤.

١٨٨ ـ حور العين، احمد بن فارس، ص ٢١٠، نقلناه عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج ٢، ص ٤٣٥.

١٨٩ ـ الامامة والسياسة، ج ٢، ص ١٨٠.

١٩٠ ـ نفس المصدر، ص ١٧٦.

١٩١ ـ مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٠٩.

١٩٢ ـ تاريخ اليعقوبي، ج ٣، ص ١١٧.

١٩٣ ـ نور الابصار، الشبلنجي، ص ٢٤٧.

١٩٤ ـ مقاتل الطالبيين، ص ٢٧٣؛ زهرة الآداب، الحصري، ج ١، ص ١٢٣.

١٩٥ ـ بحار الانوار، ج ٤٧، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢؛ مهج الدعوات، السيد ابن طاووس، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢، مكتبة سنائي.

١٩٦ ـ اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٧٨، المكتبة الاسلامية، طهران.

١٩٧ ـ مقاتل الطالبيين، ص ٢٥١.

١٩٨ ـ وفيات الاعيان، ابن خلكان، ص ١١٢ ـ ١١٣.

١٩٩ ـ مقاتل الطالبيين، ص ٢٧٧.

٢٠٠ ـ تاريخ بغداد، ج ٧، ص ١٩٤.

٢٠١ ـ العقد الفريد، ج ٥، ص ٧٥.

٢٠٢ ـ تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٥٦.

٢٠٣ ـ تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٦٠ ـ ١٦١، مقاتل الطالبيين، ص ٢١٣ ـ ٢١٥.

٢٠٤ ـ الكامل، ج٥، ص ٥١٤ ـ ٥١٥.

٢٠٥ ـ نفس المصدر، ص ٥١٩.

٢٠٦ ـ نفس المصدر والصفحة.

٢٠٧ ـ اورد ابن قتيبة في الامامة والسياسة ج١ ص ٢١٦ انه قُتل يوم الحرة ٨٠٠ رجلاً من اصحاب النبي ولم يبق بدري بعد ذلك، ومن قريش والانصار ٧٠٠، ومن سائر الناس عشرة آلاف. وكانت وقعة الحرة قد وقعت في ذي الحجة من عام ٦٣هـ.

٢٠٨ ـ تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٤٥٢.

٢٠٩ ـ الطبري، ج٦، ص ١٦٨.

٢١٠ ـ الكامل، ج٥، ص ٥٢١.

٢١١ ـ تاريخ الطبري، ج٦، ص ١٧١ ـ ١٧٢.

٢١٢ ـ تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٤٥٢.

٢١٣ ـ الكامل، ج٥، ص ٥٢٤.

٢١٤ ـ الكامل، ج٥، ص ٥٢٦؛ تاريخ الطبري ج٦، ص ١٨٣.

٢١٥ ـ الكامل، ج٥، ص ٥٣١؛ تاريخ الطبري ج٦، ص ١٨٨.

٢١٦، ٢١٧ ـ الكامل، ج٥، ص ٥٣٦ ـ ٥٣٨.

٢١٨ ـ الكامل، ج٥، ص ٥٤٤ ـ ٥٥١، الطبري، ج٦، ص ٢٢٠ ـ ٢٢٧.

٢١٩ ـ الكامل، ج٥، ص ٥٤٤ ـ ٥٥١؛ الطبري، ج٦، ص ٢٢٠ ـ ٢٢٧.

٢٢٠ ـ تاريخ الطبري، ج٦، ص ٢٢٧.

٢٢١ ـ الكامل، ج٥، ص ٥٦٠ ـ ٥٦١.

٢٢٢ـ نفس المصدر، ص ٥٦١.

٢٢٣ـ مقاتل الطالبيين، ص ٣٤٣.

٢٢٤ـ تاريخ الطبري، ج٦، ص ٥٤.

٢٢٥ـ نفس المصدر، ص ٢٥٦.

٢٢٦ـ سورة الاحزاب، الآية ٣٨.

٢٢٧ـ اعتمدنا في نقل وقائع ثورة ابراهيم بشكل رئيس على كتاب الكامل في التاريخ، ابن الاثير، ج٥، ص ٥٦٠ـ ٥٧٠.

٢٢٨ـ مروج الذهب، ج٣، ص ٣١٠ـ ٣١١.

٢٢٩ـ سورة الرعد، الآية ٢٠ـ ٢١.

٢٣٠ـ بحار الانوار، ج ٤٨، ص ٤٥، نقلاً عن قرب الاسناد ص ١٩٥.

٢٣١ـ الكامل، ج٥، ص ٥٤٤.

٢٣٢ـ نفس المصدر، ص ٥٧٨.

٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥ـ الكامل، ج٥، ص ٥٨٠.

٢٣٦ـ الاجازة في الشعر ان يزيد الشاعر على كلام غيره بعد فراغه منه (المنجد).

٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠ـ تاريخ الطبري، احداث سنة ١٦٩.

٢٤١ـ مروج الذهب، ج٣، ص ٣٢١.

٢٤٢ـ نقلاً عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج٢، ص ٤٧٧.

٢٤٣ـ تاريخ الطبري، ج٦، ص ٣٤٥.

٢٤٤ـ مقاتل الطالبيين، ص ٤١١.

٢٤٥ـ نفس المصدر، ص ٤١٨.

٢٤٦ـ نفس المصدر، ص ٤٢٤.

٢٤٧ـ نفس المصدر، ص ٤٠٣.

٢٤٨ـ سورة الاعراف، الآية ٣٣.

٢٤٩ـ سورة البقرة، الآية ٢١٩.

٢٥٠ـ بحار الانوار، ج٤٨، ص ١٤٩، عن الكافي ج٦، ص ٤٠٦.

٢٥١ـ بحار الانوار، ج٤٨، ص ٥٧، عن الكافي ج١ ص ٥٤٣.

٢٥٢ـ حياة الامام موسى بن جعفر، ج١، ص ٤٥١.

٢٥٣ـ بحار الانوار، ج٤٨، ص ٧١، عن اعلام الورى ص ٢٩٥.

٢٥٤ـ سورة محمد (ص)، الآية ٢٢.

٢٥٥ـ كشف الغمة، ج٢، ص ٢١٣؛ مقاتل الطالبيين، ص ٥٠٠.

٢٥٦ـ بحار الانوار، ج٤٨، ص ٧١.

٢٥٧ـ تاريخ الطبري، احداث سنة ١٦٩.

٢٥٨ـ مروج الذهب، ج٣، ص ٣٣٢ـ٣٣٤.

٢٥٩ـ نفس المصدر، ص ٣٣٤.

٢٦٠ـ نفس المصدر، ج٣، ص ٣٣٥؛ تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص ٢٧٩.

٢٦١ـ تاريخ الطبري، احداث سنة ١٦٩.

٢٦٣ـ البَدْرة ج بِدَر وبُدور = عشرة آلاف درهم؛ والبدرة من المال: كمية عظيمة منه، الكيس الموضوع فيه، (المنجد).

٢٦٤ـ تاريخ الطبري، ج١٠، ص ٥٩٦، مكتبة الاسدي، طهران.

٢٦٥ ـ نفس المصدر، ص ٥٩٧.

٢٦٦ ـ تاريخ الطبري، ج٦، ص ٤١٠، المطبعة التجارية، القاهرة.

٢٦٧ ـ مقاتل الطالبيين، ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦.

٢٦٨ ـ الفخري، ابن الطقطقي، ص ١٧٢.

٢٦٩ ـ مقاتل الطالبيين، ص ٤٣٩.

٢٧٠ ـ نفس المصدر، ص ٤٣٣.

٢٧١ ـ نفس المصدر، ص ٤٤٨؛ بحار الانوار، ج ٤٨، ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

٢٧٢ ـ مقاتل الطالبيين، ص ٤٤٩؛ الانوار، ج٤٨، ص١٦٩.

٢٧٣ ـ مقاتل الطالبيين، ص ٤٤٨؛ تاريخ الطبري، ج٦، ص ٤١٢.

٢٧٤ ـ مقاتل الطالبيين، ص ٤٤٩.

٢٧٥ ـ تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص ١٣٧.

٢٧٦ ـ مروج الذهب، ج٣، ص ٣٣٦.

٢٧٧ ـ مقاتل الطالبيين، ص ٤٤٩.

٢٧٨ ـ مروج الذهب، ج٣، ص٣٣٦.

٢٧٩ ـ مقاتل الطالبيين، ص ٤٥٢.

٢٨٠ ـ بحار الانوار، ج٤٨، ص ١٥٠.

٢٨١ ـ نفس المصدر، ص ١٦٥.

٢٨٢ ـ مروج الذهب، ج٣، ص ٣٣٧.

٢٨٣ ـ بحار الانوار، ج٤٨، ص ١٦٥.

٢٨٤ ـ بحار الانوار، ج٤٨، ص ١٦٣.

٢٨٥ـ نفس المصدر، ص ١٦٩.

٢٨٦ـ نفس المصدر، ص١٦١؛ الكافي، ج١، ص ٣٦٦.

٢٨٧ـ مقاتل الطالبيين، ص ٤٥٣؛ بحار الانوار، ج ٤٨، ص ١٦٥.

٢٨٨ـ سورة الذاريات، الآية ٢٣.

٢٨٩ـ مهج الدعوات، ص ٢١٨ـ٢٢٧؛ بحار الانوار، ج٤٨، ص ١٥١ـ١٥٣.

٢٩٠ـ تلخيص عن البرامكة لمحمد عبد الرزاق الكانبوري، ص ١١٤ـ١١٧.

٢٩١ـ تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص ٣٨.

٢٩٢ـ مروج الذهب، ج٣، ص ٣٤٧.

٢٩٣ـ تاريخ الطبري، احداث سنة ١٧٠هـ.

٢٩٤ـ أبيات لأبي نؤاس.

٢٩٥ـ مروج الذهب، ج٣، ص ٣٧٠ـ ٣٧١.

٢٩٦ـ نفس المصدر، ص ٣٧٠.

٢٩٧ـ تاريخ ابن كثير، ج١٠، ص ٢٢٠، نقلناه عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج٢، ص ٢٢٥.

٢٩٨ـ الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج٢، ص ٢٢٦.

٢٩٩ـ نفس المصدر، ص ٢٢٥.

٣٠٠ـ سيدات البلاط العباسي، ص ٤٨.

٣٠١ـ مروج الذهب، ج٣، ص ٣٥١.

٣٠٢ـ البداية والنهاية، ج١٠، ص ٢١٩.

٣٠٣ـ مروج الذهب، ج٣، ص ٣٤٨.

٣٠٤ـ تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص ١٠٦، نقلناه عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج٢، ص ٢٢٦.

٣٠٥ـ مروج الذهب، ج٣، ص ٣٤٨.

٣٠٦ـ تاريخ ابن خلدون، ج٣، ص ٤٦٣، نقلناه عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ج٢، ص ٢٢٦.

٣٠٧ـ تاريخ الطبري، ج١١، ص ٧٤١، مكتبة الاسدي، طهران.

٣٠٨ـ المصدر السابق، ص ٣٦٠.

٣٠٩ـ المصدر السابق، ص ٧٤٤.

٣١٠ـ الاغاني، ابو الفرج الاصفهاني، ج٥، ص ٢٥٥.

٣١١ـ تاريخ الطبري، ج١٠، ص ٦٠٦، مكتبة الاسدي، طهران.

٣١٢ـ امالي الشيخ الطوسي، ص ٢٠٦.

٣١٣ـ عيون اخبار الرضا، الشيخ الصدوق، ج١، ص ١٠٨؛ البحار، ج٤٨، ص ١٧٧ـ١٧٨.

٣١٤ـ كان عبد الله بن الزبير قد حبس بني هاشم في شعب مكة، وأضرم عليهم النار، كما امتنع عن الصلاة على الرسول في خطبه، واضطهد محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وأخرجهما الى جبل رضوى والطائف. (ابن عساكر، التاريخ الكبير، ج٧، ص ٤٠٨).

٣١٥ـ تاريخ الطبري، ج٦، ص ٤٥٢.

٣١٦ـ مقاتل الطالبيين، ص ٤٩٨.

٣١٧ـ مقاتل الطالبيين، ص ٤٩٢.

٣١٨ـ نفس المصدر، ص ٤٨٧ـ ٤٩٠؛ الكامل، ج٦، ص ٦٠.

٣١٩ـ مقاتل الطالبيين، ص ٤٦٣؛ البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٨٤.

٣٢٠ـ تاريخ الطبري، ج٦، ص ٤٥٠.

٣٢١ـ مقاتل الطالبيين، ص ٤٦٩ـ ٤٧٠.

٣٢٢ـ للوقوف بشكل مفصل على حركة يحيى بن عبد الله راجع: البحار ج٤٨، ص ١٨٢ـ١٨٧؛ العقد الفريد، ج ٥، ص ٨٧؛ شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ج ٤، ص ٣٥٢؛ مقاتل الطالبيين، ص ٤٦٣ ـ ٤٨٠؛ تاريخ الطبري، ج٦، ص ٤٥٠ـ ٤٥٤؛ تاريخ بغداد، ج ١٤، ص ١١٠.

٣٢٣ـ الامامة والسياسة، ج ٢، ص ١٨٣.

٣٢٤ـ وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج ١٢، ص ١٣٠.

٣٢٥ـ نفس المصدر، ص ١٣١.

٣٢٦ـ نفس المصدر، ص ١٣٣.

٣٢٧ـ سفينة البحار، عباس القمي، ج ٢، ص ١٠٧، كتابخانه سنائي، رجال الكشي، ص ٣٦٨ـ ٣٧٧.

٣٢٨ـ بحار الانوار، ج ٤٨، ص ١٧٢ـ ١٧٣.

٣٢٩ـ وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٤٣، دار احياء التراث العربي.

٣٣٠ـ الفهرست، ابن النديم، ص ٣٢٨؛ رجال الكشي، ص ٢٧٠.

٣٣١ـ المدرعة: جبّة مشقوقة المقدم (المنجد).

٣٣٢ـ مناقب آل ابي طالب، ج ٤، ص ٢٨٩؛ الارشاد، ج ٢، ص ٣١٣؛ بحار

الانوار، ج٤٨، ص ١٣٧ـ ١٣٨.

٣٣٣ـ بحار الانوار، ج٤٨، ص ١٣٧.

٣٣٤ـ الارشاد، ص ٢٦٦.

٣٣٥ـ مقاتل الطالبيين، ص ٥٠١ـ ٥٠٢؛ بحار الانوار، ج٤٨، ص ٢٣١ـ ٢٣٢.

٣٣٦ـ مناقب آل ابي طالب، ج٤، ص ٣٢٦.

٣٣٧ـ مقاتل الطالبيين، ص ٥٠٢؛ بحار الانوار، ج٤٨، ص ٢٣٢ـ ٢٣٣.

٣٣٨ـ مقاتل الطالبيين، ص ٥٠٣؛ مناقب آل ابي طالب، ج٤، ص٣٢٧؛ حلية الابرار، ج٢، ص ٢٥١.

٣٣٩ـ حلية الابرار، ج٢، ص ٤٥٢.

٣٤٠ـ الارشاد، ج٢، ص ٢٣٢.

٣٤١ـ البداية والنهاية، ج١٠، ص ١٨٣.

٣٤٢ـ سورة الانعام، الآية ٨٤ـ ٨٥.

٣٤٣ـ سورة آل عمران، الآية ٦١.

٣٤٤ـ عيون اخبار الرضا، ج١، ص ٦٩، منشورات الاعلمي، طهران؛ بحار الانوار، ج٤٨، ص ١٢٨ـ ١٢٩.

٣٤٥ـ بحار الانوار، ج٤٨، ص ٢٤٧ـ ٢٤٨.

الفهرست

الاهداء ٣
المقدمة ٥

* الفصل الاول: قيام الدولة العباسية ١١
من هم العباسيون ١٣
البحث عن الشرعية ١٩
الدعوة لأهل البيت ٢٠
مركز الدعوة العباسية ٢٢
الاستيلاء على السلطة ٢٤
ابو العباس السفاح ٢٧
مصرع الخلال ٣٠
موقف الامام الصادق ٣٢
البشائر الملفقة ٣٩
سياسة الجور والارهاب ٤٦

* الفصل الثاني: المحاولات العباسية لطمس معالم مذهب اهل البيت ٥٥

سيف الرافضة ٥٧
انتزاع الشرعية ٦٥
اتهامات ٧١
السبئية والكيسانية ٧٤
قمع العلويين ٧٩
المتملقون والانتهازيون ٨٥
باعة الكلمة ٩٥

* **الفصل الثالث:** ملامح شخصية الامام موسى بن جعفر(ع) ١٠٣
الامام شخصية من الطراز الأول ١٠٥
وليد الابواء ١١٤
أُمّه ١١٧
كناه والقابه ١٢٠
إمامته ١٢٢
وفاة اسماعيل ١٢٧
الفطحية ١٣٠
سجاياه وفضائله ١٣٨
تكافله الاجتماعي ١٤٧
عبادته وتقواه ١٥٦

* **الفصل الرابع:** الامام الكاظم (ع) والخلفاء العباسيون ١٦٧

١ ـ اوضاع الساحة الاسلامية في أيام ابي جعفر المنصور ١٧١
الايقاع بابي مسلم ١٧٢
التظاهر بالتدين ١٨٣
مع الامام الصادق ١٩٦
ثورة النفس الزكية ٢٠٤
اعلان الثورة ٢١٧
الاستشهاد ٢٢١
ثورة ابراهيم ٢٢٥
٢ ـ مواقف الامام من المهدي والهادي ٢٣٥
مجيئ المهدي ٢٣٩
موقفه من العلويين ٢٤٤
مع الامام الكاظم ٢٤٩
موت المهدي ٢٥٧
الهادي واللهو ٢٥٨
ثورة فخ ٢٦٢
موقف الامام من الثورة ٢٧٢
هلاك الهادي ٢٧٦
٣ ـ المواجهة بين الامام الكاظم (ع) وهارون ٢٧٩
هارون المترف ٢٨٠
سياسة العداء لأهل البيت ٢٨٩

ثورة ادريس ٢٩٥
ثورة يحيى ٢٩٧
هاجس الامام الكاظم ٣٠٥
تحريم التعاون مع الظلمة ٣٠٧
القرار الصائب ٣١١
نفاد الصبر ٣١٥
الاسباب المباشرة للاعتقال ٣١٥
الامام في السجن ٣١٩
منطق الحق ٣٢١
كرامة الشهادة ٣٢٥
الهوامش ٣٢٨